

الألف كتاب (الثاني)

التوافق النفسي

مطبعة جامعة القاهرة

مؤلف: د. محمد عبد الحليم

محرر: د. محمد عبد الحليم





mohamed kha



mohamed kha



mohamed khatab



mohamed kha



mohamed kha



mohamed khatab



mohamed kha



mohamed kha



mohamed khatab



mohamed kha



mohamed kha



mohamed khatab



mohamed kha



mohamed kha



mohamed khatab



mohamed kha



mohamed kha



mohamed khatab

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام

و. سمير سرهان
رئيسة مجلة البدار

رئيس التحرير

لمسعى المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

محمود عبيد .

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

مسرود نسيم

التوافق النفسى

تحليل المعاملات الإنسانية

تأليف : د. توماس أ. هاريس

ترجمة : إبراهيم سلامة إبراهيم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

كلمة المترجم

طالما انشغلت وانشغل غيرى ، بالنظر فى غرابة مصطلحات علم النفس دون غيره من العلوم الحديثة ، وتباعده عن احتلال موقعه الطبيعى كعنصر ضرورى من عناصر الثقافة العامة للناس ، رغم الحاجة اليه - ليس فقط لعلاج المشاكل النفسية للفرد ، تلك التى تؤثر فى علاقته بالمجموع ، بل أيضا كمرشد يحول دون تفاقم هذه المشاكل الى الدرجة التى تستدعى العلاج المتخصص الذى قد يطول مهنوات .

وعندما صادفت هذا الكتاب اكتشفت فيه ضالتي التى كنت انشدها . . انه يقدم للناس فكرة مبسطة عن علم النفس فى أهم مجالاته إلا وهو مجال التحليل النفسى ، مع الاقلال من المصطلحات الصعبة او على الأقل محاولة تبسيطها . . وتلور الفكرة العامة للكتاب حول أجوبه وفوائده استخدام ابتكار جديده فى مجال التحليل النفسى ألا وهو تحليل المعاملات كأسلوب لعلاج العديد من المواقف المنحرفة فى السلوك البشرى ، ولذلك فهو يعرض فى استفاضة لموضوع تحليل المعاملات بصورة تجعله جديرا بالانضمام الى فروع الثقافة العامة .

ونفى رأى الشخصى أن هذا الكتاب استكمال لكتابين آخرين وضمهما استاذ تحليل المعاملات الدكتور اريك برن Eric Berne وهما :

١ - تحليل المعاملات فى العلاج بالتحليل النفسى

1. Transactional Analysis in Psychotherapy

2. Games People play.

٢ - ألعاب يلعبها الناس .

وقد صدر الكتابان في نيويورك - أولهما سنة ١٩٦١ ويدور حول هذا الفرع الجديد لتحليل النفس من خلال العلاج الجماعي لمجموعة من المرضى أو الدارسين وملاحظة سلوكهم وردود أفعالهم حيال المواقف المختلفة التي ابتكرها المؤلف وجعل منها برنامجا للعلاج .

وصدر الكتاب الثاني سنة ١٩٦٤ ويدور حول استخدام تصنيفات من الألعاب التي صممت بعناية لكي تلعبها مجموعات المرضى أو الدارسين كممارسة عملية للسلوك البشري المتحرر والتلقائي ازاء المواقف المختلفة تحت إشراف طبيب نفسي متمرس يقوم بالملاحظة والتصحيح .

وقد اعتمد الدكتور توماس هاريس في وضع مؤلفه الذي بين أيدينا على هذين الكتابين بصفة أساسية وانتقل منهما الى التوسع في عرض وتطبيق مبادئ تحليل المعاملات بالنسبة للجوانب المختلفة من حياة الفرد اعتمادا على العناصر الأساسية التالية :

١ - اتباع أسلوب توضيحي يعتمد على بناء النماذج لتسهيل إدراك المفاهيم التي يصعب إدراكها بالتجريد المطلق ، مع اعتماد هذه النماذج على رموز معينة لفظية أو رياضية لتوضيح ما يدور داخل عملية السلوك التي اصطلح على تسميتها : معاملة Transaction

٢ - اعتمد على النموذج الذي قدمه الدكتور اريك برن وأسماه : نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ومنه نعرف أن الشخصية تنقسم الى ثلاثة عناصر تسيطر على السلوك الفردي الذي ينطلق من العنصر الأقوى سواء كان هو الوالد أو الراشد أو الطفل . وتوصل الى ضرورة الفصل بين العناصر الثلاثة .

٣ - تخيل أن في كل فرد حاسبا آليا ، تصنف فيه المعلومات الواردة تحت ثلاثة ملفات هي : « الوالد » ، و « الراشد » ، و « الطفل » وفي الوقت المناسب تخرج المخرجات حسب الشريط المسجل عليه المعلومات في المنع ، منطلقا للتعبير عن العنصر الأقوى من العناصر الثلاثة الداخلة في بناء الشخصية - وانتهى الى أنه كلما كان « الراشد » هو الأقوى والمسيطر ، كلما كانت المعاملات طبيعية وبناءة .

٤ - جعل للحياة أربعة مواقف تسيطر على الشخصية بالترتيب منذ الولادة النفسية للإنسان لتنتهي به الى التوافق النفسي من خلال موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) وهو الموقف الطبيعي للشخص الطبيعي . على أنه إذا طغى الشخص يعيش تحت تأثير أي من المواقف

الثلاثة الأخرى فانه يحتاج الى العلاج النفسى لتصحيح ما يكون قد ألم به
من انحراف .

٥ - استخدام تحليل المعاملات كاسلوب حديث للعلاج النفسى مع
الاعتماد على الألعاب ، والعلاج الجماعى من خلال تحليل المعاملات ، وتدريس
نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لمجموعات المرضى أو التارسين كبدايه
لفهم الانحرافات ، ووصولاً الى السلوك الطبيعى للانسان الطبيعى .

والكتاب بوجه عام يساعد القارىء على أن يتعلم كيف يتحكم فى
نفسه ، وفى علاقاته ، وفى مستقبله - بصرف النظر عما يكون قد ترسب
فى عقله الباطن من مفاهيم خاطئة أو أساليب سلوكية غير سوية أو قصور
فى التربية وهى كلها رغم اندراجها فى قائمة أحداث الماضى ، الا أن الماضى
رغم تشكيله للعديد من أساليب سلوك الناس ، الا أنه لايرقى الى أهمية
الحاضر ، الذى ينبنى عليه المستقبل . كل المستقبل .

وقد أضفنا من عندنا تعليقات وتفسيرات ميزناها بعلامة (★) فى
بدايتها ، أو كلمة (المترجم) فى نهايتها وذلك للفرقة بينها وبين العبارات
الأصلية للمؤلف .

ونرجو أن يساعد هذا الكتاب كل قارىء على أن يعيش الحاضر
كإطلاقة نحو المستقبل ، متحرراً من قيود الماضى بعد أن يتفهم دوافعه ،
وبذلك يبدأ حياة جديدة متحررة من الخوف والقلق والمجهول ، وأن
يبتسم للحياة ، وينظر اليها نظرة التفاؤل والقبول .

المترجم

إبراهيم سلامة إبراهيم

(دبلوم الدراسات العليا فى الآلام)

تعريف

المؤلف :

الدكتور توماس ا . هاريس Thomas A. Harris طبيب نفسى متمرس بمدينة ساكرامنتو بولاية كاليفورنيا الامريكية . ولد فى تكساس وحصل على درجة البكالوريوس فى العلوم سنة ١٩٣٨ من كلية الطب بجامعة اركانساس ، ثم حصل على اجازة الطب سنة ١٩٤٠ من كلية الطب بجامعة تمبل . وفى سنة ١٩٤٢ بدأ التدريب على الطب النفسى بمستشفى سانت اليزابيث بواشنطن . ثم علم بعدها فى البحرية كطبيب نفسى . وفى سنة ١٩٤٧ عين رئيسا لفرع الطب النفسى بـمكتب الطب والجراحة بادارة البحرية . وبعد اعتزاله الخدمة فى البحرية برتبة « كوماندير » ، قام بالتدريس فى كلية الطب بجامعة اركانساس . ثم اصبح مديرا لادارة المعاهد بولاية واشنطن . وفى سنة ١٩٦٥ دخل ميدان العمل الخاص فى ساكرامنتو . وهو مؤسس ورئيس معهد « تحليل المعاملات » هناك ، ومدير التحلل تحليل المعاملات الدولى .



المترجم : ابراهيم سلامة ابراهيم :

ولد فى روض الفرج بمحافظة القاهرة فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٨ تخرج من كلية الآداب بجامعة القاهرة فى مايو ١٩٦١ ثم حصل على دبلوم الدراسات العليا فى الصحافة والنشر من كلية الاعلام بجامعة القاهرة فى يونية ١٩٨٣ .

ويعمل حاليا مدير ادارة بالادارة العامة لمعلومات الطيران بالهيئة العامة للطيران المدنى بـمبنى القاهرة الدولى . له مؤلفات فى مجال بحوث الطيران المدنى ، كما ساهم بقلمه فى العديد من المقالات والدراسات التى نشرت له بمجلة روزاليوسف ومجلة الجمهورية ومجلة الانجبار ومن أعماله : المسيحية بين الاعلام والدعاية - والطيران المدنى والسلام العالمى .

قام بترجمة كتب عديدة منها كتاب : محاكمة يسوع المسيح لفرانك باول وكتاب الحياة بعد الموت للدكتور ر . ا . مودى .

تنويه

تجدر بنا الإشارة الى أنه يجب قراءة هذا الكتاب من البداية الى النهاية . أما اذا قرئت الفصول الأخيرة قبل الفصول الأولى ، تلك التي تحدد أسلوب ومفردات تحليل المعاملات ، فإن القارئ لن يحقق المعنى الكامل للفصول الأخيرة فقط ، بل أنه سيتوصل أيضا الى استنتاجات مضللة .

ان الفصلين الثاني والثالث ضروريان لفهم كل ما يرد بعدها . أما بالنسبة للقراء الذين تمتلكهم رغبة لا تقاوم في القراءة من النهاية الى البداية ، فأنني أود أن أشير الى خمس كلمات لها معانٍ مختلفة تختلف عن معانيها المعتادة ، وهي كلمات : والد ، راشد ، طفل ، على مايرام (*) ، العباب .

المؤلف

توماس أ . هاريس

(*) يلاحظ أننا في سياق الكتاب سنقتصر على استخدام والد وراشد وطفل باعتبارها مسميات لأجزاء من شخصية الإنسان ، لا باعتبارها مسميات تعبر عن علاقات أسرية أو مراحل عمرية لأن هذه سوف تعبر عنها باستخدام الأب أو الأم أو الابن أو الإبن أو الكبار والصغار الخ . . . حسبما يقتضى السياق (لترجم) .

مقدمة

لنلاحظ في السنوات الأخيرة أن الناس بدأوا يضجون بالطب النفسي ، نظرا لطول أمد العلاج ، وتكلفته المرتفعة ، وتناجسه التي تقبل الأخذ والرد ، ومصطلحاته المبهمة التي لا يفهمها غير المتخصصين ، أن الطب النفسي يظهر للمديد من الناس مثل رجل ضرير يبحث في غرفة مظلمة عن قطعة سوداء ليس لها وجود . وتقول المجلات والمعادن الصحية العقلية ، أن العلاج النفسي شيء طيب ، ولكن لم تتضح بعد ماهيته أو ما يحققه .

وبالرغم من أن عامة الناس يستهلكون مئات الآلاف من الكلمات عن الطب النفسي كل عام ، فلا يوجد سوى القليل من المعلومات المفيدة ، التي تساعد الشخص المحتاج للعلاج في التغلب على الصورة الهزلية للأطباء النفسيين وأرائهم الغامضة .

وقد جرى التعبير عن هذا الموقف المتبرم في صورة القلق المتزايد ليس فقط من جانب المرضى وعامة الناس بل أيضا من جانب الأطباء النفسيين أنفسهم . وأنا واحد من هؤلاء الأطباء النفسيين . ويعتبر هذا الكتاب نتاجا للبحث عن اجابات تقدم للناس الذين يبحثون عن الحقائق المجردة ، ردا على استفساراتهم عن الكيفية التي يعمل بها العقل ، لماذا نعمل ما نعمله ؟ وكيف نستطيع التوقف عن عمل ما نعمل اذا رغبتنا في ذلك ؟ ان الاجابة تكمن فيما أشعر بأنه واحد من أكثر الاكتشافات الواعدة في الطب النفسي لعنة سنوات .

ذلك هو ما نطلق عليه اسم : تحليل المعاملات

Transactional Analysis

لقد أعطى هذا الاكتشاف راحة للناس الذين ثبتت عزائهم بسبب الغموض الذي يكتنف العديد من الأنماط التقليدية للعلاج النفسي . كما أعطى اجابة جديدة للناس الذين يريدون أن يتغيروا ، أكثر من أن يتأقلموا ، والناس الذين يريدون الإصلاح أكثر من التعود . وفى الواقع فان ذلك يواجه المريض بحقيقة أنه مسئول عما سيحدث فى المستقبل بصرف النظر عما حدث فى الماضى . والأكثر من ذلك أنه يتيح للأفراد امكانية التغيير ، واقامة تحكم ذاتى ، وتوجيه ذاتى ، واكتشاف حقيقة حرية الاختيار .

اننا ندين بالفضل الرفيع للدكتور اريك برن Dr. Eric Berne ، من أجل تطوير هذا الاسلوب لأنه وهو بصدد تطوير مفهوم تحليل المعاملات ، ابتكر نظاما موحدا للطلب النفسى الفردى والجماعى تميز بالشمول على المستوى النظرى ، والفاعلية على المستوى التطبيقى .

وقد حظيت بامتياز الدراسة مع برن خلال السنوات العشر الماضية ، والمشاركة فى الحلقة الدراسية المتقدمة التى يديرها فى سان فرانسيسكو .

لقد تعرفت لأول مرة على طريقة برن الجديدة للعلاج ، من خلال ورقة قدمها الى الاجتماع الاقليمى الغربى للمجموعة الأمريكية لاتحاد العلاج النفسى الذى عقد فى لوس أنجلس خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٥٧ ، وكان عنوانها : « تحليل المعاملات : أسلوب جديد وفعال للعلاج الجماعى » .

واقنعت بأنها لم تكن « مجرد ورقة أخرى » ولكنها كانت فى حقيقة الأمر رسما تفصيليا للعقل ، لم يقم به أحد من قبل ، مع مجموعة من المفردات الدقيقة التى يستطيع أى فرد أن يفهمها لتحديد أجزاء التصميم التفصيل .

لقد أتاحت هذه المجموعة من المفردات امكانية الحديث بين شخصين ، عن السلوك ومعرفة ما يعنيه .

وتتجهل احدى الصعوبات التى تربط بالعديد من الفاظ التحليل النفسى فى أنها لاتحمل نفس المعنى بالنسبة لكل شخص . ان كلمة الأنا EGO تمنى للوحة الأولى أشياء عديدة بالنسبة لأناس كثيرين ، وفرويد - على وجه التقريب - مثله مثل كل محلل نفسى جاء بعده - لديه تعريف مفصل ، ولكن هذه البنائات اللغوية الطويلة المعقدة التركيب ، لا تساعد على وجه الخصوص - مريضنا يحاول أن يفهم لماذا لا يستطيع الاستمرار فى أى عمل ، خاصة إذا تمثلت احدى مشاكله فى عدم استطاعته القراءة بكفاءة تساعد على اتباع تعليمات العمل ، ولا يوجد حتى مجرد اتفاق بين الباحثين النظريين حول معنى كلمة « الأنا » . ان المعانى الغامضة والانكار المعقدة قد أعاققت عملية العلاج أكثر مما ساعدتها . لقد لاحظ هيرمان ميلفيل أن العالم الحق لا يستعمل سوى القليل من الالفاظ

الصعبة ، وذلك عندما لا تستطيع الألفاظ الأخرى أن توفي بالغرض ،
بينما يظن صاحب المعرفة السطحية ، أنه يفهم الأشياء الصعبة ، بترديد
الألفاظ الصعبة . ان مفردات تحليل المعاملات هي الأداة الدقيقة للعلاج
لأن أي لغة يستطيع الفرد أن يفهمها ، تحدد الأشياء كما هي في الحقيقة ،
حقيقة التجارب التي حدثت بالفعل في حياة الناس الذين عاشوها بالفعل .

وكذلك فإن الطريقة التي كانت مناسبة لعلاج الناس في مجموعات ،
تشير الى امكانية سد الفجوة المتسعة بين الحاجة الى العلاج وبين الأشخاص
المدرسين الموجودين لأداء العمل . وخلال السنوات الخمس والعشرين
الماضية أوجدت شعبية الطب النفسي التي أخذت تظهر بكثافة ملحوظة في
السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة - توقعات أوسع
مما تستطيع امكانياتنا أن توفي بمطالبها . وقد زاد من هذه التوقعات
سنوية ، ذلك الفيض المتلاحق من الأدب النفسي ، سواء كان مطبوعا في
مجلات الطب النفسي أو مجلة المختار (Reader's Digest) ، ولكن يبدو
أن الهوة بين ذلك ، وبين العلاج ، أخذت في الاتساع . وكان السؤال يدور
دائما حول كيفية اخراج فرويد من الأريكة للالتقاء بالجمهور .

لقد عبر مايك جورمان Mike Gorman المدير التنفيذي
للمجلس القومي لمقاومة المرض العقلي- عن التحدي الذي يواجه الطب النفسي
للففاء بهذه الحاجة ، وذلك في كلمته الى الاجتماع السنوي لاتحاد الطب
النفسي الأمريكي بنيويورك خلال شهر مايو سنة ١٩٦٥ حيث قال :

« ما دمت قد انطلقت من صومعة صغيرة كانت تضم ثلاثة آلاف طبيب
نفسى سنة ١٩٤٥ الى منظمة متخصصة أكبر ، ضمت أربعة عشر ألف عضو
سنة ١٩٦٥ ، فأنتم مضطرون الى المشاركة في القضايا الكبرى لعصرنا
الحاضر مشاركة متزايدة . انكم لن تستطيعوا فيما بعد أن تختبئوا خلف
متاعب مكتبكم المخصوص المجهز بأريكة جينة الجشو ، وصورة فرويد عند
زيارته لمدينة روشستر بولاية ماساشوسيتس سنة ١٩٠٩ . اننى أطالب
بأن يطور الطب النفسي لغة عامة ، مضافة من القرابة الفنية ، ومناسبة
لمناقشة المشاكل العامة في مجتمعنا . اننى أعرف أن هذا عمل شديدا
الصعب ، لأنه يعنى استبعاد مصطلحات المهنة المريحة والأمنة والحصينة ،
والتأقلم على حوار المجالس القضائية الأشد حرارة . وبالرغم من صعوبة
هذا العمل ، إلا أنه من الضروري اتصامه اذا أردنا للطب النفسي أن يكون
مسموع الصوت في قاعات الحقوق المدنية في أمثلا » .

لقد أنلجت صمدوى الكتابات الأخيرة لعقد من أطباء النفس الشبان ، تلك التي تكشف عن نفور صحي من مسألة قضاء الحياة المهنية بكاملها في علاج عشرة إلى عشرين مريضاً كل عام .

Melvin Sabshin لما الطبيب النفسى الدكتور ملفين سايشين
فقد كان له تطبيق مثالى حيث قال :

• هناك سؤال بسيط يتعلق بما اذا كان في قدرة الطب النفسى انجاز هذه المهام أو الأدوار الجديدة بتوظيف مَهَارَاتِهِ التقليدية ومناهجِهِ البحثية النموذجية ، وممارساتِهِ الحالية - أم لا ؟ ان جوابي الشخصى على هذا السؤال هو : النقي - لأننى أعتقد أن هذه العناصر لا تقدم أساساً كافياً لأداء المهام والتشكيلات الجديدة .

انه من الضرورى للطب النفسى أن يواجه حقيقة أنه لا يستطيع أن يبدأ فى الوفاء بمطالب المساعدة النفسية والاجتماعية للفقراء والمتخلفين بمدارسنا ، والمصابين بالاجساد بين العاملين ذوى الياقات الزرقاء ، والسكان المصابين بالخوف من الأماكن المخلقة فى مدننا المزدهرة ، وهكذا دواليك - بلا نهاية .

• ان العديد من قادة الفكر يملطون اهتماماً متزايداً للدور الجديد الذى يتحتم أن يلعبه الطب النفسى خلال عشرات السنين القادمة ، ليس فقط فى توسيع قاعدة تدريب العاملين فى حقله ، ولكن فى الارتباط بالنظم السلوكية الأخرى على قسم المساواة فى انشاء برامج التدريب للآلاف المؤلفة من العاملين فى حقل الصحة العقلية الذين سيحتاج اليهم اذا ما قورنا تحقيق الأهداف التى طالب بها الرئيس كيندى فى رسالته التاريخية عن الصحة العقلية سنة ١٩٦٣ (١) .

ان برامج التدريب للآلاف من العاملين فى حقل الصحة العقلية باللغة العادية ، المجردة من الغرابية الفنية ، والمتناسبة لمناقشة المشاكل العامة فى مجتمعنا ، أصبحت ممكنة اليوم عن طريق تحليل المعاملات . لقد تم تدريب أكثر من ألف أخصائى بهذا الأسلوب فى ولاية كاليفورنيا ، وهذا التدريب آخذ فى الانتشار السريع الى أجزاء أخرى من الولايات المتحدة وإلى البلدان الأجنبية ، علماً بأن نسبة تقرب من نصف هؤلاء

(١) M. Gorman, "Psychiatry and Public Policy". The American Journal of Psychiatry, vol. 122 No 1 (July 1965).

الاخصائيين من الأطباء النفسيين ، بينما يشمل النصف الآخر أطباء من تخصصات أخرى (توليد - أطفال - باطني - ممارس عام) ، وعلماء النفس والعاملين في الحقل الاجتماعي ، ورجال البوليس الذين يلاحظون المجرمين تحت المراقبة ، والمرضات ، والمدرسين ، ومديرى الأفراد ، ورجال الدين ، والقضاة .

ان تحليل المعاملات يستخدم الآن للعلاج الجماعي فى العديد من المستشفيات والسجون ومؤسسات رعاية الشباب فى ولاية كاليفورنيا . انه يستخدم على يد الأعداد المتزايدة من الأطباء فى استشارات الزواج ، وعلاج المراهقين ، والاستشارات الكنسية ، ورعاية الأسر أثناء وجود الأم فى حالة وضع ، وفى واحدة على الأقل من مؤسسات رعاية المتخلفين عقليا ، وهى مؤسسة لوريل هيلز Laurel Hills فى ساكرامنتو .

وهناك سبب أساسى يجيب عن السؤال القائل : لماذا يقدم تحليل المعاملات مثل هذا الوعد بسد الفجوة بين الحاجة الى العلاج والوفاء به ، وهو أن تحليل المعاملات يقدم أقصى ما فى وسعه للجماعات . انه أداة تدريس وأداة تحصيل أكثر من أن يكون اعترافا ، واستكشافا أثريا للسرايب الطبقية . ونتيجة لممارستى الخصوصية للطب النفسى أقول أن ذلك قد أتاح العلاج لعدد من المرضى يصل الى أربعة أضعاف ما كان يحدث من قبل . ومن خلال عملي كطبيب نفسى - لعلاج المرضى وإدارة برامج المؤسسات الضخمة - على مدى السنوات الخمس والعشرين الماضية ، فأننى لم أثنأ بشئ يعادل مقدار ما يحدث اليوم من خلال ممارستى . ومن أبرز معانى مساهمة تحليل المعاملات أنه أتاح للمرضى أداة يستطيعون استخدامها . والفرض من هذا الكتاب هو التعريف بهذه الأداة ، التى يستطيع أى فرد استخدامها وليس من الضرورى أن يكون الناس مرضى حتى يستفيدوا منها .

إنها لتجربة عميقة المفزى أن ترى الناس وقد بدأوا يتغيرون ابتداء من الساعة الأولى للعلاج ، فيشعرون بالتحسن ، والنمو ، والتخلص من طغيان الماضى . اننا نؤسس أملنا الأكبر على التأكيد بأن ما حدث يمكن أن يحدث ثانية ، وإذا كان من الممكن أن تكون العلاقة بين شخصين بناءة ومجزية ، فستكون الخطوة التالية هى إمكانية أن يؤدى ذلك الى علاقتين أو ثلاثة أو مائة ، أو أننا نقنع بأن العلاقات سوف تؤثر فى كل الجماعات الاجتماعية حتى الأمم . ان مشكلات العالم - وهى مشكلات فردية مسجلة يوميا كعناوين للعنف واليأس - ليست بالضرورة مشكلات فردية ، وإذا

استطاع الأفراد أن يتغيروا ، فإن ميسار العالم يمكن أن يتغير - وهذا أمل يستحق التأييد .

وأود أن أشكر عددا من الناس لمساندتهم ومساعدتهم في الجهد المبذول في كتابة هذا الكتاب (١) - وأخيرا فأنني أعبر عن تقديري لمريضاي الذين أتاح لي تفكيرهم الخلاق والمتحرر - التوصل الى الكثير من مضمون هذا الكتاب - لقد كتبت بناء على طلبهم .

ت . ١٠ هـ .

مهد تحليل المعاملات

ساكرامنتو - كاليفورنيا

يونيو ١٩٦٨

(١) أورد المؤلف هنا قائمة بأسماء أطباء وعلماء واشخاص مع وظائفهم ونوعية الخدمات التي قدموها له ، وقد رأينا أن نحتفظها لعدم جدواها بالنسبة للقارئ العادي وأيضا لا هو واضح فيها من طابع الخصوصية التي لا تهم سوى المؤلف ، وحتى لا يتضخم حجم هذه الخدمة بدون داع - (المترجم) .

الفصل الأول

فرويد وبنيلا وبرن

(اننى اتناقض مع نفسى ، فانا كبير ، وانطوى على الكثير)
والث هويتان

كان هناك انطباع واحد ثابت عن الطبيعة الانسانية على مدى التاريخ وهو أنها تشتمل على عناصر عديدة ، وجرى التعبير عنها غالبا كطبيعة مزدوجة ، وهو ما يلمسه المرء فى الأساطير ، والفلسفة ، والدين وكلها عبرت عنه فى شكل صراع بين الخير والشر ، الطبيعة الأدنى والطبيعة الأرقى ، الانسان الداخلى والانسان الخارجى .

قال سوبرمست موم : « هناك أوقات » استعرض فيها العناصر المختلفة لشخصيتى فى حيرة ، فأتبين اننى قد سويت من أشخاص عديدين ، وأن شخصى العالى الذى له اليد العليا سيتغلب جتما لشخص آخر ، ولكن أى الأشخاص هو الحقيقى ؟ جميعهم أو لا أحد منهم ؟ » .

يستطيع الانسان أن يطمح الى الخير ويحصله ، وهذا أمر واضح على مدى التاريخ كله ، مهما كان فهمه لذلك الخير ، لقد رأى موسى النبى الخير فى أعلى درجاته ممثلا فى العدالة ، أما أفلاطون فقد تمثل له فى الحكمة ، أما السيد المسيح فقد ركزه فى المحبة . ولكنهم اتفقوا جميعا على أن الفضيلة ، مهما كان مفهومها ، ظلت مزعزة الكيان بنسبب شيء فى

الطبيعة الانسانية كان فى حرب مع شىء آخر ، ولكن - ما هما هذان
الشيطان ؟

عندما ظهر سيجموند فرويد على المسرح فى أوائل القرن العشرين ،
أخضع هذا اللغز لقصاص جديد ، هو نظام البحث العلمى . وتمثلت مساهمة
فرويد الأساسية فى نظريته القائلة بأن الفئات المتحاربة موجودة فى
اللاشعور . وأعطيت مسميات تجريبية للمتحاربين ، واعتبرت الأنا EGO
هو القوة المقيدة والمسيطر على الهو ID (الدوافع الغريزية) . وأن
الأنا هو الحكم الذى يراقب « مراعاة المصلحة الشخصية من منطلق المنفعة
العامة ، بطريقة مستتيرة » .

اننا ندين لفرويد كثيرا بسبب جهوده المضيئة الرائدة لاقامة الأساس
النظري الذى يبنى اليوم فوقه . وعلى مدى السنين فإن الدارسين والممارسين
قد أفاضوا ، ونظموا ، وأضافوا الى أفكاره ، الا أن « الأشخاص الذين
فى الداخل » ظلوا مراوغين . ويبدو أن مئات المجلدات المكتسبة مع
تعليقات مفكرى التحليل النفسى ، لم تقدم بعد أجوبة شافية للأشخاص
الذين كتبت عنهم .

واقفت فى صالة العرض بعد عرض فيلم «من يخاف فرجينيا وولف»
وأصغيت الى عدد من التعليقات التى ألقاها الأشخاص الذين شاهدوا الفيلم
مثل : « انتهى مرهق ! » أو « لقد حضرت الى السينما للخلاص من البيت »
أو « لماذا يعرضون مثل هذا الشئ ؟ » أو « لم أفهم الفيلم ، اننى أخمن
إنك طبيب نفسى » . وأحسست بأن العديد من هؤلاء الناس قد تركوا
السينما وهم يتعجبون لما كان يحدث ، وأنا متأكد أنه كانت هناك رسالة ،
ولكننى لا أستطيع أن أجده شيئا يخصهم أو ينفث عنهم فيما يتعلق بالأسلوب
الذى ينهون به « اللهو والألعاب » فى حياتهم .

اننا متأثرون فى أداء أعمالنا ببعض التعبيرات مثل تعريف فرويد
للتحليل النفسى بأنه « مفهوم ديناميكى يحصر الحياة العقلية فى حدود
تفاعل قوى الدوافع والضوابط المتبادلة » . ومثل هذا التعريف وتفسيراته
العديدة قد يكون مفيدا للمتخصصين ، ولكن كيف تكون مثل هذه التعبيرات
مفيدة للناس المصابين ؟ لقد استخدم جورج ومرثا فى مسرحية ادوارد ألبي-
ألفاظا محددة هى : أحمر ، قانى ، شجاع - وهى كلمات تتكون كل منها
من أربعة حروف فقط ، تتسم بالايجاز ومؤدية للفرض . والسؤال هو :

هل نستطيع كأطباء أن نتحدث مع جورج ومرثا بنفس الإيجاز والوضوح
عن « لماذا يثلاثن وكيف يتوجعان - بالطريقة التي أديا بها دوريهما ؟ » .

هل يمكن لما نقوله أن يكون ليس فقط صادقا بل أيضا معاوناً .
لأننا واضعون ؟

« اتكلم عربى لأن أنا موش فاهم بتقول ايه ؟ » (*)

هذه العبارة لا تعبر عن موقف من الأشخاص الذين يدعون أنهم
أخصائيون في مجالات علم النفس . ان ترديد أفكار التحليل النفسي
الغامضة باستخدام مصطلحات أكثر غموضاً - لن يصل الى الناس حيث
يعيشون . والنتيجة هي أن انطباعات عامة الناس يجسرى التعبير عنها
باستخدام الحشو الكثير للشفقة ، والأحاديث السطحية مع تعليقات موجزة
مثل : « حسنا ، أليست هذه هي الطريقة دائماً ؟ » بدون معرفة كيف يمكن
أن تكون الطريقة مختلفة .

وبمعنى آخر ، ان تخلف أساليب الكتابة المتخصصة عن طرق توصيل
المعلومات ، الذى يزيد في توسيع الهوة بين المتخصصين وغير المتخصصين ،
الما يعتبر واحداً من العوامل التي تسبب التباعد بينهما في عصرنا الحال .
ان الفضاء يفهمه رواده ، وفهم السلوك الانساني يدخل في اختصاص علماء
النفس والأطباء النفسيين ، وكذلك فان التشريع يدخل في اختصاص أعضاء
المجلس النيابي . وهذه أمور فرضتها طبيعة التقسم العلمى ، ولكن مشاكل
عدم الفهم وقصور الاتصال كثيرة جداً مما يحتم ابتكار الوسائل الكفيلة
بأن تجعل اللغة لا تختلف عن مواكبة تطور البحث العلمى .

وقد أمكن التوصل الى حل لهذه المعضلة في مجال الرياضيات عند
تطورها الى « الرياضيات الحديثة » التي تدرس الآن في المدارس بطول البلاد
وعرضها . وليست الرياضيات الحديثة شكلاً جديداً للحساب ، بقدر ما هي
توصيل للأفكار الرياضية . وهي لا تجيب عن أسئلة « ماذا ؟ » فحسب ،
ولكن أيضاً « لماذا ؟ » وعلى ذلك فان الاثارة في الرحلة الى القمر أو استخدام
الحاسب الآلى لن يظل أبى منهما محصوراً في نطاق العلماء وإنما سيصل
الى الطالب بطريقة مفهومة .

ان علم الرياضيات ليس جديداً ، ولكن الجديد هو الطريقة التي
نتحدث بها عنه . وسنجد أننا متخلفون لو ظللنا نستخدم أنظمة الحساب

(*) في النص الاصل : « تحدث بالانجليزية لأننى لا أفهم ما تقول » - الترجمة .

التي استخدمها البابليون أو شعب المايا أو المصريون، القدياء أو الرومان .
ان الرغبة في استخدام الرياضيات بأسلوب خلاق أوجت أساليب جديدة
لتنظيم مفاهيم الاحصاء . ولا شك أن الرياضة الحديثة اليوم قد آتت هذا
النمو الخلاق بحيث أصبحنا نعرف ونقدر التفكير الخلاق الذي قدمته
الأنظمة الأقدم ولكننا لانزح عمل اليوم بتلك الأساليب التي أصبحت الآن
محدودة الفعالية .

وهذا هو موقفى فيما يختص بتحليل المعاملات . اننى أقدر الجهد
المخلص الذى بذله علماء التحليل النفسى النظريون فى الماضى . اما ما أود
أن أقدمه فى هذا الكتاب فهو أسلوب جديد لعرض الأفكار القديمة ،
وأسلوب واضح لعرض الأفكار الجديدة ، ليس بالهجوم العدائى أو المعارض
لأنجاز الماضى ، ولكن مجرد تأكيد للدليل الساطع الذى يشير الى أن
الأساليب القديمة لا تؤدي الغرض المطلوب منها بكفاءة .

حدث مرة أن كان فلاح عجوز يقود آلة صيدلة لتسوية الأرض
المحرثة على طريق زراعى ، فاقترب منه شاب جاد من أعضاء جماعة الخدمة
العامة بالجامعة ، كان يتنقل بين المزارع لبيع ذليل جديد عن وقاية التربة
وأساليب الزراعة الجديدة . وبعد حديث مهذب سريع ، سأل الشاب
الفلاح عما اذا كان يريد شراء هذا الكتاب الجديد ، فأجاب الفلاح
العجوز قائلا :

« يا بنى ، اننى لا أزرع زرعاً جيداً يناسب مع ما أعرفه حالياً عن
الزراعة » .

ان الغرض من كتابى هذا ليس فقط عرض معطيات جديدة بل أيضا
الاجابة عن سؤال : لماذا لا يطبق الناس ما لديهم من معارف نافعة على
حياتهم ؟ ربما يعرفون أن الأشخاصيين لديهم الكثير مما يقال عن السلوك
البشرى ، ولكن هذه المعرفة لا يبدو أن لها اقل تأثير على تقاليدهم البالية ،
وزواجهم الهش ، أو صغارهم الغريبى الأطوار . قد يتجهون الى أبواب
رسائل القراء لطلب المساعدة ، أو يجدون أنفسهم فى شخصية أحد أبطال
الرسوم الهزلية (*) ولكن هل يوجد شيء يتصف بالعمق والبساطة
وينتسب الى ديناميكية السلوك الذى سيساعدهم فى العثور على اجابات

(*) Peanuts - سلسلة رسوم هزلية تصور طفلا مريضا بقدرة نفسية ، وتعرض
حياته مع أصدقائه ، وحى تصدر فى أمريكا وأوروبا بصفة يومية ، وتحتج مثالا على اقبال
الناس لها على البحث عن الذات فى شخصيات هذه الرسوم الهزلية - المترجم .

جدية لمشاكل قديمة ؟ هل توجد أية معلومات متاحة ، حقيقية وقادرة على تقديم العون في آن واحد ؟

ان بحثنا عن الاجابات . كان حتى سنوات قليلة - محدودا نظرا لفضالة ما كنا نعرفه عن كيف يختزن « المخ البشرى » الذكريات ، وكيف أن استثارة هذه الذكريات المختزنة مستؤدى الى استبعاد الماضي بحاضرنا .

جراح المخ والسيبار :

يعتمد أى فرض على برهان ملموس لتحقيقه . حتى وقت قريب كان هناك برهان ضئيل على وظيفة المخ فى عملية الادراك - وباختصار : كيف وأى من الاثنى عشر مليون خلية التى فى المخ - تختزن الذكريات ؟ وكم من الذكريات يمكن اختزانها ؟ وهل يمكن إختفاء الذكريات ؟ وهل الذكريات عمومية أم خصوصية ؟ ولماذا يسهل استرجاع بعض الذكريات دون غيرها ؟

ان الدكتور وايلدر بنفيلد Dr. Wilder Penfield - أحد المستكشفين المشهورين فى هذا المجال ، وهو أحد جراحي الأعصاب من جامعة ماكجيل فى مونتريال ، بدأ سنة ١٩٥١ فى التوصل الى برهان مثير لاثبات وتعديل المفاهيم النظرية التى تكونت كاجابات على هذه الأسئلة (١) (*) . ومن خلال جراحة المخ - أثناء علاج المرضى الذين يعانون من داء الصرع المركزى ، أشرف بنفيلد على سلسلة من التجارب مس خلالها قشرة مخ المريض بتيار كهربائى ضعيف مرسل من خلال مسبار مجلفن . وتراكت ملاحظاته حول الاستجابات لهذه الاثارات على مدى عدة سنوات . وفى كل حالة كان المريض كامل الوعى تحت تأثير التخدير الموضعى أثناء استكشاف قشرة المخ ، وكان قادرا على الحديث مع بنفيلد . وقد استمع خلال هذه التجارب الى بعض الأشياء المدهشة .

(١) W. Penfield, "Memory Mechanisms". A.M.A. Archives of Neurology

(*) كافة التعليقات والملاحظات التى ستورد فيما بعد خلال هذا الفصل مأخوذة عن هذا المصدر - للترجم .

(لما كان الهدف من هذا الكتاب أن يكون مرشداً عملياً لتحليل المعاملات وليس بحثاً علمياً فنياً ، فأننى أود أن أوضح أن المادة التالية من بحث بنفيلد - وهى المادة الوحيدة فى هذا الكتاب ذات الصبغة الفنية - قد أدرجتها فى الفصل الأول لأننى أعتقد أنها ضرورية لإقامة الأساس العلمى لكل ما يلى . ويبدو من البراهين الماثلة أن كل شيء فى شعورنا الواعى مسجل بالتفصيل ومخزن فى المخ ، ويمكن أن نسترجعه فى الوقت الحاضر . ان المادة التالية تتطلب أكثر من قراءة واحدة حتى يمكن تقدير اكتشافات بنفيلد حق قدرها) .

لقد وجد بنفيلد أن القطب الكهربائى المستخدم للانارة يستطيع أن يستدعى ذكريات من الواضح أنها مستمدة من ذاكرة المريض . وقرر بنفيلد أن « الخبرة البدنية التى نتجت عن ذلك ، تتوقف عندما يستبعد القطب الكهربائى ، ومن المحتمل أن تكرر نفسها عند استخدام القطب مرة أخرى . » وأعطى الأمثلة الآتية :

أولاً : حالة المريض م.ب. الذى استثير عند النقطة ١٩ من التجميع الأول من خص المخ الأيمن ، مما جعله يقول : « كان هناك بيانو وشخص يعزف عليه . كنت أستطيع أن أسمع الأغنية ، كما تعلم » . وعندما استثيرت النقطة مرة أخرى بدون انذار ، قال : « هذا انسان يتحدث الى انسان آخر » . وذكر اسما لم استطع أن أفهمه . . . كان يبدو مثل حلم . واثرت النقطة للمرة الثالثة ، وبدون انذار كذلك ، وحينذاك لاحظ شيئاً غريباً فقال : « آه ياربى - هناك شخص ما يفنىها » . وعندما اثرت النقطة للمرة الرابعة سمع نفس الأغنية ، وأوضح أنها كانت اللحن الرئيسى المتكرر فى برنامج اذاعى معين . وعندما اثرت النقطة ١٦ بينما كان القطب مثبتاً فى مكانه ، قال : « هناك شيء يعيد احدى الذكريات ، أستطيع أن أرى شركة سفن أب لتعبئة الزجاجات . . ومخبز هاريسون » . وحينذاك نبهناه الى أنه قد استثير ، ولكن القطب لم يكن مثبتاً فى مكانه ، فاجاب : « لا شيء » .

وفى حالة أخرى اثرت نقطة على السطح الأعلى للفص المخ الأيمن فى اخدود سلفيوس (*) للمريضة د . ف . وسمعت المريضة أغنية شعبية

(*) نسبة الى الدكتور فرانز دى لا بوسلفيوس Dr. Franz de la Boe Selvius الذى عاش فى الفترة من ١٦١٤ - ١٦٧٢ فى مدينة لين ، وهو الذى ينسب اليه أيضاً ملح السليسلات الذى يساعد على الهضم فيمال Digestive salt of Selvius أى ملح سلفيوس الذى يساعد على الهضم - للترجم .

معينة تؤدي كما لو كانت تعزفها أوركسترا • وتكررت نفس الموسيقى مع تكرار الاستشارات • وعندما كان يوضع القطب في مكانه ، وكانت تدنبن باللعن والقرار والأبيات التي كانت تصاحب الموسيقى التي كانت تسميها على هذا النحو •

أما المريض ل • ج • فقد مر بتجربة شيء قال عنه أنه حدث له من قبل • وقد أدت آثاره في نقطة أخرى من المخ إلى أن يرى رجلا وكلبا يسيران بطول طريق قريب من منزله في الريف •

وسمعت امرأة أخرى صوتا لم تفهمه عندما استثير التجعيد الأول للبعص بصفة مبدئية • وعندما أعيد تثبيت القطب على نفس النقطة تقريبا سمعت صوتا ينادى بوضوح : « جيمي ، جيمي » وكان جيمي هذا هو اسم اللعج للزوج الشاب الذي اقترن بها مؤخرا •

ومن النتائج الأخرى الهامة التي توصل اليها بنفيلد ، أن القطب الكهربائي استثار ذكرى واحدة وليس خليطا من الذكريات • وهناك نتيجة أخرى بين ما توصل اليه بنفيلد وهي أن الاستجابة للقطب كانت تلقائية :

تحت التأثير القهري للمسيار ، ظهرت خبرة معتادة في وعي المريض سواء أراد أن يركز انتباهه عليها أم لا ، فتسللت أغنية خلال عقله ، ربما كان قد استمع إليها في مناسبة معينة : وجد نفسه جزءا من موقف معين ، تطور وتقدم مع تطور وتقدم الحدث الأصلي الذي كان له بمثابة فصل من مسرحية وهو الممثل والمتفرج في آن واحد •

وربما كان أكثر الاكتشافات أهمية هو أن المخ لم يسجل بالتفصيل الأحداث الماضية فقط ، بل أيضا الأساسيس التي ارتبطت بتلك الأحداث ، فالحدث والشعور الناتج عنه مرتبطان ارتباطا بحيث لا يمكن لأحدهما أن يستثار بدون الآخر • وقد قرر بنفيلد ما يلي :

يشعر المريض مرة أخرى بالانغمال الذي نتج عن الموقف ، مع إدراكه لنفس التفسيرات ، سواء كانت صائبة أم خاطئة ، تلك التي أعطاه هو نفسه للتجربة في المحلل الأول • وعلى ذلك فليست الذكرى التي استثيرت هي صورة فوتوغرافية أو صوتية مطابقة للأحداث أو المناظر الماضية • أنها صورة لما رآه المريض واستمع اليه وأحس به وفهمه •

أن الذكريات تستثار بالثيرات المتعلقة بالتجارب اليومية بنفس الطريقة التي استثيرت بها صناعيا باستخدام مسبار بنفيلد الكهربائي •

لنتمكننا أن نضيف الذكريات المستتارة في كل حالة ، وصفا أدق باعتبارها معايشة جديدة للتجربة أكثر منها استدعاء لها ، فالشخص ينتقل مؤقتا الى الماضي استجابة للمثير « أنا هناك ! » وقد تستغرق هذه التجربة جزءا من الثانية فقط ، وربما تستغرق عدة أيام ، وقد يظن المريض بعد التجربة الى انه كان هناك . واليك ترتيب الأحداث أثناء استعادة الذكريات عفويا : ١ - المعايشة (شعور لا ارادي وتلقائي) ٢ - التذكر (تفكير واع تلقائي عن الحدث الماضي الذي جرت معاشته) . ونحن لانستطيع أن نتذكر الكثير مما يجري حياؤه .

ويصور التقريران التاليان عن اثنين من المرضى الطريقة التي تستيقظ بها المثبرات الحاضرة احساس الماضي : ذكرت مريضة في سن الأربعين أنها كانت تسير في الفسارغ صباح أحد الأيام ، ومرت بمحل للأدوات الموسيقية فسمعت أصواتا موسيقية أشاعت جوا من الاكتئاب . أحسست بنفسها واقعة في قبضة خزن لم تستطع أن تفهمه ، وكانت شدته تكاد أن تكون « غير محتملة » ، وأحسست بأنه لا يمكن لأي شيء في وعيها أن يفسر ذلك . وبعد أن وصفت لي هذا الاحساس سألتها اذا ما كان هناك شيء في حياتها المبكرة ذكرت بها تلك الأغنية . فقالت : أنها لاتستطيع أن تقيم أي صلة بين الأغنية والحزن الذي أحسست به . وفيما بعد اتصلت تليفونيا خلال نفس الأسبوع لكي تخبرني بأنها وهي تدلن بالأغنية مرارا وتكرارا فاجابها خاطر ذكرى « رات خلالها أمها جالسة الى البيانو وسمعتها تؤدي هذه الأغنية » . وكانت الأم قد توفيت عندما كانت المريضة في سن الخامسة ، وقد أصابها موت الأم في ذلك الوقت باحباط شديد استمر لمدة طويلة من الزمن ، رغم ما بذلته العائلة لمساعدتها في تحويل عواطفها نحو إحدى خالاتها التي تكفلت برعايتها ولم يحدث أن ذكرت أنها سمعت هذه الأغنية من قبل أو أن أمها كانت يمزفها ، حتى اليوم الذي سارت فيه بجوار محل الأدوات الموسيقية . وقد سألتها عما اذا كانت استعادة هذه الذكرى المبكرة قد عافتها من الاحباط . فقالت أنها قد غيرت طبيعة احساسها فقد كان هناك احساس بالاكتئاب يعاودها كلما استرجعت ذكرى موت أمها ، ولكنه لم يصل الى درجة اليأس القاهر الذي شعرت به في البداية .

ويبدو أنها الآن تتذكر بكامل وعيها احساسا هو احياء لاحساس آخر بصفة مبدئية . ففي اللحظة التالية ، تذكرت كيف تحس بهذه الطريقة ، أما في اللحظة الأولى فقد كان الاحساس هو بالتمام نفس الاحساس الذي انطبع عندما ماتت أمها ، وكان عمرها حينذاك خمس سنوات .

ان الأحاسيس الطيبة تسنار بنفس هذه الطريقة ولاشك أننا نعي جميعاً كيف أن رائحة ، أو صوتاً ، أو لمحة عابرة ، تستطيع أن تولد فرحاً لا يوصف ، ولكنها قد تمر في بعض الأحيان دون أن يلحظها أحد . وإذا لم نركز عقولنا عليها ، فلن نستطيع أن نتذكر أين صادفنا من قبل تلك الرائحة أو الصوت أو المنظر ، ولكن الاحساس حقيقي . وسرد علينا مريض آخر هذه الواقعة : كان يسير في شارع « ال » ستريت بجوار حديقة ساكرامينتوز كابتول بارك ، وعندما شم رائحة الجير والكبريت التي يحسبها الناس سماداً يستعمل لتسميد الأشجار ، أحس بطمأنينة عظيمة وانسراح ، وكان من السهل عليه كشف الموقف الأصلي لأن الاحساس كان ساراً . لقد كان هذا هو نوع السماد الذي استخدم في الربيع المبكر في بستان التفاح الخاص بأبيه ، أما بالنسبة للمريض أثناء طفولته ، فقد كانت تتزامن هذه الرائحة مع مقدم الربيع ، وانسداد الأشجار ، وكافة المسرات التي يستمتع بها ولد صغير ، ينطلق إلى الغلاء بعد الشتاء الطويل ، وكما في حالة المريضة الأولى ، فإن التذكر الواعي بالأحاسيس كان مختلفاً قليلاً عن انبثاق الاحساس الأصلي الذي عايشه . انه لا يستطيع أن يستعيد ذلك الانتقال إلى الماضي كما فعل في هذه اللحظة العابرة . انه يبدو الآن كما لو كان يعايش احساساً يدور حول احساسه أكثر من الاحساس نفسه .

ويصور ما يل أحد استنتاجات بنفيلد الأخرى : تظل تسجيلات الذكريات سليمة حتى بعد أن يعجز صاحبها عن استعادتها :

تحتجز الذكري المستتارة في قشرة المخ ، تفاصيل التجربة الأصلية . وعلى ذلك فإنه عندما يتم التعرف عليها في وعي المريض ، تبدو التجربة كما لو كانت في الحاضر ، ربما لأنها تدفع نفسها إلى الانتباه بطريقة لا تقاوم ولا يستطيع المريض أن يتعرف إليها كذكرى حية من الماضي إلا عند انتهائها .

وهناك استنتاج آخر نستطيع التوصل إليه بناء على هذه المكتشفات ألا وهو أن المخ يعمل كمسجل عالي الدقة ، يسجل على شرائطه مسورة طبق الأصل من كل تجربة ابتداء من وقت الولادة ، وربما أيضاً قبل الولادة (ان عملية اختزان المعلومات في المخ هي عملية كيميائية تتعلق باختزال وتسجيل المعلومات التي لا تكون مفهومة تماماً ، وربما كان هذا التشبيه مفرطاً في بساطته ورغم هذا فقد أثبتت مضاهاة الذاكرة بجهاز التسجيل فائدتها في عملية التذكر . والنقطة المهمة هي أنه مهما كان أداء التسجيل فإن استعادته عالية الدقة) .

ويقول بنفيلد انه عندما يوجه الشخص العائى انتباهها واعيا
 لشيء ما ، فانه فى نفس الوقت يسجله فى كلا شطرى قشرة المخ .
 وهذه التسجيلات متتابعة ومتواصلة .

عندما يلامس القطب الكهربائى قشرة الذاكرة ، ربما يولد صورة -
 ولكن الصورة لا تكون ثابتة فى العادة . انها تتغير ، كما كانت تتغير عند
 رؤيتها فى الأصل ، وربما غير الشخص موضع التجربة اتجاه نظره .
 ان الصورة تتبع الاحداث كما شاهدها الشخص فى الأصل خلال الثوانى
 او الدقائق التالية . ان الأغنية الناتجة عن استثارة القشرة تتكشف
 ببطء ، من فقرة الى أخرى ، ومن النص الى القراء .

واستنتج بنفيلد أيضا أن الزمن يبدو انه الخيط الذى يربط
 استمرار الذكريات المستتارة . أما النبوءة الأصلية فهو محفوظ فى المخ
 بالترتيب .

ويبدو أن خيط التتابع الزمنى فى المخ يربط عناصر الذكريات
 المستتارة معا . ويبدو أيضا أن تلك العناصر الحسية التى لم يكن الفرد
 ينتبه الا اليها هى فقط التى يتم تسجيلها ، وليست جميع المؤثرات
 الحسية التى تنهر بلا انقطاع على الجهاز العصبى المركزى .

ان استثارة تتابع الذكريات المقدمة يجعلها تبدو مقنعة لدرجة أن
 كل ذكرى من الذكريات التى نستطيع استدعائها لها مسار عصبى
 منفصل .

واذا عرفنا أن قشرة المخ تقوم بتفسير الخبرة الحالية ، سهل علينا
 أن نفهم كيف أن الماضى يؤثر فى الحاضر ، أما الأوهام . . فقد نتج عن
 استثارة قشرة المخ . . . أما الاحساس الناتج بالاضطراب فهو أحد
 الأحكام على الخبرة الحالية - انه حكم بأن الخبرة عادية ، أو غريبة ،
 أو غير معقولة ، أو أن المسافات والأحجام متغيرة ، أو حتى أن الموقف
 الحالى مخيف .

هذه هى خدع الإدراك ، والاهتمام بها يقود الفرد الى الاعتقاد بأن
 تجربة جديدة قد تحفظ مباشرة بطريقة او بأخرى مع تسجيلات التجارب
 المشابهة السابقة ، وعلى ذلك يمكن الحكم بوجود الاختلافات أو التشابهات ،
 ولنضرب مثلا : بعد مرور فترة من الوقت قد يصبح من الصعب على الفرد
 أن يستعيد ذكرى مفصلة ودقيقة لما كان عليه صديق قديم فى سالف

الزمن ، غير أنه اذا قابل الصديق على غير ميعاد ، فمن الممكن أن يلاحظ
حالا - التغيير الذي أحدثته الزمن •

وهو يعرف كل ذلك جيدا - التجميدات الجديدة في وجهه ،
التغيير في الشعر ، تهدل الكتف •

ويتوصل بنفيلد الى :

ان اكتشاف الانماط القشرية التي تحفظ تفاصيل الخبرة الحالية ،
كما لو كانت في مكتبة متعددة المجلدات ، هو احدى الخطوات الأولى نحو
فسيولوجيا العقل • ان طبيعة النمط ، وآلية تكوينه ، وآلية استلامه
التوالي ، والعمليات الانساجية التي تشكل أساس الشعور - هذه كلها
ستترجم الى معادلات فسيولوجية يوما ما •

وعند نهاية المرض قال الدكتور لورنس س • كوبر Dr. Laurence
S. Kubie من بلتيوسر ، وهو أحد المحللين النفسيين البارزين
في الولايات المتحدة ، وكان بين الذين يناقشون ورقة بنفيلد - ما يلي :

اننى اشعر بجزيل الامتنان لهذه الفرصة التي اتيتحت لمناقشة ورقة
بنفيلد ... لأن هذه الورقة ذاتها قد استتارت مخيلتي ، والحقيقة أنها
جعلتني في حالة انفعال خلال الأسبوعين الآخرين ، اراقب قطع اللغز
المهزق انه محاولة وضع كل قطعة في مكانها على اللوحة حتى تظهر صورة
تلقى بعض الضوء على بعض من العمل الذي كنت أقوم به في السنوات
الماضية • أستطيع ان أحس بشبح هارفي كاشنج وشبح سيجموند فرويد
وهما يتصافحان من فوق راس هذا الاجتماع الذي طال الى ساعة متأخرة -
بين التحليل النفسي وجراحة الأعصاب الحديثة من خلال العمل التجريبي
الذي عرفه الدكتور بنفيلد •

ويمكن أن نختمم بإيجاز فنقول :

١ - يعمل المخ مثل جهاز تسجيل على الدقة •

٢ - يتم أيضا تسجيل الأحاسيس التي ارتبطت بالخبرات الماضية ،
وترتبط بهذه الخبرات ارتباطا لا ينقسم •

٣ - يستطيع الأفراد أن يعيشوا في حالتين في وقت واحد • ان
المريض الذي يعرف أنه كان يتحدث مع بنفيلد على الطاولة ، يعرف أيضا
بنفس القدر أنه كان يرى « شركة سفن أب لتعبئة الزجاجات » ومخبز

ماريسون ، كان مزدوج الوجود - فهو في وقت واحد ، داخل التجربة وخارجها يراقبها .

٤ - ان هذه الخبرات المسجلة .والاحاسيس المرتبطة بها يمكن استعادتها اليوم بشكل شديد الشبه بما كان عند حدوثها ، مع تقديم الكثير من المعلومات التي تحدد طبيعة المعاملات اليومية . ولا يمكن فقط استعادة هذه الخبرات بل أيضا احياؤها . اننى لا اذكر فقط كيف احسست ، بل اننى أيضا احس نفس الاحساس الآن .

وتكشف تجارب بنفيلد أن عمل الذاكرة ، الذى كنا نتناوله من قبل بمفهوم الاصطلاحات النفسية ، له سمة بيولوجية أيضا ، اننا لانستطيع ان نجيب عن السؤال القديم المتعلق بكيفية اتصال العقل بالجسم ويتصل بذلك أن تعود الى التقدم السريع الذى أحرز فى مجال أبحاث الوراثة عن كيفية ترتيب توارث الصفات داخل جزيء حامض الرايبونوكليك (٢) ، وقد علق الدكتور هولجارهايدن Dr. Holgar Hyden السويدي قائلا :

« ان القدرة على استعادة الماضي الى الشعور يمكن توقع وجودها فى أحد آليات الوجود البيولوجي العام الأولية ، ولما كان الارتباط الوثيق بآلية الوراثة مهما ، فاننا نجد فى هذا الخصوص أن جزيء حامض الرايبونوكليك مع امكانياته العديدة ، يمكن أن يوفى بالكثير من متطلبات هذه القدرة (٣) » .

أما الدليل الملحوظ الناتج عن هذه الدراسات البيولوجية فانه يساعد على تفسير الدليل الملحوظ فى السلوك الانسانى . كيف نطبق الاسلوب العلمى على السلوك بطريقة تتيح لاستنتاجاتنا أن تشكل كيانا سليما ومفيدا من المعارف - حسب استنتاجات بنفيلد ؟

(٢) مادة كيميائية معقدة توجد فى كافة الخلايا الحية ، ويظن انها النمط الذى تنفق وفقه البروتينات والانزيمات فى الخلية ويطلق عليها الاختصار RNA ويعنى Ribonucleic Acid - المترجم .

H. Hyden, "The Biochemical Aspects of Brain Activity, in (٣)
S.M. Farber and R. Wilson, eds., Control of the mind (New York :
Grove Press, 1964), p. 29.

اتخاذ المعاملة كوحدة أساسية للبحث :

يتمثل أحد أسباب وصم علوم العلاج النفسي بمخافاتنا لروح العلم والكثير من الخلاف الظاهر في هذا المجال ، في افتقار هذه العلوم الى وحدة أساسية يمكن دراستها واخصاها للملاحظة . انها نفس الصعوبة التي واجهت علماء الطبيعيات قبل فكرة الجزيء ، والأطباء قبل اكتشاف البكتريا .

ان أريك برن منشئ تحليل المعاملات ، قد فصل وعرف هذه الوحدة العلمية الأساسية :

ان وحدة العلاقات الاجتماعية تسمى « معاملة » . اذا التقى شخصان أو أكثر . . فإن أحدهما سيتكلم إن عاجلا أو آجلا ، أو يبتدىء اشارة على تسليمه أو اعترافه بوجود الآخرين . وهذه تسمى « حافز المعاملة » "Transactional Stimulus"

وحيث أنه سيقول الشخص الآخر أو يفعل شيئا يرتبط بالحافز بطريقة ما ، وهذا هو ما يسمى : « جواب المعاملة » "Transactional response" (٤) .

ان تحليل المعاملات هو أسلوب فحص هذه المعاملة حيث « أقوم بعمل شيء لك وأنت ترد بشيء مقابل » . وتحديد أي جزء من الشخص ذي الطبيعة المتعددة قد جرى تنشيطه . وفي الفصل التالي وعنوانه : « الوالد ، والراشد ، والطفل » سيجرى تحديد ووصف العناصر الثلاثة لهذه الطبيعة المختلفة .

ان تحليل المعاملات هو أيضا أسلوب لتنظيم المعلومات المستمدة من تحليل هذه المعاملات في كلمات لها نفس المعنى بالتحديد عند كل من يستخدمها .

.. ويعتبر استخدام هذه اللفظة واحدا من التطورات العظيمة الأهمية . ان الاتفاق حول معاني الكلمات بالإضافة الى الاتفاق حول ما يجري اختياره ، هما المفتاحان اللذان فتحا الباب الى « الأسرار المتعلقة بالسؤال : لماذا يفعل الناس ما يفعلون ؟ » وهذا الانجاز ليس بالقليل .

(٤) E. Berne, Games people play (New York : Grove Press, 1964), p. 29.

وفي فبراير سنة ١٩٦٠ حظيت بفرصة الاستماع الى امر خلاّب .
انه حديث يوم كامل ألقاه الدكتور تيموثي ليري Dr. Timothy Leary
الذي كان قد انضم لتوه الى شعبة العلاقات الاجتماعية بجامعة هارفارد .
لقد تحدث الى هيئة التدريس بمستشفى دى ويت الحكومى فى أوبورن
بكاليفورنيا ، حيث كنت أعمل مديرا للتعليم المهنى . وبالرغم من
الاستجابات المثيرة للجدل التى يثيرها الآن حول اصراره على استخدام
العقاقير سعيًا وراء التجربة المنبهة Psychedelic ، الا اننى اود
أن أستخدم هنا بعض تعليقاته ، لقدرتها على التعبير عن المشكلة بطريقة
مثيرة . وربما نستطيع تفسير ما أطلق عليه اسم « المسار المتعرج لانقشاع
الوهم الناتج » . لقد ذكر أن أحد احباطاته العظيمة كعلاج نفسى ، هو
عجز العلماء عن اكتشاف طريقة لوضع نموذج قياسى للغة والملاحظات
المختلقة بالسلوك الانسانى (٥) (٣) .

اود أن اتقاسم معكم بعضا من الخلفية التاريخية لا عاقنى كمالم
نفسى : عندما انظر الى الماضى أستطيع أن اتبين ثلاثة مراحل من الجهل
والافتقار للمعرفة ، مرت بها . اولها وهى أكثرها بهجسة ، يمكن أن
تسميها : مرحلة الجهل البرى . - عندما كنت تحت سيطرة المفهوم القائل
بان هناك بعض الأسرار الخاصة بالطبيعة الانسانية وأن ثمة قوانين وقواعد
وبعض علاقات العلة والمعلول ، واننى يوما ما قد اتقاسم هذه الأسرار
لاكون قادرا على تطبيق ما لدى من معرفة على قواعد السلوك البشرى هذه
لمساعدة الآخرين ، من خلال دراستى ، وخبرائى ، وقرائى .

اما فى المرحلة الثانية التى يمكن أن تسمى : مرحلة « الوهم بالعلم »
فقد اكتشفت اكتشافا مقلقا وهو اننى من جهة أجهل حقيقة السر ورغم
ذلك فقد تبينت ان الناس من جهة اخرى كانوا ينظرون الى كما لو كانوا
يظنون انى أعرف السر او اننى أكثرهم اقترابا منه . . . ولم يتمخض اى
من الأبحاث التى قمت بها أو اى من نشاطاتى عن أسرار تكتشف ، ولكننى
مرة اخرى كنت قادرا على أن أقول : « حسنا ، ليست لدينا حالات بما فيه
الكفاية » ، أو « علينا أن نطور من مناهج البحث » . وكانت توجد دائما
أحكام اظن انكم معتادون عليها . يستطيع الانسسان أن يرجع لحظة
الاكتشاف المؤلم ، ولكن فى النهاية تظهر الحقيقة غير السعيدة وهى انه
بالرغم من أن أشخاصا عديدين قد ينظرون وينصتون اليك ، ومنهم مرضاك

وتلاميذك ، الا انه بينما انت ذاهب الى لقاءات التدريب العمل تجد ان الجميع ينظرون اليك بحثا عن السر - وربما تبدأ التفكير ، وربما لاتعرف عما تتحدث .

وبعد هذا الاعتراف النادر والظاهر للشكوك ، الذى لايجرؤ الا القليل من المعالجين النفسيين على ذكره ، استمر ليرى فى وصف الانواع المختلفة من الابحاث الخاصة بالاختبارات والتبويبات والمناهج التى شغلته هو والعاملين معه . ولكنه خلال هذا المسعى واجه مشاكل عدم وجود لغة مشتركة ووحدة عامة للملاحظة :

اى الاحداث الطبيعية منصادفها بشكل حاتم بحيث نستطيع احصاءها ؟ لقد فضلت ان اقوم بتجربة حول امكانية تطوير لغات قياسية لتحليل اية معاملات طبيعية عن دراسة السلوك الطبيعى الحر . ووجدت ان من بين كافة المفاهيم الشعرية ، والجمل الموسيقية ، والاولات العاطفية ، التى نستعملها تعد كلمات مثل : « النمو » و « المساعدة » و « التطوير » اكثرها اغراقا فى الخيال وبعدا عن الواقع .

فما نعمل فى نطلق القليل من المعلومات المتوفرة عن انفسنا وعن الآخرين ، وليست لدى اية فكرة عن التغيرات الجديدة فى علم النفس ، او عن الكلمات او اللغة الجديدة لعلم النفس . اننى ببساطة احاول ان اطور اساليب جديدة تجعل البشر يفهمون ماذا يفعلون ، والوضوء التى يحدثونها . ان اكثر الامور اثارة لى فى العالم حتى الآن ، هو التوصل الى التناقضات بين الناس الداخلين فى المعاملة الواحدة . لانك بمجرد ان تتوصل الى ذلك ستواجه سؤالاً هو : « كيف تنشأ ؟ »

لقد استهجن غياب لغة قياسية فى السلوك الاجتماعى على شاكلة لغة السماسرة ، او بائى السيارات ، او لاعبى البيسبول :

وحتى بائى السيارات لهم كتبهم الزرقاء الصغيرة ، وقد وصلوا الى مستويات فى علم السلوك افضل منا نحن الذين ندعى بالاحصائيين . وفى الرياضة ، كل لاعب بيسبول ، سلوكه الطبيعى مسجل فى شكل قوائم قياسية مثل الجرى العشوائى ، او متوسط سرعته فى الجرى . وذلك للفهم وعمل التنبؤات عن البيسبول . واذا قررت بوصفك ناديا ان تبيع لاعب البيسبول الاول لكى تحصل على رام يستخدم اليد اليمنى ، فستجد كما من القوائم والفهارس السلوكية . انهم لا يستخدمون لغة شاعرية مثل ، « انه يجرى خلف الكرة الطاقرة كالفزول » او « انه علم لا يشق له غبار » . انهم يميلون الى استخدام السلوك .

كنت أجري وراء أسطورة في محاولة لاكتشاف السر . أردت أن
أنمو وأصبح طبيبا ماهرا وقادرا على تشخيص الأمراض . ولكن كافة آمالي
هذه بنيت على افتراض وجود قوانين وترتيبات وأسرار وأساليب يمكن
تطبيقها ، وإن الدراسة والبحث يمكن أن يكشف لنا عن هذه الأسرار .

ونقول أن تحليل المعاملات قد عثر على بعض من هذه القواعد والنظم.
لقد وجدنا لغة جديدة لعلم النفس ، تلك التي أحس « ليري » بالحاجة
إليها ، وبذلك أصبحنا أقرب من سر السلوك الانساني بقدر كبير .
لقد قدمت في هذا الفصل بعض المعلومات الأساسية التي تثبت فائدتها
لمعده كبير من الناس الذين عولجوا ، بين مجموعاتي ، باستخدام تحليل
المعاملات كأداة فكرية لفهم أساس السلوك والأحاسيس . أداة تعمل
غالباً بصورة أحسن ، ولها معنى أوسع إذا كانت لدينا فكرة عن كيفية
تطورها ، وكيفية اختلافها . هل اشتقت من معطيات أصيلة أم هي فكرة
أخرى طارئة ؟ هل كان كتاب برن : ألعاب يلعبها الناس Games People
play أحسن الكتب مبيعاً بسبب بدعة ، أم أنه يقدم للناس بعض
الأفكار السهلة الفهم والأصيلة عن أنفسهم ، وهم يكشفون عن ماضيهم في
الألعاب التي يلعبونها حالياً ؟

سنبدأ في الفصل التالي وصف هذه الأداة ، باستخدام مصطلحات :
الوالد ، والراشد ، والطفل . لأن هذه الكلمات الثلاثة لها معان خاصة
وشاملة تختلف عن معانيها المادية حيث أننا نستعملها في هذا الكتاب
كاصطلاحات ولذلك سينجم كليات : الوالد والراشد والطفل - ستبرز
خلال الكتاب . وكما سنكتشف في الفصل التالي فإن كلمة « الوالد »
لا تعني الأب أو الأم ، كما أن كلمة « الراشد » تعني شيئاً مختلفاً تماماً
عن معنى الشخص الكامل النمو ، وأن كلمة « الطفل » ليست بمعنى
الحدث الصغير السن .

الفصل الثاني

الوالد - الراشد - الطفل

(ان الولع بالحقيقة ، تعمله الاجوبة التي لها وزن السلطة المسلم

بها - بول تيليتش)

لاحظ برن مبكرا في أثناء تقدم عمله في كتابه عن تحليل المعاملات ، انه بينما أنت تنظر وتصفي الى الناس ، تستطيع أن تراهم وهم يتغيرون أمام عينيك ، انه نوع كامل من التغيير . وفي نفس الوقت تحدث تغييرات في تعبيرات الوجه ، والمفردات اللغوية ، والاياءات ، ووضع الجسم ، ووظائف البدنية التي قد تجعل الوجه يسيل الى الاحمرار ، والقلب يدق ، أو يتلاحق التنفس سريعا .

ونستطيع أن نلاحظ هذه التغييرات المفاجئة لدى كل شخص : الولد الصغير الذي يندفع في البكاء عندما لا يستطيع أن يجعل اللعبة تعمل ، الفتاة المراهقة التي يفيض وجهها المكتئب بالسعادة الغامرة عندما يدق التليفون أخيرا ، والرجل الذي يمتقع وجهه ويرتجش عندما يتلقى أنباء الفشل في صفقة تجارية ، والإب الذي يتحجر وجهه عندما يختلف معه ابنه . ان الفرد الذي يتغير بهذه الأساليب هو نفس الفرد من ناحية تركيب الهيكل العظمي والجلد والملابس . اذن فما الذي يتغير في داخله ؟ انه يتغير من ماذا الى ماذا ؟

كان هذا هو السؤال الذى خلب لب برن فى الخطوات الأولى لتحليل المعاملات . اعترف له محام فى الثانية والثلاثين من عمره كان يعالجه فقال : « اننى لست محاميا فى حقيقة الأمر ، انما أنا مجرد ولد صغير . » والحقيقة أنه كان خارج غرفة الطبيب النفسى محاميا ناجحا ، ولكنه أثناء العلاج شعر وتصرف كولد صغير . وكان يسأل أحيانا : « هل تخاطب المحامي أم الولد الصغير ؟ » واحتار برن ومريضه لوجود هذين الشخصين الحقيقيين ، أو هاتين الحالتين للوجود . وبدأ يتحدث عنهما بصفتيها « الراشد » و « الطفل » . انها حالة « الوالد » وتحدثت بالسلوك الذى جاء نتيجة لما رآه المريض واستمع الى أبويه يعملانه عندما كان ولدا صغيرا . ان التغييرات من حالة الى أخرى تظهر فى الأسلوب والشكل والكلمات والأيام : جاءتني امرأة فى الرابعة والثلاثين من عمرها للمساعدة فى حل مشكلة الأرق ، والقلق المستمر حول تصرفاتها مع صغارها والفعالها المتزايد ، وخلال الساعة الأولى للعلاج بدأت تبكى فجأة ثم قالت : « انك تجعلنى أحس كما لو كان عمري ثلاث سنوات . » وكانت فى صوتها وأدائها شبيها بصغير . فسألتها : « ماذا حدث حتى أنك تشعرين بأحاسيس الطفل ؟ » فقالت : « لا أدري » ثم أضافت : « لقد شعرت فجأة بما يشبه الفشل . » فقلت : « حسنا . دعينا نتحدث عن الصغار وعن الأسرة ، ربما نستطيع اكتشاف شيء داخلك تنتج عنه هذه الأحاسيس المتعلقة بالفشل واليأس . » وعند نقطة أخرى تغير صوتها وأسلوبها فجأة للمرة الثانية ، أصبحت انتقادية ومتعسفة « بعد كل شيء فان للأبوين أيضا حقوقا ، وعلى الأبناء أن يلزموا الأدب معها . » وهكذا نرى أنه فى خلال ساعة واحدة تغيرت هذه الأم الى ثلاث شخصيات مختلفة ومميزة : شخصية طفل صغير حقم بالأحاسيس ، وشخصية الوالد البار فى عيني نفسه ، وشخصية امرأة كاملة النضج تلجأ للاستدلال وتستخدم المنطق وأم لثلاثة صغار .

وأبقت الملاحظة المستمرة وجود هذه الحالات الثلاث فى جميع الناس ، وهذا الرأى يزعم أن فى كل فرد نفس الشخص الصغير الذى كان عليه فى سن الثالثة ، وكذلك أبواه ، وما هؤلاء الا تسجيلات فى المخ للخبرات الطبيعية للأحداث الداخلية والخارجية ، وقد حدث أكثرها أهمية خلال السنوات الخمس الأولى من العمر . وهناك حالة ثالثة تختلف عن هاتين الحالتين . ان الحالتين الأولى والثانية تسميان بحالتى « الوالد » و « الطفل » اما الثالثة فهى حالة « الراشد » (انظر شكل ١) .

وحالات الوجود هذه ليست أدوارا ولكنها حقائق نفسية . يقول برن ان « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » ليست مفاهيم مثل الأنا الأعلى

والأنا والهو ... ولكنها حقائق تعبر عن ظواهر (١) * وهذه الحالة تنتج عن الأحداث الماضية المتعلقة بأشخاص حقيقيين ، وأزمة حقيقية ، وأماكن حقيقية ، وقرارات حقيقية ، ومشاعر حقيقية .



شكل ١ : التسوية

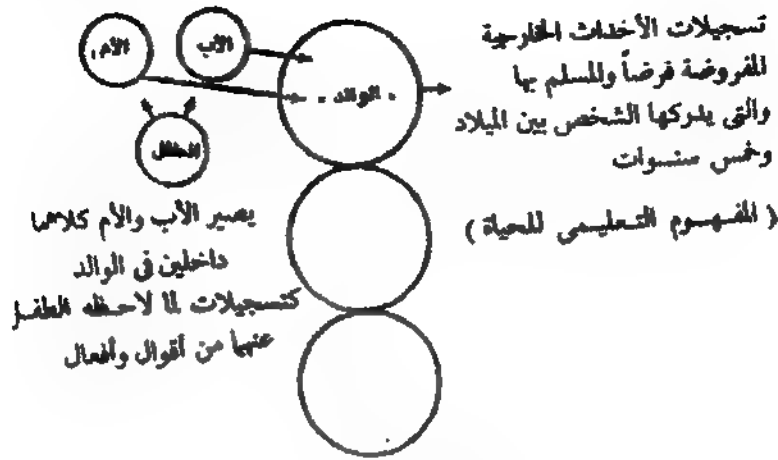
الوالد :

« الوالد » هو مجموعة كبيرة من التسجيلات التي في المخ للأحداث الخارجية التي تناقش ، أو فرضت فرضاً ، وقد وعاهما الشخص في سنواته المبكرة ، وهي مرحلة حددناها بالسنوات الخمس الأولى من العمر . وهذه هي الفترة السابقة على الولادة الاجتماعية للفرد ، قبل أن يترك البيت لتلبية لطلبات المجتمع فيدخل المدرسة (انظر شكل ٢) .

والاسم « والد » أكثر دلالة على هذه المعلومات ، حيث أن أكثر التسجيلات أهمية هي تلك الواردة في المثال ، وأوامر والديه الحقيقيين أو البديلين .

إن كل ما رأى الصغير أبويه يعملانه ، وكل ما سمعهما يقولانه ، يسجل في « الوالد » . وكل فرد لديه « الوالد » بمعنى أن كل فرد عند اختبار الحافز الخارجي في السنوات الخمس الأولى من العمر « الوالد » ينص كل شخص ، لأنه عبارة عن تسجيلات هذه المجموعة المبكرة من التجارب المرتبطة به .

E. Berne, Transactional Analysis in Psychotherapy (New York : Grove Press, 1961), p. 24.



شكل رقم ٢ : الوالد

أما المعلومات الموجودة في « الوالد » فقد سجلت (مباشرة) بدون تصنيف . ان توقف الصغير ، وتبنيته ، وعدم قدرته على بناء المعاني باستخدام الكلمات ، جعلت من الصعب عليه أن يعدل أو يصحح أو يفسر . ولذلك لو كان الوالدان عدوانيين ويتشاجران باستمرار فإن الحركة تسجل مع الغزع الذي ينتج لدى رؤية الشخصين اللذين يعتمد عليهما الصغير في حياته ، وقد أوشكنا أن يدمر أحدهما الآخر . ولا توجد طريقة لتفسير هذا التسجيل حقيقة أن الأب كان ثملاً لأنه فقد عمله ، أو أن الأم كانت متوترة الأعصاب لأنها اكتشفت لتوها أنها حامل مرة أخرى .

وتحفظ في « الوالد » كافة تسجيلات التائب والقواعد والقوانين التي استمع اليها الصغير من والديه أو رآها في حياتها . وترتب هذه التسجيلات على مدى الطريق ابتداء من الاتصالات الأبوية المبكرة مفسرة بلا كلمات ولكن من خلال نبرات الصوت وتعبيرات الوجه والاحتضان أو الابتعاد ، حتى أوسع القواعد والتعليقات اللفظية المنطوقة التي أصدرها الوالدان عندما أصبح الشخص الصغير قادراً على فهم الكلمات . وفي هذه المجموعة من التسجيلات يوجد الآلاف من كلمة « لا » الموجهة الى الطفل الذي يحبو ، وكلمة « لا تفعل » التي تتساقط عليه كالحنابل ، ونظرات الالم والغزع في وجه الأم عندما أخرجتها تصرفاته الطائشة التي اتخذت مجالاً لها الفازة الأثرية المكسورة للعبة اثيل .

وكذلك تسجل انعطافات قرخة الأم السعيدة ونظرات البهجة للاب المحفوظ . وعندما نعرف أن التسجيل يصل طول الوقت ، فاننا نبدأ في فهم ضخامة كمية المعلومات المحفوظة في « الوالد » . زفيا بعد يأتي اشد النصائح والتعاليم تمقيدا : « تذكر يا ابني حينما ذهبت في العالم أنك ستجد دائما أن أحسن الناس هم أتباع الكنيسة الميثودستية ، لا تكذب ؛ ادفع فواتيرك ؛ وأن المراهرة ضديقه ، وستكون ولدا طيبا حينما تفصل الطبق الذي أكلت فيه ، والضياع هو التخطيط الأصلية ، ولا تستطيع أن تثق دائما في رجل أو في امرأة ، ستكون ملعونا لو فعلت وعلعونا لو لم تفعل ، ولا تستطيع أن تثق دائما في شرطي ، واليدان العاملتان يدان سعيدتان ، لا تمر تحت السلالم ، اجعل للآخرين ما تود أن يفعلوه لك ، ولا تدفع الآخرين الى ما لا تتوقع منهم أن يدفعوك اليه . والنقطة المهمة هي أنه بصرف النظر عن سلامة هذه القواعد أو فسادها في ضوء الاخلاقيات المنطقية ، فانها مسجلة كحقائق عن مصدر ثقة ممثل في هؤلاء الذين كان طول الواحد منهم يفوق طول الصغير ثلاث مرات ، حينما كان هذا الصغير يهنم بارضائهم وطاعتهم . انه تسجيل دائم ولا يستطيع الانسان أن يمحوه ، وهو صالح للاستماع اليه خلال الحياة بطولها .

واعادة استماع هذه التسجيلات لها تأثير قوى خلال الحياة كلها ، وهذه النماذج — وإن كانت تمثل على الانسان مواقفه وتفريه بها الا أنها في أكثر الأحوال تضع له حدودا وتقيد سلوكه — وهي تعمل في الداخل كنظام ضخ من المعلومات الضرورية لحياة الفرد وسط الجماعة ، ابتداء من الأسرة ، وامتدادا مع مسار الحياة ، في سلسلة من الجماعات الضرورية للحياة . وبدون والد طبيعي فان الصغير قد يموت . ويحفظ « الوالد » الداخلي أيضا حياته ويحميها ضد عدد من الاخطار التي أدرك بالتجربة أنها من الممكن أن تسبب الموت . ويوجد في « الوالد » أيضا تسجيل « لا تلمس هذه السكين ! » انه أمر ملو وانذار للشخص الصغير الذي يخال أن أمه ستضربه أو ستنتهره ، أما التهديد الأعظم فهو امكانية جرح نفسه والنزف حتى الموت . انه لا يفهم ذلك لأنه ليس لديه المعلومات الكافية . اذن فان تسجيل « الوالد » يأمر وهو معين ضروري لاستمرار حياته طبيعيا واجتماعيا .

وهناك خاصية أخرى « للوالد » هي دقة التسجيلات الغير منسجبة . فيقول الابوان شيئا بينما يعملان شيئا آخر يقول الوالدان : لا تكذب — ولكنهما يكذبان . يقولان للصغار أن التدخين يضر بصحتهم ولكنهما يدخان . انهما يدعوان الى مراعاة تطبيق مبدأ ديني ولكنهما لا يطبقانه في

حياتهما . انه من غير الممكن للصغير أن يسأل عن علم الانسجام هذا ولذلك فهو مرتبك لان هذه المعلومات تسبب الارتباك والخوف . انه يحس نفسه يوقف الاستماع للتسجيل . ونحن نعلم « بالوالد » أساسا في تسجيلات المعاملات بين الصغير وأبويه ، وقد يكون من بين العوامل المساعدة اعتبار تسجيلات « الوالد » شبيهة الى حد ما بتسجيلات الصوت للجسم ، حيث يوجد مساران للتسجيل ، اذا حدث بينهما الانسجام فانهما ينتجان لحنا جميلا اذا جرى عزفهما معا . واذا ضاع الانسجام فان اللحن يكون نشازا فيستبعد التسجيل ولا يتكرر سماعه الا نادرا . وهذا هو ما يحدث عندما يتضمن « الوالد » مادة مسجلة متنافرة ، فان الوالد « يوقف » أو يحظر الاستماع اليه . وقد تكون الأم « طيبة » بينما الأب « سيئ » أو العكس ؛ وهنا يتوفر قدر كبير من المعلومات المفيدة التي تختزن نتيجة لارسال الملامح الطيبة من أحد الوالدين ولكن طالما كان « الوالد » يتضمن مادة من « الوالد » الآخر (الأب أو الأم) متعارضة ومؤدية للقلق ، فان « الوالد » ككل يأخذ في الضعف أو الانكسار . ان معلومات « الوالد » غير المنسجمة لا يحتاج لها أحداث أى تأثير ايجابي في حياة الفرد .

وهناك طريقة أخرى لوصف هذه الظاهرة وهي مقارنتها بالمعادلة الجبرية : ضرب الناقص بالزائد يعطي نتيجة بالناقص - بصرف النظر عن العدد المضروب ناقصا كان أم زائدا فالنتيجة دائما بالناقص . . . ينتج « والد » ضعيف أو « والد » غير متكامل . وقد يصبح التأثير في الحياة المستقبلية متناقضا وغير منسجم ويقود الى اليأس - بالنسبة للشخص الذي هو غير حرفي فحس « الوالد » .

ويظهر الكثير من معلومات « الوالد » في الحياة الحاضرة تحت بند « كيف - ان » : كيف تدق مسامرا ، وكيف تجهز سريرا ، وكيف تتناول الشوربة ، وكيف تمضغ أفك ، وكيف تشكر المضيف ، وكيف تسلم بالأيدي ، وكيف تتظاهر بعدم وجود أجد في البيت ، وكيف تنشر فوط الحمام ، أو كيف تزين شجرة عيد الميلاد . ان بند « كيف - ان » يشكل كمية ضخمة من المعلومات التي تكتسب بملاحظة الوالدين - وهي معلومات واسعة الفائدة تجعل من الميسور بالنسبة للشخص الصغير أن يتعلم كيف ينمو بنفسه . وفيما بعد عندما يصبح « الراشد » أكثر مهارة وقادرا على فحص معلومات « الوالد » قد تصبح هذه الأساليب المبكرة لعمل الأشياء غير مبررة المحمول وتحل محلها أساليب أفضل تكون أكثر مناسبة للحقيقة التي تغيرت . ان الشخص الذي كانت تعليماته الأولى مصحوبة بالثبوت

فد يجد من الصعب فحص الأساليب الأولى وقد يتعلق بها فترة تتجاوز صلاحيتها لأنه مرغم على أداء « هذه الطريقة وليس غيرها » .

أعادت أم إحدى المراهقات قرار « الوالد » الذي حكم إجراءات رعايتها للبيت الى ما قالته لها أمها « لا تضي قبة على منضدة أو بالطو على سرير » وعلى ذلك فقد سارت في حياتها على مبدأ علم وضع قبة على منضدة ولا بالطو على سرير . وإذا نسيت أحيانا أو حاول أحد صغارها كسر هذه القاعدة القديمة ، كان هناك رد فعل غير مناسب لموقف كسر أبسط قواعد النظافة ، وأخيرا وبعد العديد من عشرات السنين التي عاشتها مع هذه القاعدة غير المفحوصة ، فإن الأم سألت الجدة (وكانت حينذاك في الثمانين من عمرها) « لماذا يا أمي لم تضي قبة على منضدة ولا بالطو على سرير ؟ » وأجابت الجدة أنها عندما كانت صغيرة كان هناك بعض صغار الجيران الذين كانوا « يملأون البيت » وقد حذرتها أمها من عدم وضع قبعات أولاد الجيران على المنضدة أو بلاطهم على السرير . انه كلام معقول جدا . وعرفت الطرف الطاريء الذي دعا الى هذا التحذير . وباستعمال الاصطلاحات التي تتعلق باكتشافات بنفيلد ، عرفنا أيضا لماذا انسجم التسجيل مع الطاريء الأصلي . ان القواعد التي نراعيها في حياتنا تكاد تشبه هذه القاعدة .

وهناك بعض التأثيرات الأكثر دقة . وجدت إحدى ربات البيوت الحديثة أنها ببساطة لم يكن لديها اهتمام بشراء وحدة التخلص من القمامة بالرغم من كافة وسائل الراحة الحديثة في منزلها . وقد شجعها زوجها للحصول على واحدة ، مشيرا الى كافة الأسباب التي تبين أنها سوف تسهل أعمال المطبخ . وكانت تعرف ذلك ولكنها كانت تلتزم العفو تلو الآخر لتأجيل الذهاب الى محل البيع لاختيار واحدة . وأخيرا صارحها زوجها باعتقاده أنها كانت تقصد عدم شراء الوحدة ، وأصر على أن تذكر له السبب . كان هناك انطباع جعلها تحس انفعالا مبكرا نحو القمامة فقد كانت سنوات عمرها الأولى هي سنوات الكساد الاقتصادي في الثلاثينيات . وكانت تحفظ القمامة في منزلها بعناية لكي تقدم غذاء للخنازير التي كانت تذبج في عيد الميلاد وتقدم كمصدر مهم للغذاء . حتى الأطباق كانت تغسل بدون صابون حتى يمكن استخدام ماء الغسيل بما فيه من الدسم القليل في غسالة المطبخ . وأدركت كصغيرة أن القمامة مهمة . وعندما أصبحت سيدة كاملة النضج وجدت أنه من الصعب الاندفاع لشراء آلة للتخلص منها .

(واشترت وحدة التخلص من القمامة وعاشت بعد ذلك في سعادة) .

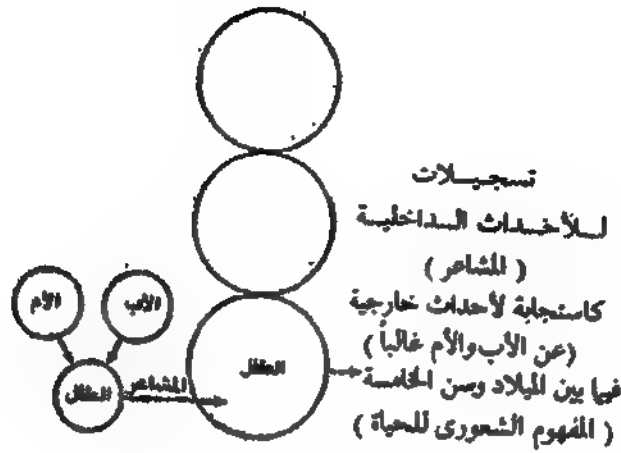
عندما نعرف أن الآلاف من هذه القواعد البسيطة للحياة مسجلة في مخ كل شخص ، نبدأ في تقدير كم هو مخزون المعلومات الشاملة التي يتضمنها « الوالد » . وتستند الكثير من القرارات الى مثل هذه الأوامر الإضافية مثل « أبدا » ، و « دائما » و « لا تنس ذلك » وبذلك يصبح لدينا مسارات عصبية أولية مؤكدة ، تمدنا بالمعلومات الناجزة لاضاملات اليوم . وهذه المبادئ هي أصول الاكراه والمزاوغة والشنوذ التي تبدو في السلوك فيما بعد . وسواء كانت معلومات « الوالد » تقمة او نعمة ، فانها تعتمد على مدى ملامتها للحاضر . وعلى ما اذا كان قد تم تجساوزها في « الراشد » الذي سنناقش وظيفته في هذا الفصل .

وهناك مصادر لمعلومات « الوالد » بخلاف الأبوين الطبيعيين . ان الصغير ذا الثلاثة أعوام من العمر والذي يجلس أمام التلفزيون لعدة ساعات يوميا انما يسجل ما يراه . وتشكل البرامج التي يراها مبعدا تعليميا للحياة ، فاذا كان يشاهد برامج عنف فانه على ما اعتقد يسجل العنف في « الوالد » . انها الحياة كما يراها . وهذه نتيجة مؤكدة اذا لم يعبر الأبوان عن المعارضة بإغلاق القناة التلفزيونية . واذا استمتع الأبوان ببرامج العنف فان صغارهم يتحصلون على موافقة مزدوجة على هذا السلوك من جهة الأبوين ، فينال الصغير تحريحا بممارسة العنف اذا تطلب الأمر . ان الصغير يجمع أسبابه لتفجير المكان تماما مثلما يشاهد أحداث العنف في الأفلام التي يمكن تقليدها بسهولة في حياة الصغير . ان الكثير مما يمكن ممارسته بين أيدي الأقارب الكبار أو اصحاب السلطة يتم تسجيله في « الوالد » وكذلك أي موقف خارجي يحس فيه الشخص الصغير بعلم استقلاله ، الى حد أن علم حريته في السؤال أو الاستكشاف يحتزن في « الوالد » .

(يوجد نوع آخر من الخبرة الخارجية للصغير لا يسجل في « الوالد » وهو الذي سنتحدث عنه عندما نصف « الراشد ») .

الطفل :

بينما يتم تسجيل الأحداث الخارجية في شكل مجموعة المعلومات التي تسمى « الوالد » فان هناك تسجيل آخر يتم في نفس الوقت . انه تسجيل الأحداث الداخلية . انها استجابات الشخص الصغير لما يرى ويسمع (شكل رقم ٣) .



تسجيل رقم ٢ : الطفل

ومن المهم في هذا السياق استعادة ملاحظة بنفيلد : -

يشعر الشخص بالانفصال الذي أنتجه الموقف أصلاً . ويعني نفس التفسيرات سواء كانت صادقة أم زائفة ، تلك التي أعطاهم للتجربة في المحل الأول . وعلى ذلك فإن الذكري المستتارة ليست هي نفس الصورة المرئية أو المسموعة للمناظر والأحداث الماضية . إنها نتاج ما رآه المريض واستمع إليه وأحس به وفهمه (٢) .

إن مجموعة معلومات « الرؤية والنسج والشعور والفهم » هي ما نحدده باسم « الطفل » . ولما كان الصغير يفتقر إلى المفردات اللغوية خلال أشده تجاربه المبكرة حرجاً ، فإن معظم ردود أفعاله تكون مجرد مشاعر . وعليها أن تضع في أذهاننا موقفه في هذه السنوات المبكرة . أنه غشيل النجم ، ويعتمد على الغير ، وأخرى ، وعديم الكياسة ، وليست لديه حصيلة الكلمات الضرورية لبناء المعاني . قال ايدرسون : « علينا أن نعرف كيف نقيم النظرة الغاضبة » . إن الصغير لا يعرف كيف يفعل ذلك . إن تحويل نظرة غاضبة تجاهه لن يؤدي إلا إلى مشاعر تضاف إلى مخزون المعلومات السلبية عند الصغير .

وخلال لحظات الضعف هذه يوجد عند غير محدود من المطالب

W. Penfield, "Memory Mechanism", A.M.A. Archives of (٢)
Neurology and Psychiatry 67 (1962) : 178-198.

(*) مع مناقشات بعلم كوبي

التي لا تقبل مساومة ، تتراكم على الطفل ٠٠٠ ان لديه الدوافع (التسجيلات الوراثية) التي تدعوه الى التبرز في أى وقت ، وإلى الاستطلاع ، وإلى المعرفة ، وإلى الجمع والضرب ، وإلى التعبير عن مشاعره ، وتجربة كافة المشاعر السارة المرتبطة بالحركة والاكتشاف - هذا من جهة . ومن جهة أخرى فان هناك الطلب المستمر من البيئة المحيطة ، خاصة الأبوين ، بأن يتخطى عن هذه الرغبات الأولية طلبا لرضا الأبوين . وهذا الرضا الذي يمكن أن يختفى بمثل سرعة ظهوره انما هو سر خفى المعنى بالنسبة للطفل القذى لم يوجد عنده بعد أى ربط مؤكد بين الصلة والمحلول

ان الأكثر الجانبي المهم لعملية التمددين يتمثل في المشاعر السلبية . وعلى أساس هذه المشاعر يستنتج الشخص الصغير مبكرا أنه ليس على ما يرام . ونحن نسمى هذا التقييم الذاتي الشامل « عدم الرضا » أو الطفل غير الراضى . ان هذه النتيجة والممارسة المستمرة للمشاعر المتقبضة التي أدت اليها وأكدتها ، مسجلة بصفة دائمة في المخ ولا يمكن محوها . وهذا التسجيل المستمر هو بقية مرحلة الطفولة لاي طفل حتى طفل الأبوين المعطوفين والمحبين والمتفهمين . انه موقف مرحلة الطفولة . وليس قصد الأبوين هو الذي ينتج المشكلة (سنناقش ذلك بالتفصيل في الفصل التالي عن : مواقف الحياة) . وهناك مثال على مشكلة مرحلة الطفولة تعبر عنه عبارة ذكرتها كريمتي هايدى ، ذات الأعوام السبعة ، فقد قالت يوما أثناء الافطار : « بابا .. اذا كان عندي أب على ما يرام وأم على ما يرام ، فكيف اذن أصبحت أنا على غير ما يرام ؟ » .

وإذا كان أطفال الوالدين الطيبين يمانون من هذا الموقف ، فما بالك بأطفال الوالدين المدانين بالإهمال الشنيع والسب والقسوة !

وكما في حالة « الوالد » فان « الطفل » حالة قد يتحول اليها الشخص في أى وقت أثناء معاملاتنا الخاضرة . وهناك أشياء عديدة يمكن أن تحدث لنا اليوم ، وتنشئ موقف الطفولة ، وتولد نفس المشاعر التي أحسنا بها آنذاك ، وسنجد أنفسنا غالبا في مواقف نواجه فيها خيارات غير ممكنة ، حيث نجد أنفسنا محاصرين في الركن ، اما طبيعيا أو بالطريقة التي نراها . وبالنسبة للطفل فان هذا فح ينتج عنه استعادة المشاعر الأصلية المتعلقة بالاحباط والرفض أو التجاهل فتعيش من جديد تجربة مماثلة لهذا الاحباط المبكر للصغير ، ولذلك علما يكون الشخص رهين مشاعره ، نقول ان « طفله » قد بدأ يعمل . وعندما يطفى غضبه على منطقته ، نقول : ان « طفله » يتولى الزمام .

وهناك أيضا جانب مشرق في « الطفل » حيث يوجد مخزون ضخم من المعلومات الإيجابية - ففي « الطفل » يكمن الإبداع وحس الاستطلاع والرغبة في الاستكشاف والمعرفة ، وحوافز اللمس والاحساس والتجريب ، وتسجيلات المشاعر الأصيلة العظيمة للاكتشافات الأولى . وتسجل في « الطفل » أعظم التجارب العجيبة التي لا تحصى ، وأحداث الحياة التي تحدث للمرة الأولى في حياة الشخص الصغير مثل الشرب لأول مرة من خرطوم الحديقة ، وأول نربيت على ظهر القطة الناعم وأول مرة يظهر فيها النور استجابة لضغطه على مفتاح التوصيل ، وأول ملاحقة لفقاعات الصابون . وتكرر استعادة هذه الأشياء العظيمة مرات ومرات . إن أحاسيس هذه المباحث مسجلة أيضا مع تسجيلات عدم الرضا . وهناك لحن مصاحب هو إيقاع الرضا لهذه الأم ، والتنوعة الحساسة للبطانية المفضلة . إنها استجابة طيبة مستمرة للأحداث الخارجية المفضلة (إذا كان هذا بالفعل طفلا مفضلا) وذلك عند استعادتها خلال معاملات اليوم . وهذا هو الجانب الرقيق أي « الطفل » السعيد - المطمئن النفس ، الولد الصغير الذي يلاحق الفراشات ، الصغيرة التي تلتهم الشيكولاتة وهذا هو ما يظهر أيضا في معاملات اليوم . وعلى أية حال فإن ملاحظتنا للصغار ثم لأنفسنا كبالغين تقنعنا بأن مشاعر عدم الرضا تتجاوز مشاعر الرضا بمراحل . وهذا هو السبب في اعتقادنا بأن التقييم العادل يدعونا إلى القول بأن في كل فرد « طفل » عظيم الرضا .

وقد سئلت مرات عديدة : متى تتوقف تسجيلات « الوالد » و « الطفل » ؟ وهل « الوالد » و « الطفل » يتضمنان فقط التجارب التي حدثت خلال السنوات الخمس الأولى من العمر ؟ انني أعتقد أنه في الوقت الذي يترك فيه الصغير البيت إلى أول تجاربه الاجتماعية الاستقلالية وهي المدرسة - يكون قد تعرض تقريبا لكل موقف وعط يمكن من أبويه ، ومنذئذ تصبح كافة الاتصالات الأبوية بالضرورة تأكيد لما تم تسجيله . كما تسير خاصية تأكيد حقيقة أنه يبدأ الآن ممارسة « الوالد » على الآخرين - في خط متواز مع فكرة أوسطو حول أن ما جرى التعبير عنه يجري التأكيد عليه . وبالنسبة للتسجيلات التالية في « الطفل » فمن الصعب أن نتخيل وجود أي احساس لم يحسه المرء في صورته المكثفة عندما كان عمره خمس سنوات ، ويتمشى هذا مع فكرة التحليل النفسي ويصدق معها . وإذا ما خرجنا من الطفولة بمجموعة من التجارب المسجلة في « الوالد » و « الطفل » وهي تجارب لا تنمحي - فما هو إذن أملنا في التغيير ؟ كيف نخرج من فخ الماضي ؟

الراشد :-

فى الشهر العاشر من العمر يبدأ شىء ملحوظ يحدث للصغير . كانت حياته حتى ذلك الوقت تتكون أساسا من استجابات عاجزة أو بدون تفكير فى مطالب وحواجز هؤلاء المحيطين به . كان له « والد » و « طفل » . أما ما لم يكن متوفرا لديه فهو القدرة على اختيار استجاباته أو التحكم فيما يحيط به . لم يكن لديه توجه ذاتى ، أو قدرة على الخروج لمواجهة الحياة . كان بكل بساطة يقبل ما يظهر فى طريقه .

وعلى كل حال فإنه عند سن العشرة شهور ، يبدأ فى ممارسة قوة الحركة ، ويستطيع التحكم فى الأشياء ، ويبدأ فى الخروج محمدا نفسه من سجن السكون ، والصغير فى سن مبكر ، مثل ثمانية شهور ، قد يركب ويطلب المساعدة للخروج من موقف مربك لا يستطيع الخروج منه فى الكثير من الأحوال ، أما عند سن عشرة شهور فيولى اهتمامه الى تفحص اللعب واستغلالها حسب التراصبات التى قام بها « جيسيل والى » عن الصغير فى سن العاشرة .

... ويستمتع باللعب بالكوب متظاهرا بالشرب ، ويقرب الأشياء من فمه يلوكها ، ويستمتع بحركة اللعب الكبيرة ذات الموتر ، ويحب الجلوس واللعب بمد مساعده على الوقوف ، والانحناء للأمام ثم الاعتدال بنفسه . انه يفك اللعبة ، ويركل ، ويهضى من الجلوس الى الزحف ، ويشد نفسه الى أعلى ، وقد يخفض نفسه ، ويبدأ فى التقدم للأمام . أما الأنشطة الاجتماعية التى يستمتع بها فهى ألعاب إخفاء الوجه ثم كشفه فجأة ، وألعاب الثيفتين ، ثم اللعب مع الإمساك بكلمات يديه ، أو وضعه منبطحا على الأرض ، أو وضعه فى لعبة جزاة .

وتظهر البنات أولى علامات الشقاوة بتحويل الوجه الى أحد الجانبين عندما يتسمن (٣) .

وتأتى القدرة على الحركة التلقائية التى يتولد عنها « الراشد » لتتأكد فى الحياة المستقبلية عندما يكون الشخص فى خطر . انه يذهب يتمشى

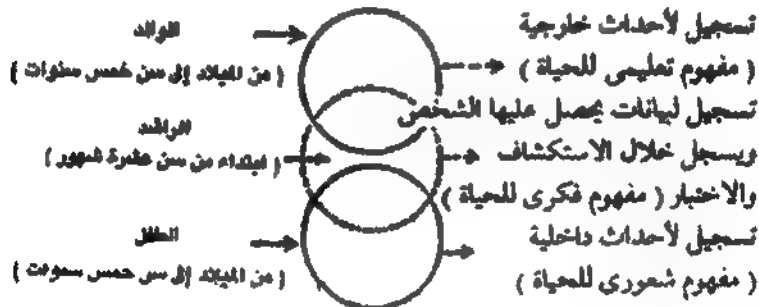
وخلال هذه السنوات المبكرة يكون (الراشد) حشا وعرضة للتجربة فمن السهل « اخضاعه » بأوامر « الوالد » وخوف « الطفل » . الأم تقول .

Arnold Gessel and Frances L. Elg. "Infant and child in the Culture of today (New York : Harper, 1943), p. 116-122.

لقد اكتشف الصغير ذو العشرة شهور أنه قادر على عمل شيء يعود
الى ادراكه هو وفكره الأصيل . وهذا الاحساس بالذات هو بداية
« الراشد » (شكل رقم ٤) .

وتتراكم معلومات « الراشد » نتيجة لقدرة الصغير على أن يكتشف
لنفسه ما الذي يختلف من أمور الحياة - عن « مفهوم التعلم للحياة »
في « الوالد » و « مفهوم الشعور بالحياة » في « الطفل » . ان « الراشد »
يطور « مفهوم التفكير في الحياة » اعتمادا على جمع المعلومات وتصنيفها .
وتأتي القدرة على الحركة التلقائية التي يتولد عنها « الراشد »
للتأكد في الحياة المستقلة في خطر انه يذهب يتمشى لكي « يجلو عقله » .
ان السير بخطوة وثيدة يبدو كمهدى للأنفعال فهناك تسجيل يفيد بأن
الحركة مفيدة وان لها خاصية الفصل وأنها تساعد على أن يرى ماهية
المشكلة بوضوح .

وخلال هذه السنوات المبكرة يكون « الراشد » هشيا وعرضة
للتجربة ، فمن السهل « اخضاعه » بأوامر « الوالد » وخوف « الطفل »
الأم تقول عن الكأس الكريستال « لا ، لا ، لا تلمسها » . وهنا قد يتراجع
الصغير ويصرخ ، ولكنه عندما تسمح له أول فرصة سيلمسها بأي طريقة
ليعرف ماهيتها . ونجد في معظم الأشخاص أن « الراشد » يعيش ويستمر
في عمله بكفاءة أكثر وأكثر مع استمرار عملية النضج بالرغم من كافة
العقبات التي تعترض طريقه .



شكل رقم (٤) الانبثاق التدريجي للراشد ابتداء من سن عشرة شهور

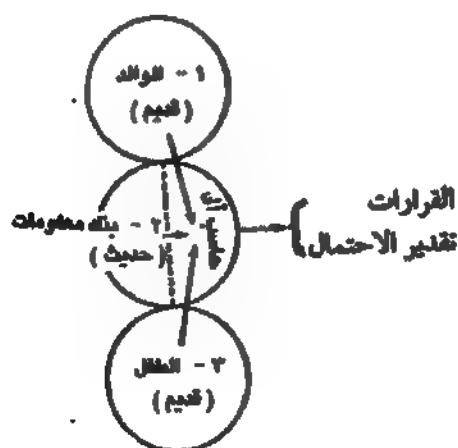
ان الراشد يهتم أساسا بتحويل الدوافع الى معلومات ، ثم تصنيف
وترتيب هذه المعلومات على أساس الخبرة السابقة (٤) . انه يختلف عن

« الوالد » الذى هو (أحكام تفرض بطريقة المحاكاة وتسمى لتقوية مجموعات التماذج المستعارة من « الطفل » التى تنحو نحو رد الفعل بطريقة أكسرس فجائية على أساس التفكير المنطقي والادراك المختلف أو المشوه) .

ويستطيع الشخص الصغير من خلال « الراشد » أن يبدأ فى ذكر الاختلاف بين الحياة كما علمت وفسرت له من خلال « الوالد » والحياة كما أحسها أو أرادها أو تخيلها « الطفل » ، والحياة كما يصورها بنفسه « الراشد » . ان « الراشد » حاسب آلى يخرج القرارات بعد أن يتغذى بالمعلومات من ثلاثة مصادر :

« الوالد » و « الطفل » والمعلومات التى جمعها « الراشد » ولا يزال يجمعها (شكل رقم ٥) . وأهم وظائف « الراشد » هي فحص معلومات « الوالد » ليرى ما اذا كانت حقيقية وصالحة للتطبيق اليوم من عدمه ومن ثم يقبلها أو يرفضها . ثم يختبر « الطفل » ليرى ما اذا كانت الأحاسيس مناسبة للحاضر أو أصبحت بالية ، مع الرد على معلومات « الوالد » البالية . وليس الفرض هو تجاهل « الوالد » و « الطفل » ولكنه فحص هذه المجموعات من المعلومات فى حرية . وحسب تعبير إيمرسون فان « الراشد » (يجب ألا يتمثل تحت مسمى « الخير » وإنما يجب أن يفحصه لمعرفة ما اذا كان خيرا أم شرا بالنسبة لهذا الأمر ، مثل القرار المبكر القائل : « أنا لست على ما يرام » .

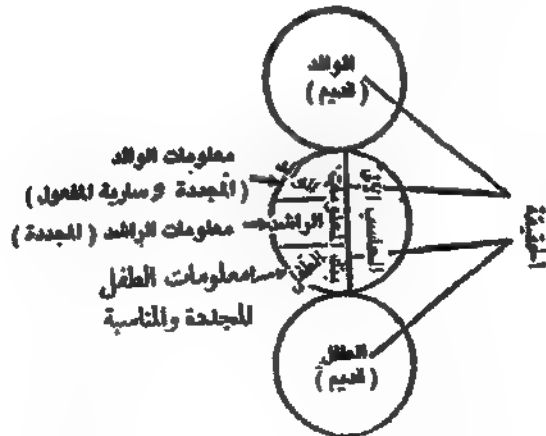
وقد يبدأ فحص « الراشد » لمعلومات « الوالد » فى عمر مبكر . ان النشء السليم هو الذى يجد أن معظم معلومات « الوالد » سليمة : (لقد ذكرنا الى الحقيقة !) .



شكل رقم ٥ : « الراشد » يحصل على المعلومات من ثلاثة مصادر

ان الولد الصغير الذي رأى سيارة تصدم كلبه للدلل في الشارع يستنتج أن « السيارات » التي في الشارع خطيرة حقا ، ويظن الولد الصغير الذي تسلم هدية من صديقه : « حقيقة أن الأشياء تصير أفضل عندما أتناقص لعبي مع صديقي » . وتستنتج البنت الصغيرة التي تعلمت أن تذهب الى الحمام وحدها : « بالفعل أشعر بالراحة عندما لا تكون سراويل مبللة » . ويستطيع الطفل من خلال « الراشد » أن يعرف الأمانة ، والاحساس بالذات ، ويصمد كل ما يفحصه بالاختيار ، وتبدأ المعلومات التي يجمعها من خلال التجارب والقصص أن تشكل بعض « الثوابت » التي يستطيع أن يثق بها . وتستند قراراته في المحل الأول الى ما تعلمه .

ومن المهم التأكيد على أن تحقيق معلومات « الوالد » لا يحو تسجيلات عدم الرضا في « الطفل » تلك التي نتجت بالقرص المبكر لهذه المعلومات . ان الأم تعتقد أن الطريقة الوحيدة لابعاد جوني ذي الثلاثة أعوام عن الشارع هي ضربه علقة . انه لا يفهم الخطر والاستجابة عنده هي الخوف والغضب والاحباط مع عدم تقدير حقيقة أن أمه تحبه وهي تحمي حياته . أما الخوف والغضب والاحباط فهذه كلها لا تحمي عندما يعرف أخيرا أنها كانت على حق فيما عملته . ولكن فهم كيفية أن الموقف الأصلي للطفولة قد أنتج العديد من تسجيلات عدم الرضا التي من هذا النوع ، يمكن أن يحررنا من استمرار الاستماع الى هذه التسجيلات في الحاضر . اننا لا نستطيع أن نحمي التسجيلات ، ولكننا قد نختار وقت الاستماع اليها . وبنفس الطريقة التي يجرى بها « الراشد » عملية التحديث لمعلومات « الوالد » لتحديد أيها يصح وأيها لا يصح ، يجرى عملية التحديث أيضا



شكل رقم ٦ : عملية تحديث الراشد من خلال اختبار الطفولة

لمعلومات « الطفل » لتحديد المشاعر التي يمكن أن يعبر عنها بأمان :
نعتبر في مجتمعنا أنه من المناسب للمرأة أن تبكي يوم الزفاف ولكنه ليس
من المناسب لنفس هذه المرأة أن تصرخ في وجه زوجها عند استقباله فيما
بعد ، علما بأن كلا من البكاء والصراخ يدخل ضمن عواطف « الطفل » .
ان « الراشد » يجعل التعبير عن العواطف سليما . وسنجد أن وظيفة
« الراشد » في اجراء عملية التحديث « للوالد » و « الطفل » مبنية
بالرسم في شكل رقم ٦ حيث يشير « الراشد » داخل « الطفل » في
هذا الشكل الى البيانات الواقعية التي تم تحديثها ، (حدثني العقل مرة
ان رحلة الفضاء خيالية ، أما الآن فأنني أعرف أنها حقيقة) .

والوظيفة الأخرى للراشد هي : تقييم الاحتمالات : وهذه الوظيفة
بطيئة النمو في الصغير ، ويبدو أن نمو هذه الوظيفة يجد صعوبة في
ملاحقة الفرد أثناء نموه في الحياة ، فالشخص الصغير محاط دائما
بالاختيارات غير السارة (اما أن تأكل السبانخ أو تحرم من الأيس كريم)
فهو يجد دوافع قليلة لفحص الاحتمالات . وتقف الاحتمالات التي لم تعتبر
خلف العديد من نوعيات فشلنا في المعاملات ، كما أن علامات الخطر غير
المتوقعة تستطيع أن تسبب فساد « الراشد » أو تأخيرها عما هو متوقع .
فالامر هنا أشبه ببرقيات جهاز التيكروز التي قد تصل متأخرة بسبب ضغط
العمل وكثافته ، ولا حل لنا أمام تباطؤ الحاسب الآلي هنا سوى التدرج
بالصبر .

ويمكن زيادة القدرة على تقييم الاحتمالات بجهود الوعي ومثل
العضلة في الجسم فالراشد ينمو ويزداد في الكفاءة من خلال التدريب
والاستعمال . وإذا تنبه « الراشد » الى امكانية حدوث المتاعب من خلال
تقييم الاحتمالات فإنه يستطيع أن يتكرر الحلول لمواجهة المتاعب اذا حدثت
وفي نفس وقت حدوثها .

وعلى أية حال فإن « الراشد » يتأثر بفعل الضغط الى الدرجة التي
عندها تباشر العواطف عملها بصورة غير صحيحة ، حيث تذوب الحدود بين
« الوالد » و « الطفل » ، أو تصير غير واضحة المعالم ، وتعرض للهجوم
من تلك الاشارات الواردة التي تنمو نحو إعادة خلق المواقف التي مارسناها
خلال أيام الطفولة التي كنا فيها معتمدين على غيرنا وعديمي الحيلة .
وتنهزم على « الراشد » أحيانا اشارات « الأبناء الميئة » فتحتاج كيانه
بحيث ينكمش « الراشد » ليصبح مجرد مراقب للمعاملات ، ولا بد للفرد
الذي يواجه مثل هذا الموقف أن يقول : « أعرف أن ما كنت أفعله خطأ ،
ولكنني لم أستطع أن أمتنع نفسي » .

ويمكن رؤية الاستجابات غير الراشدة وغير المنطقية وغير الحقيقية في الموقف الذي نسميه : صدمة عصبية traumatic neurosis . ان اشارة الخطر أو « النبا السيء » تصدم « الوالد » و « الطفل » في نفس الوقت الذي تصدم فيه « الراشد » . أما « الطفل » فيستجيب بالطريقة التي استجاب بها في الأصل أى بأحاسيس سيئة ، وهذا يمكن أن ينتج كافة أنواع الظواهر المنعكسة . ومرة ثمانية قد يشعر الفرد بنفسه صغيرا ضئيلا معتمدا على غيره وعديم الحيلة . وأكثر هذه الظواهر بدائية هو توقف التفكير thought blocking وهو موقف واضح نراه في مستشفيات العلاج النفسي التي تطبق سياسة الباب المغلق ، وعندما يفتح الباب على مريض جديد يكون الارتداد سريحا وواضحا . وهذا يعني : لماذا اعراض علاج المرضى بنظام يرتكز على العناية الأبوية فتدليل « الطفل » العاجز الكامن في المريض يؤدي الى تأخير عملية بناء استعادة « الراشد » لوظيفته التقليدية .

ان المستشفى المثالي قد يكون بنسبونا مريحا به « منطقة لعب » للطفل تحيط بمبنى العلاج المخصص للأنشطة التي صممت لتحقيق الاستقلال الذاتي للراشد . ولن ترتدى الممرضات زيهن الرسمي أو يخضعن المرضى مثل الأبوين ، وبدلا من ذلك فان الممرضات وهن بملابس الخروج قد يطبقن مهاراتهم وتدريبهن في مساعدة كل واحد على تعلم شخصية « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » :

ونحن نستخدم مع مجموعات العلاج لدينا عبارات عامة مثيرة مثل : « لماذا لا تبقى في « راشدك » ؟ » وذلك عندما يجد الفرد أن مشاعره قد استبدت به ، وعبارة أخرى مثل « ماذا كانت المعاملة الأصلية ؟ » ويوجه هذا السؤال كوسيلة لاطلاق « الراشد » لتحليل التشابه بين الإشارة القادمة حاليا والتي تنتج الضغط الحالي والمعاملة الأصلية ، التي عانى منها الصغير .

ويتمثل عمل « الراشد » في فحص المعلومات القديمة والموافقة على سريانها أو وقف العمل بها والاحتفاظ بها للاستخدام في المستقبل . فإذا سار هذا العمل بسهولة وكان هناك غياب نسبي للتمارض بين ما جرى تعلمه وما هو حقيقي ، يصبح الحاسب حرا لأداء العمل الجديد المهم وهو الابتكار . ويقولد الابتكار عن حب الاستطلاع في « الطفل » كما هو في « الراشد » . ان « الطفل » يقدم الرغبة و « الراشد » يقدم « الكيفية » . أما الضرورة الملحة للابتكار فهي وقت الحاسب ، فإذا كان الحاسب مشغولا بالتعامل مع المعلومات القديمة فسيكون وقته المتوفر للعمل الجديد محدودا . ويصير الكثير من أواخر « الوالد » أليا بمجرد الفحص وبذلك يتفرغ الحاسب للابتكار .

ان العديد من قراراتنا في المعاملات اليومية يجري آليا ، فعلى سبيل المثال : عندما نرى سبعا يحدد شاربعا اذا اتجاء واحد ، نمتنع آليا عن السير في الاتجاه المضاد ، ولا نشغل الحاسب في عمليات مطولة لتصنيف المعلومات حول هندسة الطرق العلوية وضريبة المرور أو كيفية رسم علامات المرور . هل نبدأ بالتنقيب في كل قرار أم نعمل كلية بدون المعلومات التي يقدمها « الوالد » ؟ اذا حلت ذلك فان الحاسب نادرا ما يتوفر لديه الوقت لعملية الابتكار .

ويجادل بعض الناس أن الطفل الذي لا يتبع أبواه نظاما صارما في تربيته ، والذي لا تفوقه حدود هو أكثر ابتكارا من الطفل الذي يضع « والده » الحدود . ولا أعتقد أنا نفسي في صحة هذه المقولة ، لأن الصغير لديه دائما وقت كاف للابتكار والاستكشاف والاختراع والمشاركة والتجميع . اذا لم يضيع الوقت في اتخاذ القرارات التي ليس لديه معلومات كافية عنها . وهناك وقت كاف لدى الصغير لبناء رجل الثلج اذا لم يضيع وقته في جندال طويل مع أمه حول ما اذا كان سيرتدي أحذية الثلج أم لا . واذا تفاخى الابوان عن صغيرهما « الفنان » الذي يستخدم وريش الأحذية للرسم على الجدران ، فلن يتفاخى الجيران عن ذلك في بيتهما ، ولن يكون الصغير مستعدا لتقبل العواقب المؤلمة للعبته هناك . ان النتائج المؤلمة لا تشجع مشاعر حيوية . وهناك نتائج أخرى تستغرق وقتا مثل العلاج في المستشفى بعد حادثة سيارة . ان هناك وقت كاف للحاسب ، ولكن الصراعات تستغرق قدرا كبيرا منه . وهناك تظهر مشكلة عويصة تستهلك الوقت ، عندما يكون الصواب في رأى « الوالد » لا يبدو صوابا بالنسبة « للراشد » أما أكثر الأفراد ابتكارا فهو الشخص الذي يكتشف أن جزءا كبيرا من مضمون « الوالد » يتفق مع الحقيقة . فهو يستطيع حينذاك أن يحتفظ بهذه المعلومات صارية المفعول في « الوالد » ويثق بها وينسى التفكير فيها ويمضى الى أشياء أخرى مثل : كيف يجعل الطائرة الورقية تطير ، أو كيف يبني قلعة من الرمال ، أو كيف يحسب التفاضل والتكامل .

وعلى أية حال فان معظم الأحداث مشحونون معظم الوقت بالتعارض ما بين معلومات « الوالد » وما يروونه حقيقة . وتنحصر مشكلتهم المثيرة للقلق في أنهم لا يفهمون لماذا يكبلهم « الوالد » بهذا القيد . وعندما تأتي الحقيقة لتدق على باب « الوالد » يقول « الوالد » : لا تعال . . . لتناقش معا « والصغير الذي يكون أبوه في السجن وتضطر أمه للسرقة لكي تربيته ، قد يستمع الى تسجيل مرتفع في « الوالد » يقول : « لا تثق في شرطى » . ولذلك فانه عندما يلتقى بشرطى يكن له مشاعر الصداقة

فان « الراشد » يحسب كل المعلومات المتعلقة بهذا الشخص اللطيف ، وكيف يزاول لعب الكرة في الغناء ، وكيف يعزم أصدقاءه على الغشاش ، وكيف يكون مفعما بالصدافة ، وكيف يتحدث بصوت خفيض . هناك إذن مشكلة بالنسبة لهذا الحدث : ان ما يراه حقيقة يختلف عما تعلمه .

« الوالد » يقول له شيئا بينما « الراشد » يقول له شيئا آخر .

انه يتقبل رأى « الوالد » في رجال الشرطة خلال فترة اعتماده الطبيعي على أبويه من أجل الأمان ، بصرف النظر عن مدى ضلالة هذا الأمان . وهذه هي الطريقة التي يتكون بها الرأى المسبق لأنه بالنسبة للولد الصغير قد يكون تصديق الكذبة أكثر أمانا من تصديق عينيه وأذنيه . وعلى ذلك فان « الوالد » يهدد « الطفل » (في حوار ثنائي داخلي متواصل) مما يجعل « الراشد » يتخلى ويتوقف عن الدخول في مناطق التعارض فتظهر عبارة « رجال الشرطة أشرار » في شكل قابل للتصديق . وهذا هو ما يطلق عليه اسم : افساد الراشد Contamination ، وسنقصه في الفصل السادس .

الفصل الثالث

مواقف الحياة الأربعة

(ان الأسى يخالج المرء حينما يتدبر بروح انسانية منزهة عن الفرض
أو الهوى ، الفكاهات الملهدة ، فيرى أن الوضع المخرج الذي تستغر منه هو
المصير الذي سيؤول اليه أحد الصغار .. سورين كيركجارد)

ان كل طفل يتوصل في وقت مبكر جدا من الحياة الى موقف
« أنا لست على مايرام » بينما يرى أن والديه بالنسبة له هما في موقف
« أنت على مايرام » . وهذا هو أول ما يتصوره في محاولته التي تستغرق
كل العمر - للاحساس بذاته وبالعالم الذي يعيش فيه . وهذا الموقف
« أنا لست على مايرام » ، وأنت على مايرام » هو أكثر القرارات المصيرية في
حياته . انه مسجل دائما ومميّز في كل شيء عمله ، لأنه قرار يمكن
تغييره بقرار جديد ولكن ليس قبل أن يفهمه .

ولتأييد هذه الآراء أود أن أكرس الجزء الأول من هذا الفصل لفحص
مواقف الوليد والرضيع والصغير ، خلال سنوات ما قبل النطق وما بعده .
يصير الكثيرون من الناس على أنهم عاشوا « طفولة سعيدة » ولم يستنتجوا
موقفا مثل « أنا لست على مايرام » ، وأنت على مايرام » وأنا أعتقد أن
كل صغير قد استنتج ذلك الموقف ، فعلى الرغم من هذه « الطفولة السعيدة »
فإنني ، أولا : أود أن أفحص موقف دخوله الى الحياة ، وأن أشير الى
الدليل على أن أحداث ميلاده وطفولته مسجلة ، حتى مع عجزه عن تذكرها .

ونسجل ثانية في هذا السياق - استنتاجات بنفيله حول قيام المخ بثلاثة وظائف : ١ - التسجيل ٢ - استعادة التسجيل ٣ - المعالجة .

وبالرغم من أن الاستعادة منذ البداية المبكرة للحياة مستحيله ، الا أن لدينا دليلا على أننا نستطيع أن نعيش من جديد الخبرات المبكرة في شكل العودة الى حالة الشعور لدى الوليد . ونظرا لأن الوليد لا يستطيع استخدام الكلمات ، لذلك فإن ردود أفعاله تقتصر على الأحاسيس والمشاعر وربما التخيلات القديمة غير الواضحة . انه يعبر عن مشاعره بالصراخ أو بحركات مختلفة للجسم تبين اما عن الخطر أو الراحة . وبالرغم من أن أحاسيسه وتخيلاته لا توصف لعدم قدرته على الكلام وقت تسجيلها ، الا أنها تستعاد بين الحين والآخر في الأحلام خلال حياته المستقبلية .

واليك نموذج يسهل تصوير الموقف : ذكرت لي مريضة حلما تكرر خلال حياتها . وفي كل مرة شاهدت هذا الحلم ، كانت تستيقظ في حالة من الفزع الشديد ، مع تلاحق دقات القلب ، وضيق التنفس . وناضلت بشدة لكي تصف الحلم ولكنها لم تجد الكلمات التي تعبر عنه . وفي إحدى محاولات وصفه ، قالت أنها أحست كما لو كانت « مجرد ذرة دقيقة وصغيرة ، وقد التفت حولي أجرام سماوية ضخمة ومستديرة مثل المجرات الحلزونية الآخذة في النمو أكبر وأكبر ، وكانت تهدد بابتلاعي فظهرت كما لو كنت أخفى داخل هذا الشيء الواسع الضخم » . وبالرغم من أن تقريرها كان مصحوبا بملاحظتها عن فقدان شخصيتها ، الا أن طبيعة الفزع الشديد تبين أنه ربما كان هناك خوف من فقدان حياتها كرد فعل بيولوجي أولى تجاه التهديد بالموت . وبعد ذلك بوقت قليل ذكرت الحلم مرة ثانية ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي شاهدته منذ عام . كانت مسافرة وقد تناولت هي وزوجها الغداء في مطعم على الطريق ديكوره أفضل من طعامه ، ولم تشعر بالراحة عندما عادا الى الفندق . ووقدت لحظة قصيرة واستغرقت في النوم ، ولم يضر وقت طويل حتى استيقظت فزعة لرؤية نفس الحلم ، فوجدت نفسها تعاني من تقلصات شديدة في المعدة « ضاغت من ألمي » ولم أصادف من قبل حدثا جعلني في مثل هذا الهياج . وبدا الحلم المزعج وكأن له علاقة مباشرة بهذا الألم المعوي . وكان الحلم لا يزال مستعصيا على الوصف . وعلى أية حال فإنها ذكرت لي احساسا آخر ، هو الاحساس بأنها كانت تختنق .

وقد ساعدتنا معلومات معينة عن أم المريضة على تصور الأصل الممكن لهذا الحلم . كانت الأم سيدة ضخمة مثلثة الجسم قد أرضعت صغارها

من منطلق الفكرة القائلة بأنه لا توجد هناك مشكلة طالما كان الطعام هو العلاج . كانت فكرتها عن العناية بالصغار تتركز في اطعامهم جيدا . وكانت في نفس الوقت امرأة مستبعدة وعدوانية . وقد استنتجتنا (وهذا هو أقصى ما نستطيع التوصل اليه) أن الحلم كان له أصله الذي يعود الى الوقت الذي لم تكن فيه المريضة قد تعلمت الكلام ، حيث أنها لا تستطيع أن تصف المضمون . أما علاقة الحلم بالنقص الباطني فهي تعبر عن بعض الصلة بتجربة غذائية مبكرة ، والاحتمال الوارد هو أنه اذا كانت المريضة في صغرها قد نالت عناية فائقة واحساسا بالرعاية التامة ، فان الأم كانت تصر على أنها في حاجة الى المزيد (كان ذلك في الماضي حينما كانت الأمهات يسرفن في اطعام الصغير حتى لا يشعر بالجوع قبل مضي وقت طويل) . أما أحاسيس « حالة الحلم » والنوم والاختناق وتقلصات المعدة ، فربما كانت موجودة بالفعل . أما المضمون (الشيء الصغير الذي ابتلعه شيء كبير ، والأجرام السماوية) فمن الممكن أن تكون استعادة لادراك الصغير حول هذه الحالة - تماما مثل الذرة الدقيقة التي ابتلعها الأشياء المستديرة ، وصدر الأم أو الوجود الضخم للأم نفسها بالنسبة للصغيرة .

وهذا النوع من مادة الأحلام يساند الافتراض بأنه بالرغم من أن تجاربنا المبكرة لا يمكن وصفها ، إلا أنها تسجل ويستعاد مضمونها في الحاضر . وهناك اشارة أخرى على أن التجارب تسجل منذ وقت الولادة ، وهي الاستمساك بالكاسب الماضية . وبالرغم من أن استجابة الصغير للبيئات الخارجية تكون غريزية في البداية ، إلا أنها سرعان ما تعكس تجربة مشروطة أو معروفة (أو مسجلة) . فعمل مسجيل المسائل يتعلم الصغير أن يتجه بناظره نحو مسار خطوات الأم ، فاذا كانت جميع التجارب والأحاسيس مسجلة استطعنا أن نفهم الألم الشديد على أنه معاشية تجربة ماضية قد أحسنا بها كصغار . ونستطيع أن نفكر في ذلك من حيث أنه استعادة لسماع الشريط الأصلي . ولكي نفهم المفزى فمن المهم أن نختبر موقف الصغير . بالعودة الى الشكل رقم ٧ نرى خطأ يبين مسافة تبدأ من لحظة الإدراك حتى من خمس سنوات ، والخط الزمني الأول يمثل التسعة شهور المنحطرة ما بين الميلاد والإدراك العضوي . وخلال هذه التسعة الشهور حدثت بداية الحياة في أفضل بيئة كاملة يمكن للكائن الانساني أن يعيش فيها ويشار الى هذه الطريقة للحياة بوصفها حالة من اللفة والتكافل .

وعلى ذلك فانه عند الولادة العضوية يندفع الشخص الصغير من الحيز الضيق خلال ساعات قليلة ، الى حالة من التناقض الخطير الذي يتعرض فيه



شكل رقم ٧ : ولادات الشخص من البداية الى من خمس سنوات

لمواقف شاذة مخيفة ومؤكدة وغريبة مثل : البرد ، والشقاء ، والضغط ، والضجيج ، وعدم المساندة ، والاضراف ، والانفصال ، والتجاهل .
وسرعان ما يصبح الصغير بعد وقت قصير وحيدا ومنفصلا ولا ينتمي لأحد .

ومن الأفكار العديدة عن الصدمة النفسية للميلاد ، افتراض أن الأحاسيس الناتجة عن هذا الحادث مسجلة ومحفوظة بشكل ما في المخ . وهذا الافتراض يسانده العدد الضخم من الأحلام المتكررة عن « أنبوب الصرف » . انها مجموعة متنوعة للدرجة أن الكثيرين من الأفراد واجهوا تجربة النخول في مواقف تالية من الضغط الشديد . ويصف أحد المرضى حلما اندلع أثناءه من خلال بحيرة مياه هادئة الى بئر أو أنبوب للصرف . إنه يعيش احساس الكثافة المتزايدة والضغط الشديد ، وهذا الاحساس نفسه يشعر به المريض بمرض الخوف من الأماكن المغلقة . الصغير يفرق في فيض من المواقف غير السارة والفامرة ، وتكون الأحاسيس الناتجة في الوليد - على حد قول فرويد - مثالا لكل ما يل من قلق (٥) . وفي لحظات يجد الوليد ثقلا ، انه كائن انساني آخر يلتقطه ، ويلفه في أقماط دافئة ، ويحمله ، وتبدأ العملية المريحة المعروفة باسم « الهددة والتربيت » وهذه هي نقطة الميلاد النفسي . (شكل رقم ٧) . وهذه هي أولى المعلومات الواردة وفحواها أن « الحياة في الخارج » ليست

(٥)

Sigmund Freud, The Problem of Anxiety (New York : Norton, 1963).

كلها سيئة ، انها مصالحة وعودة لاجساد الحماية ، انها تفتح شهيقه للحياة . ان المداعبة أو تكرار الاحساس بالتلامس اليدني شيء ضروري لبقائه ، وبدون ذلك فانه سيموت ، اذا لم يكن موتاً يدنياً فسيكون موتاً نفسياً . وكان الموت النفسى فيما مضى يحدث كثيراً للصغار بسبب الحالة المعروفة باسم Marasmus . أى للوزال التدريجى الذى كان يحدث للصغار فى البيوت المخصصة للصغار اللقطاء ويؤدى الى الموت بسبب انعدام هذه المداعبة المبكرة ، ولم يكن هناك سبب عضوي يوضح حالات الموت هذه سوى غياب الحافز الضروري للبقاء .

وتذبذب جرعات الحنان يجعل الصغير فى حالة دائمة من عدم الاثزان . ذلك أنه خلال العامين الأولين من العمر لا يكون لديه أدوات تفكير ادراكية وهى الكلمات - لتفسير وضعه المتقلقل فى عالمه . وعلى أية حال فانه يسجل دائماً المشاعر التى تنبت من العلاقة بينه وبين الآخرين ، وفى المحل الأول الأم . وهذه للمشاعر ترتبط مباشرة بالمداعبة أو عسها . ان من يربت عليه هو انسان على مايرام ، أما تقديره لنفسه فهو غير مؤكد لأن شعوره بأنه على مايرام هو شعور عابر ، ويحل محله دائماً شعور بأنه ليس على مايرام . وفى النهاية فإن عدم التاكيد يقنعه بأنه على غير مايرام . ولكن عند أى نقطة يتخذ الصغير قراره النهائى فى الموقف « أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام » ؟

يعتقد بياجيه (٦) استناداً الى مبدأ الملاحظة الدقيقة للصغار ، ان تطوير مبدأ السببية (ماذا يأتى بعد ماذا) يبدأ فى الشهور الأولى من الحياة ويكتسب عند نهاية العام الثانى . وبعبارة أخرى فان المعلومات التى فى شكل خليط من الانطباعات ، تبدأ فى التراكم فى أشكال متتامة معينة حتى الوصول الى نقطة يمكن للصغير عندها أن يتخذ وضعاً أو أن يصل الى استنتاج من الأوضاع والاستنتاجات السابقة على مرحلة الكلام .

ويقول بياجيه : « يبدو خلال مسار العامين الأولين من الطفولة ، أن نمو الذكاء الحسى والحركى ، وأيضاً التوسع فى الربط بين الظواهر المحيطة ، يقود الى حالة من التوازن تركز على الفكر المنطقى . واعتقد أن حالة التوازن هذه التى تتضح عند نهاية العام الثانى ، أو خلال العام الثالث هى ناتج استنتاج الصغير عن نفسه وعن الآخرين أى موقفه فى

Jean Piaget, "The construction of reality in the child (New York Basic Books, 1954). (٦)

الحياة - يوماً ذلماً - موقفه قد استقر ، فقد أصبح لديه شيء صلب يعمل به ،
نوع من القواعد التي يستند عليها في توقع المستقبل . ويستمر فياجيه
قائلاً أن هذه العمليات العقلية المبكرة غير قادرة على معرفة أو بسط الحقائق ،
ولكنها مقصورة على تحقيق النجاح المرغوب . أو التوفيق العمل « إذا لم أكن
على ما يرام ، وأنت على ما يرام - فماذا أفعل لكي أجعلك تسدى لي معروفاً
وغم أنك على ما يرام وأنا لست - على ما يرام ؟ ويبدو الموقف غير ملائم ولكنه
انطباع حقيقي بالنسبة للصغير ، وهو أفضل من لاشيء . وهذه هي حالة
التوازن . لقد مارس « الراشد » في الصغير أولى خطوات السيادة بنفسه
لمعنى الحياة عندما وضع حلالاً أسماء أدلر « المشكلة المركزية للحياة » -
للموقف نحو الآخرين - وما أسباب سوليفان « المواقف الذاتية التي يتخذها
الشخص - إلى نهاية » . والتيك واحدة من أوضح المقولات حول تطور
الموقف - انقلها عن كوبي :

لنبا أن نخرج باستنتاج واحد مؤكد وهو نشأة موقف وجداني
مركزي Central emotional position في الكثير من الحالات ، أحياناً
في الشهور الأولى للميلاد وأحياناً أخرى بعد ذلك . . وسرعان ما يصبح
الموقف المؤثر الذي سيعود اليه الفرد تلقائياً بقية أيام حياته ، وبالتالي
فإن ذلك قد يشكل أما الوافي الرئيسي ، أو نقطة الضعف الرئيسية في
حياته . والواقع أننا قد نتبين أن نشأة هذا الموقف ربما تكون من أولى
المواقف العامة التي تندرج في تطور عملية الإصابة بالمرض العصبي ،
مادامت متبداً حتى في أيام الطفولة السابقة لمرحلة الكلام والتي تسبق
فهم الرموز . . وعندما يكون الموقف الوجداني المركزي مؤلماً ، فقد يقضي
الفرد حياته كلها في حماية نفسه منه ، مستعملاً مرة ثانية أدوات الشعور ،
وما قبل الشعور ، والألا شعور ، تلك التي يهدف منها إلى تجنب الموقف
المفهم بالألم (٧) .

ثم يتساءل حول ما إذا كانت هذه المواقف تتبدل خلال الحياة
فيما بعد أم لا . وأنا أعتقد أنها تتبدل بالرغم من أنه لا يمكن محو الخبرات
المبكرة التي وصلت إلى ذروتها في هذا الموقف . وأعتقد أن المواقف المبكرة
يمكن تبديلها . ما تقرر يوماً ما ، من الممكن ألا يتقرر .

ويقدم تحليل المعاملات التصنيف التالى للمواقف الأربعة الممكنة
للحياة ، تلك التي تتخذ بالنسبة للفرد وللآخرين :

- ١ - أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام .
- ٢ - أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام .
- ٣ - أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام .
- ٤ - أنا على مايرام ، وأنت على مايرام .

وقبل أن أسهب في شرح كل موقف أود أن أذكر ملاحظات قليلة حول المواقف . الكنى أعتقد أنه عند نهاية العام الثاني من العمر ، أو أحيانا خلال العام الثالث ، يكون الطفل قد استقر على قبول أحد المواقف الثلاثة الأولى - موقف (أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام) هو أول قرار على سبيل التجربة يتخذه بناء على خبرات العام الأول من العمر . وعند نهاية العام الثاني ، اما أن يتأكد ويصنقر أو يتخلى عن موقعه للموقف الثاني أو الثالث (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) أو (أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام) . ومع اتخاذ القرار النهائي يبقى الصغير في موقعه المختار ومن ثم يحكم الموقف كل ما يفعله ويظل معه بقية حياته ، اذا لم يغيره شعوريا الى الموقف الرابع ، والناس لا يغيرون مواقفهم للخلف أو الأمام . ويرتكز القرار كلية بالنسبة للمواقف الثلاثة الأولى على المداعبة من عدمها . ان المواقف الثلاثة الأولى عبارة عن قرارات غير منطوقة لأنها استنتاجات وليست تفسيرات . ولكنها لاتزال أكثر من اجابات مشروطة ، انها ما يسميه بياجيه : تدبرات ذهنية في بناء السببية . وبمعنى آخر أنها نتاج معلومات « الراشد » التي خزنت لدى الشخص الصغير .

أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام :

هذا هو الموقف الكلى للطفولة المبكرة ، بصفته الاستنتاج المنطقي الطفولي من موقف الولادة والطفولة . والشعور بأنك على مايرام هنا ناشئ عن المداعبة ، لأن كل صغير يتلقى المداعبة خلال العام الأول من الحياة فالواجب يحتم أن يحمل ويعتنى به . ولن يعيش الصغير بدون الحد الأدنى الضروري من الحمل على اليدين . وهناك كذلك شعور مضاد بأنه على غير مايرام ، وهذا الاستنتاج يتعلق به شخصيا . وأعتقد أن الدلائل تشير الى أن طفيان الشعور في الصغير بأنه على غير مايرام سيجعله يستنتج أنه ليس على مايرام (على أساس الدليل الذي تكون لديه) وسيكون استنتاجه هذا منطقيا . وعند تحليل المعاملات للمرضى وغير المرضى وجدت بصفة عامة اجابة : « هو هذا » عند تفسير نشأة الصغير الذي يشعر بأنه

ليس على مايرام ، وأعتقد أن الاعتراف بأن هذا « الطفل » فى داخل كل منا هو الأسلوب التعاطفى بل العلاجى الذى يمكننا أن نحلل به الألعاب ، وبالتالى فإننا بالنظر الى عمومية الألعاب تصير عمومية الشعور بأنه على غير مايرام - استنتاجا معقولا . . . وكان خلاف أدلر مع فرويد يدور حول هذه النقطة : لم يكن الجنس أساس صراع الأنسان من أجل البقاء بل هو مشاعر القصور ، أى شعوره بأنه على غير مايرام . ورغم أن الصغير بسبب خسارة حبه وعجزه ، يعتبر نفسه حتما فى مرتبة أدنى بالنسبة للأشخاص الراشدين المحيطين به . وقد تأثر هارى ستيك سوليفان بأراء أدلر ، وتأثرت أنا كثيرا بأراء سوليفان الذى دارت مساهمته الأساسية فى علم التحليل النفسى حول فكرة « العلاقات المتبادلة بين الأشخاص أى المعاملات » - أى أن الصغير يبنى كل تقديره لذاته على تقدير الآخرين فيما أسماه « التقدير المنعكس » فقال :

يفتقد الصغير المعاداة والخبرة الضرورية لتكوين صورة صحيحة عن نفسه ، ولذلك فإن مرشده الوحيد هو ردود الفعل الآخرين نحوه ، وليس لديه سبب قوى للشك فى هذا التقدير . وعلى أية حال فإنه بسبب ضعفه أبعد عن أن يتحدى الآخرين أو يشور ضدهم ولذلك فإنه يقبل - بصورة سلبية - الأحكام التى تصدر أولا خلال هذه الفترة فى شكل تأكيدى ، بواسطة الكلمات والإيماءات والأفعال . . . وعلى ذلك فإن المواقف الدائية التى يتعلمها الفرد فى باكورة حياته تستمر معه فى حياته المستقبلية مع مراعاة تأثير الظروف البيئية غير العادية ، والتعديلات التى تحدث خلال العبرات التالية (أ) .

ويشعر الشخص فى المحل الأول بحنان الآخرين فى شكل المديح (٩) انه يشعر بحاجة شديدة للمديح أو التقدير الذى هو الصورة النفسية للمداعبة البدنية المبكرة . وفى هذا الموقف يوجد الأمل بسبب المداعبة فيظهر موقف : أنت على مايرام . حتى اذا لم تكن المداعبة مستمرة . ان الراشد لديه شئ يعمل : ما الذى عمله لأفوز بمديحتهم أو موافقتهم ؟ هناك طريقتان قد يحاول بهما الناس أن يعيشوا هذا الموقف :

From G. S. Blum, "Psychoanalytic Theories of Personality" (A)
(New York : Mc Graw Hill, 1953), p. 73-74.

(٩) استخدمنا هنا كلمة (مداعبة أو تربية) للطفل فى العامين الأولين وكلمة (مديح) بالنسبة للكبار - ترجمة لكلمة واحدة هى Stroking - المترجم .

الأولى : أن يعيشوا حوارا حيا (١٠) يؤكد موقف الشعور بأنهم على غير مايرام - الذى كبت الصغير بلا وعى - وقد يسعى الحوار الى حياة الانسحاب ، مادام من المؤلم أن يتعامل مع أناس على مايرام - وعلى ذلك فإن الشخص سيبحث عن المديح أو الجنان من خلال الاعتقاد والاندماج فى رغبة جياشة للحياة بمعنى (اذا كنت أنا - متى أكون) .

وقد يدعو حوار شخص آخر الى سلوك يتير فائدة الآخرين الى درجة أن يتحولوا ضده (تربيت سلبى) وهذا يبرهن مرة أخرى على فكرة (أنا لست على مايرام) وهذه هي قضية (الولد الصغير الردى) . أنت تقول أنتى ردى ، إذن فساكون ردينا . ولذلك فانه قد يركل ويبصق ويخدش فى خلال طريقة لممارسة الحياة . وبذلك يحقق تكاملا دائما مع واحد على الأقل من الثوابت التى يستطيع حصرها : أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام . وفى ذلك يجد نوعا من الاحساس البائس ، لأن تكامل الموقف قد حصل ولكنه يقود لليأس ، والقرار النهائى فى هذا الموقف هو الاستسلام (يتحول الى سلوك راسخ) ، أو الانتحار .

أما الطريقة الثانية فهى الطريقة العادية للحياة فى هذا الموقف عن طريق : الحوار المعارض . (اللاوعى أيضا) مع استعارة بعض الخطوط من « الوالد » (تستطيع أن تكون على مايرام اذا ...) ومثل هذا الشخص يبحث عن أصدقاء ، فيلتصق بهؤلاء الذين لديهم « والد » كبير لانه يحتاج الى مداعبات كبيرة ، وكلما كان « الوالد كبيرا » ، كانت المداعبات أفضل ، (المداعبات التى تبث الشعور على أن المرء على مايرام يمكن أن تأتى فقط عن طريق أشخاص على مايرام) و « الوالد » على مايرام كما كان فى البداية . ان هذا الشخص تواق وراغب وموافق لطلبات الآخرين . إن « بعض أفضل أصدقائنا » قد نالوا صداقتنا بسبب هذه الجهود المبذولة لكسب القبول . وعلى أية حال فانهم ربطوا حياتهم بتسلق الجبال ، وعندما يصلون الى قمة أحد الجبال ، فانهم ينتظرون جبلا آخر . ان احساسهم بأنهم ليسوا على مايرام يكتب الحوار . انه (أنت على مايرام) ، و (أريد أن أصير مثلك) ذلك الذى يكتب الحوار المعارض ، وليست أعمال تحقيق السعادة أو احساس القيمة المستديرة ، لأن الموقف هنا لم يتغير

(١٠) ان تحليل الحوار هو أسلوب كشف الثغرات للبكرة التى اطلقت بدون شعور ، مثل كيف نفهم الحياة - وأقصد هنا عومية الحوار ، والحوار المعارض . ولعلم قد أجريت دراسات محددة حول أصول وتحليل الحوار بمعرفة عدد من محلى للمعاملات الانسانية منهم برن Berne ، وأرنست Ernest ، وجروجر Groder ، وكاريمان Carpmann ، وشتاينر Steiner

« بضَرْف النظر عما أفعله ، فأننى لازلت على غير مايرام » . وحيث ان الموقف لم يسدل عليه الستار أو يتغير فان الانجازات والمهارات التى نتجت عن الحوار المعارض ، تستطيع أن تخلم الشخص جيدا عندما يبلى خطة حياة جديدة وواعية مع « الراشد » .

انا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام :

إذا توصل جميع الأطفال الذين يعيشون الطفولة الى موقف : (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) مبدئيا ، فماذا يحدث لكى يتوصلوا الى الموقف الثانى : (أنا لست على مايرام ، وأنت كذلك) ، فماذا جرى لموقف : (أنت على مايرام) ؟ ماذا حدث لمصدر المداعبات ؟ لقد حدث شيء ذو معنى للرضيع عند نهاية العام الأول . انه يشى . انه غير محتاج لمن يحمله فيما بعد . واذا صارت أمه باردة ولم تعد تداعبه ، واذا تعاونت معه فقط خلال العام الأول لأن ذلك كان مفروضا عليها ، فان تعلمه أنشى معنى أن أيام « طفولته » قد ولت ، وتوقف المداعبة نهائيا ، وبالإضافة الى ذلك تصير العقوبات أقسى وأكثر عددا لأنه قادر على النزول من سريريه ليبحث بما حوله ، ويرفض البقاء ساكنا هادئا . حتى الإصابات التى يسببها لنفسه ، أصبحت أكثر حلوًا لأن حركته تجعله يسر على معوقات ، وتجعله يسقط من على السلالم .

ان الحياة التى كان لها بعض المباحج خلال العام الأول ، ليس بها شيء الآن . واذا استمر هذا الحال من الإهمال والصعوبة بدون ترفيه خلال العام الثانى من العمر ، فان الصغير يستنتج : (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) ، وفى هذا الموقف يتوقف « الراشد » عن النمو حيث أن إحدى وظائفه الأولية وهى تلقى المداعبات ، قد أحبطت لعدم وجود مصدر للمداعبة . ويستسلم الشخص فى هذا الموقف لعدم وجود أمل . انه يمضى خلال الحياة ببساطة . وقد ينتهى فى مصحة عقلية ، فى حالة انسحاب شديد ، مع سلوك متخلف يعكس رغبة قديمة باحتة فى العودة الى الحياة كما كانت فى العام الأول الذى تلقى فيه المداعبات الوحيدة التى عرفها - كرضيع كان يحمل ويظلم بمعرفة الآخرين .

ومن الصعب أن نتخيل شخصا يمضى فى طريق الحياة بدون مداعبات . وحتى مع وجود أم لا تداعبه ، فلا بد بالتأكيد من ظهور أشخاص مؤهلين لرعاية الشخص الذى يمر بهذه الحالة وهم الذين يمشحونه بالحنان فى الحقيقة . وعلى أية حال فما دام قد استقر على موقف معين ، فان كل

الخبرة تتحول لمساندة هذا الموقف اختصاريا . وإذا استنتج شخص : « أنت لست على مايرام » ، فإن ذلك ينطبق على جميع الناس ، ويرفض مداعباتهم مهما كانت مخلصه . لقد وجد مقياسا آخر للتكامل أو الاحساس في استنتاجه المبكر . ولذلك فإن التجارب الجديدة لاتمزقه سريعا . وعنده هي الطبيعة المصيرية للمواقف . وأيضا فإن الشخص في هذا الموقف يتوقف عن استخدام « راشده » بالنسبة لعلاقاته مع الآخرين ولذلك فإنه حتى أثناء العلاج يكون من الصعب الوصول الى « راشده » خاصة مع العلم بأن المعالج أيضا في موقف « أنت لست على مايرام » وهناك حالة واحدة قد يصير فيها موقف (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) هو الموقف الأول وليس موقفا ثانويا بالنسبة للموقف الأساسي : أنها حالة « الصغير » الهارب من الواقع ، الذي يظل غير مولود نفسيا . ويبدو أن هذا الهروب هو رد فعل كامن يفتقر للنضج العاطفي في مواجهة الضغوط المتجمعة الآتية من المحيط الخارجي الخالي من المداعبة . وهذا النوع من الصغار هو من لم يشعر بأن هناك من ينقذه خلال الأسابيع الأولى الحرجة من حياته . أن الأمر يبدو كما لو كان لم يجد أحدا في الخارج هناك بعد نفيه المفجع الى معتزك الحياة .

ويستنتج سكوبلر (١١) أن هناك عاملا نفسيا يرتبط بمسدم كفاية المداعبة بحيث ينتج « الصغير » الهروبي ، ويظن أن هذا العامل هو حاجز مرتفع أمام التأثيرات بحيث يفل المداعبة التي بذلت للصغير . ربما لا يكون قد حرم نهائيا من المداعبة ، ولكن حرم من احساسه بها أو تراكم احساسه بها . وحينذاك فإن الصغير يراه الأبوان كما لو كان صغيرا لا يستجيب . (أنه لا يجب أن يسكه أحد ، وإنما يرقده هناك ، أنه مختلف عن غيره) ، وحينذاك سيتوقف أبواه عن مداعبته لأنه « لا يجب أن يسكه أحد » . ومن الجائز أن التدليل الكثير (أكثر مما يبذل عادة) قد كسر الحاجز .

وقد لاحظت مرة ولدا هروبيا وأبكم في سن الحادية عشرة يعطى دليلا على الإدراك الواضح لموقف (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) بما يقدم عليه من الضرب العنيف المتكرر بقبضته ، أولا للمشرف ، ثم لرأسه هو ، فظهر كما لو كان يعبر عن وجهة نظره في الحياة : (أنت لست على مايرام ، وأنا لست على مايرام) فلعنا نحطم كلانا الآخر .

E. Schopler, "Early Infant Autism and Receptor Processes", (١١)
Archives of General Psychiatry. Vol. 13 (October 1963).

أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام :

ان الصغير الذى عومل بقسوة لفترة طويلة من أبويه اللذين كان يشعر فى البداية بأنهما على مايرام ، سينتقل الى الموقف الثالث أى موقف بأن المرء على مايرام ، ولكن من أين يأتى هذا الاحساس ؟ أين مصدر الاجرام : (أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام) . هنا يوجد احساس المداعبة اذا كنت أنت (لست على مايرام) ؟ أما اعتبار أن الموقف يتقرر فى العام الثانى أو الثالث من عمر الصغير فهو يشكل سؤالاً صعباً ، لأنه اذا استنتج الصغير ذو العامين أنه على مايرام ، فهل هذا يعنى أن موقفه نتاج « مداعبة ذاتية » ؟ فاذا كان الأمر كذلك ، فكيف يداعب الصغير نفسه ؟

اننى اعتقد أن هذه المداعبة تحدث حقيقة خلال الوقت الذى يتداوى فيه الشخص الصغير من اصابات مؤلمة وكبيرة مثل تلك التى يبتلى بها الحدث الذى يعرف باسم « الطفل المحطم » *Beleard child* . وهو الطفل الذى ضرب بشدة حتى تكسرت عظامه وتلحق جلده . وأى شخص كسرت له عظمة أو أصابته رضوض شديدة يعرف هذه النوعية من الألم . والاصابات المؤلمة عادية فى الصغار المحطمين مثل الضلوع المكسورة ، والكلى الممزقة والجماجم المشدوخة . فما هو شعور من لم يتعلم المشى عندما يعانى من صعوبة التنفس بسبب الاضلاع المكسورة ، أو الصنداع المبرح بسبب نزيف الدم من العمود الفقرى ؟

اننا نجد فى كل ساعة أن خمسة سفار فى هذا البلد (الولايات المتحدة) يصابون اصابات من هذا النوع بأىدى والديههم . واعتقد أنه بينما يكون هذا الفرد الصغير تحت العلاج بمعنى أنه « راقد هناك يلحق جراحه » فإنه يعيش احساس الوحدة بمفرده وبنفسه ، واذا لم يكن لسبب آخر ، فإن تحسنه يتناقض مع الألم الشديد الذى عاناه . ويبدو كما لو كان يشعر بالموقف قائلاً : « سأكون بصحة جيدة ، اذا تركتمونى وحدى - أنا على مايرام وحدى » . وعندما يظهر الأبوان المتوحشان ثانية ، فإنه قد يرتعش فى فزع متوقفاً تكرر ما حدث .

« أنت تؤذيتنى ! - أنت لست على مايرام . أنا على مايرام وأنت لست على مايرام » . ان التاريخ المبكر للعديد من المجرمين ، الذين يعيشون فى هذا الموقف ، يكشف عن هذا النوع من الانحراف النفسى الكبير .

ومثل هذا الشخص الصغير قد عانى من القسوة ، بالرغم من بقائه حياً . لسان حاله يقول : « ما حدث يمكن أن يحدث ثانية » . اننى أحيا ،

وساطل أحيا » . انه يرفض الاستسلام . وعندما يتفهم به العمر يبدأ في رد الضربة بمتلها . لقد رأى القسوة ويعرف كيف يكون قاسيا . ولديه أيضا تصريح (في الوالد) بأن يكون قاسيا وعنيفا . وتسانده الكراهية بالرغم من أنه قد يتعلم اخفائها وراء قناع الأدب المحسوب . قال كاريل تشيسمان Caryl chessman : « ليس هناك شيء يساندك مثل الكراهية ، ومن الأفضل أن تتصف بأى شيء ما عدا الخوف » .

وبالنسبة لمثل هذا الصغير ، فان موقف « أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام » يعتبر قرارا مصيريا . أما المسألة بالنسبة له وللجميع فانها تتمثل في أنه يضى في الحياة رافضا أن ينظر الى الداخل . انه غير قادر على أن يكون موضوعيا فيما يتعلق بالمشاركة فيما يحدث له . انها دائما « غلطتهم » « كلهم » . ويقف المجرمون العتاة في هذا الموقف . انهم أشخاص « بلا وعى » مقتنعون بأنهم على مايرام بصرف النظر عما يفعلون ، وأن الخطأ الكلى في كل الحالات هو خطأ الآخرين .

وهذا الموقف الذى كان يعرف في وقت ما باسم « البلاء الأخلاقية » هو في الحقيقة حالة طرد فيها الشخص جميع المعلومات الواردة اليه عن صلاح الآخرين . ولهذا السبب فان علاجه صعب ، حيث أن المعالج لايتلق مع أى شخص آخر . وينحصر التعبير النهائي عن هذا الموقف في « قتل الغير » كاحساس يحتاج من القاتل الى تبرير (بنفس الطريقة التى دبر بها تبرير اتخاذه الموقف في المحل الأول) . ان الشخص في موقف (أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام) يعاني من الحرمان الشديد من الحنان ، وأى قدر من الحنان يجب أن يتساوى مع شدة من يعطيه ، ولكن لا يوجد أشخاص طيبون ، ولذلك فليس هناك حنان حقيقى . ومثل هذا الشخص قد يشكل عصابة من الرجال الموافقين أى الذين يتسحونه ويداهنونه بشدة . ولكنه يعرف أنه مديع كاذب لأنه هو نفسه الذى أجبرهم عليه . وبنفس الطريقة فان عليه فى المقام الأول أن يفرز شعوره بالحنان . وكلما ازدادوا فى مدحه ازدادهم أكثر حتى يرفضهم فى النهاية من أجل تشكيل عصابة أخرى . ان هناك تسجيلا قديما فى ذهنه يقول : « اقترب منى حتى أنال منك ، وهذه هى الطريقة التى بدأ بها حياتي » .

أنا على مايرام ، وأنت على مايرام :

وهناك موقف رابع - هو الذى ينطوى عليه أملتسا - انه موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) . كما أن هناك اختلافا متوازنا بين المواقف الثلاثة الأولى والموقف الرابع ، فالثلاثة مواقف الأولى غير واعية -

سم ندوينها في أوائل الحياة . وجاء موقف (أنا لست على ما يرام ، وأنت على ما يرام) في البداية واستمر لدى معظم الناس على مدى الحياة ، وقد تغير هذا الموقف لدى الصغار غير المحظوظين ، إلى الموقفين الثاني والثالث . ويتثبت أحد هذه المواقف في كل شخص عند العام الثالث من العمر . وربما كان الاستقرار على أحد المواقف هو أحد الوظائف الأولية لدى « راشد » الصغير في محاولته للاحساس بالحياة ، وبذلك يجرى تطبيق مقياس للتنبؤ بالمستقبل بالنسبة لمشكلة الدوافع والمشاعر . ويتم التوصل لهذه المواقف على أساس المعلومات الواردة من « الوالد » ، و « الطفل » ، إنها تنبئ على المشاعر والأحاسيس دون الاستفادة بالمعلومات الخارجية المعدلة .

ونظرا لأن الموقف الرابع (أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام) قرار ادراكي ولفظي ، فإنه من الممكن أن يتضمن ليس فقط قدرا أكبر من المعلومات اللانهائية عن الفرد والآخرين ، بل أيضا احتواء الامكانيات التي لم تختبر بعد ، والتي تمتد في الأفكار الفلسفية والدينية المجردة . ان المواقف الثلاثة الأولى تركز على المشاعر ، أما الرابع فيركز على الفكر والمعتقد ووزن الفعل . ان المواقف الثلاثة الأولى تتعامل مع لماذا ؟ أما الرابع فيتعامل مع لماذا لا ؟ وأن فهمنا للمواقف لا يرتبط بتجاربنا الشخصية ، لأننا نستطيع أن نتجاوزها إلى الفرض الأسمى المجرد من أجل جميع الناس .

ونحن في ذلك لاننجرف إلى قرار جديد ، ولكن إلى قرار نتخله عن تدبير وتفكير . وهو في هذا الصدد يشبه تجربة تحويلية . أننا لاستطيع أن نقرر الموقف الرابع بدون قدر أكبر من المعلومات بما يزيد عن معلومات معظم الناس الآخرين المتاحة لهم عن الظروف المحيطة بالمواقف الأصلية التي تقرر في بداية حياتهم . ويالهم من محظوظين ! هؤلاء الصغار الذين نالوا مساعدة مبكرة في الحياة ليكتشفوا أنهم على ما يرام بالتعرض المستمر للمواقف التي يستطيعون فيها أن يدللوا لأنفسهم على قيمتهم الذاتية وقيمة الآخرين . ولسوء الحظ فإن معظم المواقف العادية تتمثل في ذلك الموقف الذي يتقاسم الأشخاص « الناجحون » و « غير الناجحين » على حد سواء ، ألا وهو موقف (أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام) ويتركز أكثر الأساليب استخدما للتعامل مع هذا الموقف - في ممارسة الألعاب .

ويعرف برن اللعبة بأنها :

سلسلة مستمرة من المعاملات المتتالية تتقدم إلى فاسج مستقبل واضح التجديد ، يمكن التنبؤ به ، ويوصف بأنه مجموعة متكررة من

المعاملات ، تتكرر غالباً في شسكل يمكن تصديقه ظاهرياً ، مع حافظ مستتر ، أو بأكثر عمومية . إنها سلسلة من التحركات التى تنطوى على فتح أو حيل (١٢) .

وأنا أعتقد أن جميع الألعاب لها أصل فى الطفولة السادجة . ويمكن ملاحظة اللعبة بسهولة فى أى فريق أفراد فى سن الثالثة . « ما لدى أفضل مما لديك » . وهذه اللعبة هدفها التخفيف من عبء الشعور بأن المرء ليس على مايرام ، وهى ضرورية لتثبيت معانى (أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام) فى ذهن الصغير فى علمه الثالث . (أن موقف أنا لست على مايرام) يعنى : أن طولى قصير ، وأنا ضعيف ، وعاجز عن الدفاع عن نفسى ، ومتسخ الجسم ، ولا أعمل شيئاً سليماً ، وأنا عديم الكياسة ، وليسنى عندى كلمات أحاول بها أن أجعلك تفهم الاحساس بكل هذه الأمور . أما (أنت على مايرام) فتعنى : أن طولك ستة أقدام ، وأنت قوى ، وعلى صواب دائماً ، ولديك كل الإجابات ، وأنت أتيق ، وتستطيع أن تتحكم فى شخصى أنا بالموت أو الحياة ، وتستطيع أن تضربنى وتؤذينى ، وتظل الحياة متوافقة .

ويرحب الطفل بأى تخفيف من وطأة هذه الظروف غير المسادلة . أن طبعا كبيراً من الأيس كريم ، أو الاندفاع للوقوف فى أول الصف ، أو الضحك من أخطاء الإخت ، أو ضرب الأخ الأصغر ، أو ركل القطة ، أو الحصول على لعب أكثر . كل ذلك يعطى راحة وقتية حتى لو صادفته نكبة مرعبة أخرى فى الطريق ، كان يضربه الأخ الأصغر ، أو تقمقصة القطة ، أو أن يجد صغيراً آخر لديه لعب أكثر .

للكبار أنماط أرقى من لعبة « ما لدى أفضل مما لديك » . . . بعض الناس يجد راحة مؤقتة فى تكديش الممتلكات ، أو بالمعيشة فى منزل أكبر وأحسن مما تمتلكه عائلة جونس ، أو حتى التباهى بتواضعهم : أنا أكثر تواضعاً منك . أن هذه الألعاب التى تركز على ما أسماه أدلر : « القصص المرشدة » قد تعطى راحة مقبولة حتى لو حدثت عقبة فى الطريق فى شكل وثيقة رهن تمسقى ، أو فواتير استهلاكية ، تلك التى ترفع الشخص الى حياة المشقة الدائمة . وفى الفصل السابع سنتحدث عن الألعاب بالتفصيل على أنها « حل » منتج للشقاء ، يمزج الشقاء الأصل ويؤكد موقف عدم الموافقة .

ان الهدف من هذا الكتاب هو اثبات أن الطريقة الوحيدة التي يتحسن بها الناس أو يشعروا بأنهم على ما يرام ، هي الكشف عن مأزق الطفولة الذي يبرز المواقف الثلاثة الأولى ويبرهن على أن السلوك الحالي يخلد المواقف .

وأخير فمن الضروري معرفة أن موقف (أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام) هو موقف وليس احساسا .

• ان الاحساس بأن المرء ليس على ما يرام في « الطفل » لا تنمحي تسجيلاته بقرار في الحاضر . والطريقة المناسبة هي أن تبدأ مجموعة من التسجيلات التي تتبع للمرء الاحساس بأنه على ما يرام في معاملاته ، والنجاح حسب مفهوم تقدير الاحتمالات الصحيح ، والنجاح حسب مفهوم الأعمال المتكاملة التي لها معنى ، والتي يتم تخطيطها بمعرفة « الراشد » وليس بمعرفة « الوالد » أو « الطفل » والنجاح الذي يركز على الأخلاقيات التي يمكن مساندتها منطقيا . ان الرجل الذي عاش سنوات عديدة حسب قرارات « الراشد » المتحرر لديه مجموعة كبيرة من تلك الخبرات الماضية ويستطيع أن يقول بالتأكد « أنا أعرف هذه الأعمال » .

ان منطق عمل (أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام) يتركز في أن الاحساس بالفرح أو السكينة عاجلا ، أمر غير متوقع . في أحد الأيام اشتكى أحد المطلقين ، في إحدى مجموعاتي - بفضب قائلا : « اذهب أنت وفكرك الملعون الى الجحيم ، لقد ذهبت الى حفل في الليلة الماضية وقررت أن أكون لطيفا بقدر الاستطاعة ، وقررت أن أعتبر كل فرد من الموجودين هناك على ما يرام ، ولاهبت الى تلك المرأة التي أعرفها وقلت : « لماذا لا تأتين وتتناولين القهوة معي في وقت ما ؟ » وإذا بها تسخر مني كما لو كنت صغيرا بقولها : « حسنا . انني أود ذلك ، ولكنك تعرف أن الوقت غير متوفر لدى كل فرد للجلوس والثروة طول اليوم كما تفعل أنت . ان هذا عمل الطيور .. التي لا تعمل ! » .

ان العواصف الشخصية أو الاجتماعية لاتخذ بمجرد أن نتخذ موقفا جديدا . ان « الطفل » يريد نتائج عاجلة - مثل القهوة السريعة ، أو الراحة العاجلة من عسر الهضم . ولكن « الراشد » يستطيع أن يدرك أن الصبر والايان ضروريان . اننا لا نستطيع أن نضمن مشاعر الموافقة باتخاذ موقف (أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام) . اننا حساسون لوجود التسجيلات القديمة . ولكننا نستطيع اختيار إيقاف الاستماع اليها عندما تعاد بطريقة تضعف الايمان الذي نعتقده في ضرورة انتهاز أسلوب جديد

للحياة ، ذلك الذى سوف يۇدى الى نتائج جديدة وسعادة جديدة فى حياتنا
عندما يحين الوقت المناسب . ويستطيع « الراشد » أيضاً أن يعرف
استجابات « الطفل » لدى الآخرين ، ويمكنه أن يختار علم رد الكيل
بالكيل . أما التغيير الذى سيجلبه هذا ، وكيف أن هذا التغيير ممكن ،
فهو موضوع الفصل التالى .

الفصل الرابع

نستطيع أن نتغير

(يتباهى كل الناس برقى مجتمعاتهم ، ولكنهم هم أنفسهم لا يتطورون)
 الى الأفضل - والف والدو امرسون)

لن ينفعنا أن نكتبه بالإعتراف بأن لدينا مشكلات ، والاولى أن نعترف بأن معظم طاقتنا تستنفد يوما بعد يوم في صنع القرار . يقول المريض في الغالب : « لا أستطيع أن أتخذ قرارا ، قل لي : ماذا أفعل ، أخشى أن أتخذ القرار الخاطئ » ، أو يقال في مواجهة العجز عن البت في الأمور : « انى دائما على حافة التمزق » . اننى أكره نفسي ولا أبدو قادرا على عمل شيء بالرة . ان حياتي سلسلة من الأعمال الفاشلة » .

ورغم أن هذه الأقوال يمكن أن تقاوم التعبير عن المشاكل ، إلا أنها جميعا تعود في أصلها الى الصعوبة التي تحيط بصنع القرار . إن الطبيعة غير المستقرة للعجز عن الحسم يجرى التعبير عنها أحيانا بالمعذر الجزائي : « اعمل شيئا . أى شيء - فقط اعمل شيئا » ، ونرى أثناء علاج المريض صعوبتين مرتبطتين كتعلقان باتخاذ القرار : ١ - « اننى دائما أتخذ القرار الخاطئ » . ويصدر هذا القول عن الشخص الذى تأتى قراراته والإنشطة التى تليها بنتيجة سيئة بالنسبة له . ٢ - « اننى أفتش وأفتش عن نفس الشيء » . ويصدر هذا القول عن الشخص الذى ازدحم برنامجه حاصبه الآلى الوهمى بسبب العمل الذى لا ينتهى أو القرارات المعلقة .

أما الخطوة الأولى في حل أى من هاتين الصعوبتين ، فتنحصر في معرفة أنه يوجد في كل قرار ثلاث مجموعات من المعلومات التي يجب التعامل معها : المجموعة الأولى من المعلومات توجد في « الوالد » والثانية في « الطفل » والثالثة في « الراشد » . ان معلومات « الوالد » و « الطفل » محددة التاريخ ، أما معلومات « الراشد » فتمثل حقيقة خارجية كما أنها توجد في الحاضر ، مصحوبة بقدر ضخم من المعلومات المتراكمة في الماضي ، مستقلة عن « الوالد » و « الطفل » ، وتصيب المعلومات الواردة من المصادر الثلاثة كلها في الحاسب استجابة لحافز المعاملات - اذن أى من هذه المعلومات ستتضمنه الاستجابة - « الوالد » أم « الراشد » أم « الطفل » ؟ ربما كانت أفضل طريقة لشرح هذه العملية هي أن تضرب مثلا :

سنقول أن رجل أعمال متوسط العمر ، له سمعة طيبة كآب ناجح ، وزوج ناجح ، ومواطن مسئول ، عليه أن يتخذ قرارا حول ما اذا كان ينبغي أن يوقع التماسا سيظهر في الجريدة المحلية من عدمه ، وهذا الالتماس يؤيد مشروعا للمساكن المناسبة بحيث يستطيع الأفراد من كافة الأجناس أن يعيشوا حسب امكانيات الدخل . ان الطلب يأتي عن طريق التليفون وبمجرد أن يعيد السماع الى مكانها يكتنفه ضيق عظيم ومفص في معدته مع الاحساس بأن يوما سعيدا قد فسد .

عليه أن يتخذ قرارا ، ومن الواضح أن هناك قدرا كبيرا من الصراع يدور في داخله - فمن أين تأتي المعلومات المتضاربة ؟ « الوالد » هو أحد المصادر . ومن بين التسجيلات التي تدور ما يل : « لا تجلب العبار على الأسرة » و « لا تنجم نفسك » و « لماذا أنت بالذات ؟ » و « يجب أن تأتي أسرتك وأولادك في المقام الأول ! » وهاك نقيات أخرى يدور حولها التسجيل الذي لا يقاوم ، والذي انقطع خلال سنواته الأولى في بيته في إحدى مدن الجنوب ، « عليك أن تضعهم في مكانهم » . والحقيقة أنه يوجد تصنيف كامل من معلومات « الوالد » تحت « لفظ زنجي » الذي يطل برأسه ولم يكن متاحا للحواد من قبل . وقد أغلق الباب على هذه المعلومات خلال سنوات الطفولة المبكرة بواسطة التوجيهات الشديدة الحاسمة : « لا تسأل أسئلة » . « انه زنجي وهذا هو السبب » . « لا تجعلني أسمعك نتحدث عن هذا الموضوع ثانية » . (وحتى بعض الأغاني المتداولة تدور حول نفس تلك الفكرة) .

وتقوى هذه التسجيلات المبكرة مع مرور الزمن باستمرار أوامر « الوالد » ومع دليل تال هو أن وجود الزوج يمكن أن يكون سببا للمتاعب

(على سبيل المثال ، يوجد في بعض المدن الأمريكية مثل لیتل روك وواتس وديترويت ، قوة ضغط تنادي بمساندة القرار الذي سيتخذه هذا الرجل) .

وتكمن قوة هذه المعلومات الواردة في قدرتها على توليد الخوف في « الطفل » . مرة ثانية يعمل « الوالد » الضخم ، في « الطفل » الضئيل لكي يجعله يمتثل ، وعلى ذلك فإن المجموعة الثانية من المعلومات تأتي عن طريق « الطفل » ، وهي معلومات تعبر عن نفسها في شكل مشاعر : خوف ، ماذا سيقولون ؟ ماذا سيحدث لو تزوجت ابنتي زنجياً ؟ ماذا ستكون قيمة ممتلكاتي ؟ توجد هنا متاعب حقيقية ولكن شدة المشاعر لا ترتبط كثيراً بالمصاعب الحقيقية مثلما ترتبط بالصعوبة الأصلية المتمثلة في خيال الصغير ذي الأعوام الثلاثة المعتمد على أبويه طلباً للأمان ، وهذا يولد الخوف في المدة والعرق في اليدين . ويمكن أن تكون المشكلة أكثر إيلافاً عندما يتوجه الرجل إلى الشراب ، أو يؤدي بعض الأنشطة البديلة للهروب من ضغط « الوالد » .

وستكون هذه معركة حياة قصيرة إذا لم تكن من أجل مجموعة أخرى من المعلومات التي تغذي الحاسب أيضاً . إنها المعلومات الواردة من الحقيقة وتوجد في المجال الخاص بها في « الراشد » . إن الرجل البسيط أو « غير المفكر » لا يقلق كثيراً للحقيقة . إنه يسلم « للوالد » ببساطة . إن شعاره هو « السلام للطفل » بأي ثمن . والطرق القديمة هي أفضل الطرق . إنها الطبيعة الانسانية والتاريخ يعيد نفسه . مثل المقولة الأمريكية الشائعة « اترك الأمر لجورج » .

إنه فقط الرجل ذو « الراشد » النشط ، ذلك الذي يضع في اعتباره التهديد الجاد لاستحكام الأزمات العنصرية حتى بالنسبة لرفاهيته الذاتية . ويستطيع « الراشد » فقط أن يطلب معلومات أكثر . كما أنه يستطيع أن يقيم مدى خطورة الاسترقاق أو معاملة الأشخاص كالأشياء . وهذا هو ما أوجد احساس التحقير واليأس الذي دمر العديد من الزنوج ، والذي جرى التعبير عنه في لیتل روك أو سيلما أو واتس أو ديترويت . و « الراشد » فقط مثل لينكولن ، هو الذي يستطيع أن ينظر بموضوعية إلى كل المعلومات ويتقدم طالبا معلومات أكثر .

في عملية « التعريف الفصل » هذه تعمل المجموعات الثلاث من المعلومات التي تبدأ تنظيمها خارج فوضى المشاعر والتردد - على اتخاذ القرار . وطالما حدث الفصل ، فإن مجموعات المعلومات الثلاث يمكن فحصها بواسطة « الراشد » لمعرفة أيها ساري المفعول .

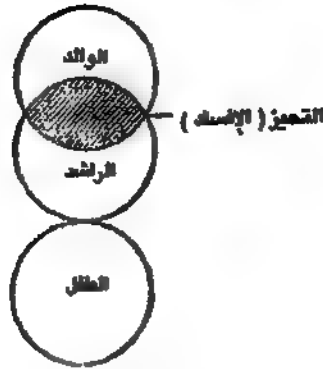
أما الأسئلة التي سيواجهها رجل الأعمال المتضايق عند فحص معلومات « الوالد » فهي : « لماذا يعتقد أبواه في هذه الأشياء ؟ ، ماذا كان نوع « الوالد » لديهم ؟ لماذا كان الطفل لديهم مهلدا ؟ ماذا كانت قدرتهما أو عجزهما بالنسبة لفحص مبدأ (الوالد - الراشد - الطفل) عندهما ، وهل كان ما يعتقدانه صائبا ؟ هل الأشخاص البيض متفوقون على السود ؟ لماذا لا ؟ وهل من الخطأ ألا يفامر الانسان ؟ وهل يجلب الموقف المعارض للفرقة العنصرية الخزي للعائلة ؟ وهل من الممكن أن يجلب الشرف ؟ وهل يتحتم عليه أن يضع عائلته وأولاده في المقام الأول اذا لم يشترك في وضع حل منطقي للمشاكل العنصرية في مجتمعه ؟ ، ولا بد أنه من المفيد أن يسأل عما يعتقد أبواه اليوم من آراء تخالف ما كانا يعتقدانه عند تسجيل معلومات « الوالد » لديه .

وعلى « الراشد » لديه أن يفحص أيضا المعلومات الواردة من « الطفل » : لماذا يشعر بأنه مهلدا الى هذا الحد ؟ لماذا تتلوى معدته بالمقص ؟ هل هناك خطر فعل ؟ وهل خوفه اليوم حقيقي أم أنه كان حقيقيا فقط عندما كان عمره ثلاثة أعوام ؟ ربما كانت لديه مخاوف حقيقية عن الفوضى والعنف . ربما كان قد قتل ، ولكن عليه أن يفرق بين الخوف الناتج عن الأحداث الواقعة والخوف الذي أحس به في الثالثة من عمره . ان خوف العام الثالث من العمر أكبر ، لأنه حينذاك لم يكن يقدر على تغيير الحقيقة ، ولكنه يستطيع ذلك الآن وعمره ثلاثة وأربعون عاما ، انه يستطيع اتخاذ خطوات لتغيير الحقيقة ، وتغيير الظروف التي أوجدت الخطر الفعلي كلبية .

ومن الضروري فهم مخاوف سن الثالثة ، لتجريد « الراشد » وتصنيف معلومات جديدة . انه الخوف - الخوف القديم من « الوالد » الذي يهلك كل القوة - الذي يجعل الأفراد يحكمون في الأمر قبل النظر فيه ، أو الذي يجعلهم متعصبين . والشخص المتعصب يشبه الولد الصغير الذي تجدنا عنه في الفصل الثاني ، ذلك الذي يقلل فكرة أن (رجال الشرطة أذياء) على أنها حقيقة فعلية . وهو يخاف أن يفعل ما يخالفها .

وهذا هو ما يتخاض عن محاية « الراشد » (شكل رقم ٨) .

وهذا التحيز يسمح بالتعصب أو بأن تصير معلومات « الوالد » التي لم تختبر حقيقة خارجية .



شكل رقم ٨ : التحيز أو العناية

ونستطيع أن ننسج على منوال كلمات سقراط القائل : « ان الحياة التي لا تختبر لا تستحق أن تعاش » . فنقول أن « الوالد » الذي لا يختبر لا يستحق أن تعتمد عليه حياة الفرد ، فقد يكون خاطئا .

المرشد المطلق السراج :

الفرض من تحليل المعاملات هو اتاحة حرية الاختيار للفرد . حرية التغيير حسب الارادة ، تغيير الاستجابات حسب المواقف المتكررة والجدينة . ان معظم هذه الحرية تضيق في الطفولة المبكرة ، علامة على بدء ما يسميه كوبي « العملية العصبية » وهذه العملية تدخل باستمرار في حل المشاكل القديمة للوصول الى النتيجة التي نتعامل بكفاءة مع حقيقة اليوم .

قد تنطوي جلود العملية العصبية في ... ظاهرة الطفولة و / او الطفولة المبكرة - وتكون أشكال السلوك النمطية او تتعلق ببعض الأشياء او الأفراد تعلقا مرضيا . هذه كلها قد تتضمن عروضاً مؤثرة - مثل البكاء والمراخ والكوايس والانداء الغريزي من عنقه ، مثل : تناول الطعام والتأمل والقيء والاسترجاع ورفض الطعام واختيار الطعام اضطرابيا وأنماط الاخراج او الامساك وأنماط نشاط الجهاز التنفسي مثل الشهيق والزفير . . . وهكذا ، او أنماط الأفعال العامة مثل تشنج الوجه لا اراديا ، وخبط الرأس ، والاهتزاز والرضاعة وهكذا .

ولا يمكن اعتبار أي من هذه الأفعال مرضا داخليا شاذا في حد ذاته او بسببه ، ما دام من الممكن تغييرها في حرية ، استجابة لتغيير الإشارات

الخارجية أو الداخلية فتظل عادة • ان فقلان حرية التغير هو الذى يبين بناية العملية العصبية (١) •

ان استعادة حرية التغير هي الهدف من العلاج • وتنمو هذه الحرية من معرفة الحقيقة حول ما هو موجود فى « الوالد » وما هو موجود فى « الطفل » وكيف تدخل هذه المعلومات فى معاملات اليوم الحاضر • وى أيضا تحتاج الى الحقيقة أو الدليل عن العالم الذى يعيش فيه • ومثل هذه الحرية تحتاج الى معرفة أن كل شخص يتعامل معه الفرد له « والد » و « راشد » و « طفل » انها تحتاج استكشافا ليس فقط فى المناطق « المعروفة » بل أيضا فى المناطق التى لا يمكن تحديدها • التى يمكن معرفتها جيدا باستخدام مصطلحات وظيفية أخرى « للراشد » وهى امكانية التقييم •

ومن حقائق الأزمات الانسانية أن علينا أن نتخذ القرارات غالبا قبل مثل كافة الحقائق • وهذا حقيقى فى كل ناحية • انه حقيقى فى حالة الزواج ، وهو حقيقى فى حالة الادلاء بالأصوات ، وهو حقيقى فى حالة توليع الثماس ، وهو حقيقى فى ترتيب الأولويات • انه حقيقى بالنسبة لتلك القيم التى نحتضنها باستقلال - وهو موجود فى « الراشد » • ان « الطفل » فىنا يطلب اليقين فهو يريد أن يعرف أن الشمس ستشرق كل صباح ، وأن الأم ستكون هناك ، وأن الشرير سينال عقابه فى النهاية • ولكن « الراشد » يستطيع قبول حقيقة أنه ليس هناك يقين دائما • يقول الفيلسوف التون تروبلاد :

ان حقيقة أنه ليس لدينا يقين كامل بالنسبة لآى استنتاجات بشرية ، لا تعنى أن عمل البحث غير مشر • ومن المسلم به أن علينا أن نتقدم دائما على أساس الاحتمال • ولكن وجود الاحتمال يعنى وجود شيء • اما ما نبحث عنه فى أى مجال من الفكر الانسانى فانه ليس يقينا مطلقا ، لأنه ليس فى وسع البشر ، ولكنه مسار هؤلاء الذين يميزون درجات الاحتمال (٢) •

ويقع هذا فى مجال استكشاف الفلسفة والدين ، وهو ما سننظر فيه فيما بعد فى الفصل الثانى عشر وعنوانه : « مبدأ (الوالد - الراشد - الطفل) والقيم الأخلاقية » •

Lawrence Kubie, "Role of Polarity in Neurotic Process.", (١)
Frontiers of Clinical Psychiatry. Vol. 3. No. 7 (April 1st, 1966).
Eliott Trueblood, "General Philosophy", (New York : Harper, (٢)
1969).

ان « الراشد » في رجل الأعمال الذي واجه مشكلة التماس الاسكان ، يستطيع الاعتذار بأن الدخل الناتج عن التوقيع غير مضمون . فاذا وقع بمضاته فانه قد يتعرض للاستهزاء ، واذا تضمن موقفه (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) جميع الأشخاص ، بصرف النظر عن الجنس او العقيدة ، فقد يهاجمه الأشخاص المتعصبون الذين هم في موقف يمكنهم من الاضرار بدخله ، وعضويته في نادي الجولف ، او علاقته بزوجته . ولكنه يستطيع أن يزن أيضا امكانية أن مساهمته في حل الاضطراب المنصرى في مجتمعه قد يقود الى تخفيف واضح لحدة المشكلة ، وعلى المدى الطويل قد يأتي ذلك ببداعة « الطفل » فيه ، في شكل سمعته كرجل مبدأ وشجاعة .

وعندما يسود « الوالد » أو « الطفل » يمكن التنبؤ بالنتيجة . وهذا هو أحد المعالم الضرورية للألعاب . وهناك أمان معين في الألعاب . انها دائما قد تنقلب مسببة للألم ، ولكنه ألم نعلم اللاعب أن يتعامل معه . وعندما يسيطر « الراشد » على المعاملات ، لا يمكن دائما التنبؤ بالنتيجة . هناك احتمال الفشل ، كما أن هناك احتمال النجاح ، والأهم من ذلك أن هناك احتمال التغيير .

ما الذي يدفع الناس لطلب التغيير ؟

هناك ثلاثة أشياء تجعل الناس تريد التغيير . أحدها هو أنهم قد نالوا الكفاية من الأذى . لقد دقوا رؤوسهم في نفس الحائط مدة طويلة حتى قرروا الاستكفاء . لقد وضعوا نفوذهم في نفس الصندوق دون عائد لمدة طويلة حتى أنهم صاروا في النهاية راغبين اما في وقف اللعب أو الانتقال الى صندوق أخرى . لقد تصدعت رؤوسهم وتقرحت معدنتهم . انهم سكارى . لقد اصطلموا بالقاع ، وهم يطلبون الراحة . انهم يريدون التغيير .

والشيء الثاني الذي يدفع الناس الى طلب التغيير هو نوع بطيء من اليأس يسمى الملل أو الضجر . وهذا هو ما يحس به الشخص الذي يمضي في الحياة قائلا : « ثم ماذا ؟ » حتى يسأل في النهاية سؤالا حتميا « ثم ماذا ؟ » انه قابل للتغيير . والشيء الثالث الذي يجعل الناس تطلب التغيير هو الاكتشاف المفاجيء لقدرةهم . وقد كان ذلك أحد الآثار الملحوظة لتحليل المعاملات من خلال المحاضرات ، أو بالسماع عنه من شخص آخر .

وأتاحت هذه المعرفة الاندهاش فيما يتعلق بالامكانيات الجديدة ، تلك التي قادت فيما بعد الى استفسارهم ورغبتهم الشديدة في التخيير . وهناك ايضا ذلك الطراز من المرضى وهو المريض الذى بالرغم من معاناته للأعراض المضنية ، الا أنه لا يزال لا يريد التغير فعلا ، ان بطاقة علاجه تقول : « اننى أعتقد بأن أدعك تساعدنى اذا لم تتحسن حالتى » . وهذا الموقف السلبي يتغير عندما يبدأ المريض يرى أنه توجد طريقة أخرى للحياة . ان المعرفة العاملة لمبدأ (الوالد - الراشد - الطفل) تجعل من الميسور للراشد اكتشاف أبعاد جديدة ومثيرة للحياة ، وهى رغبة كانت موجودة طوال الوقت ، ولكنها كانت مدفونة تحت حمل عدم المرض أو العجز عن التوافق .

هل الانسان عنده ارادة حرة ؟

هل يستطيع الانسان أن يتغير حقيقة - اذا اراد ؟ واذا استطاع ذلك ، فهل يعتبر تغييره نتاجا لعملية اشتراط conditioning سאלفة ؟ هل للانسان ارادة ؟ ان احدى المشكلات الأشد صعوبة للموقف الذى وصفه فرويد تتمثل فى الحتمية مقابل الحرية او الجبر والاختيار . لقد قرر فرويد ومعظم السلوكيين أن ظاهرة العلة والمعلول - التى تظهر فى كل شىء ، تصدق تماما بالنسبة للكائنات البشرية ، وفحواها أنه «هما يحدث اليوم فمن المستطاع فهمه نظريا تحت ضوء ما حدث فى الماضى » . فاذا قتل رجل اليوم رجلا آخر ، فاننا قد تعودنا حسب توجيه فرويد أن نتنظر فى ماضيه لنكتشف السبب ، والافتراض هنا يدور حول حتمية وجود سبب أو أسباب ، وأن هذا السبب أو الأسباب يكمن فى مكان ما فى الماضى .

أما الذين يعتقدون مذهب الجبر يبحث فيقولون : ان سلوك الانسان ليس حرا ، وهو فقط نتاج ماضيه ، والنتيجة الحتمية تتركز فى ان هذا الرجل ليس مسئولاً عما يفعله ، ويمنى هذا فى الحقيقة أن ارادته ليست حرة ، وتظهر المعضلة الفلسفية بصورة درامية فى المحاكم حيث يعتبر الموقف القضائى أن الرجل مسئول . أما مذهب الجبر الذى يقف خلف شهادة الطب النفسى فإنه يتركز فى أن الرجل غير مسئول بالنظر الى أحداث ماضيه .

ونحن لانستطيع أن ننكر حقيقة العلة والمعلول ، اذا ضربنا كرة بلياردو فاصططمت بعدد آخر من الكرات ، التى ستضرب بدورها كرات

أخرى تحركها ، ومن ثم علينا أن نقبل البرهان على فكرة الترتيب المتسلسل للعللة والمعلول ، أما مذهب الوحدة فيزعم أن هناك قوانين من نفس النوع تؤثر على سائر مظاهر الطبيعة . أما التاريخ فيبرهن على أنه بينما لم تتطور كرات البلياردو عما هي عليه وهي تنصام في دراما العلة والمعلول إلا أن البشرية تطورت إلى أكبر مما كانت عليه . إن برهان التطور والخبرة الشخصية ، يقنعنا بأن الانسسان قد صار أكبر من أسلافه . وقد علق ول ديورانت على الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون الذي عاش في القرن التاسع عشر الذي جرف قضية الجبر إلى اللا معقول ، فقال :

وأخيرا هل بات مذهب الجبر أكثر وضوحا من مذهب الإرادة الحرة ؟ إذا لم تتضمن اللحظة الحاضرة اختيارا حيا وخلاقا ، وصارت كلية وتلقائية نتاجا لموضوع البحث وحركة اللحظة السابقة ، إذن فقد كانت تلك اللحظة هي التأثير التلقائي للحظة التي سبقتها ، وهذه أيضا نتاج لما سبقتها . وهكذا ، حتى نصل إلى السديم الأزل الموهل في القدم ، كسبب كل لكل حدث تال ، لكل سطر من مسرحيات شكسبير ، وكل معاناة نفسية عاش فيها ، حتى بلاغة كل من هاملت وعطيل وماكبث ولير ، في كل جملة وكل فقرة . . . كلها قد كتبت في السموات البعيدة والأزمنة السحيقة . مع تكوينات ومحتويات تلك السحابة الأسطورية . يالها من مسودة للسداجة . . . لقد كانت هناك مادة كافية للثورة هنا ، وإذا قلز برجسون إلى الشهرة بأقصى سرعة فذلك لأنه كان لديه الشجاعة لأن يشك فيما آمن به كل الشكاكين (٣) .

وتكمن الإجابة ليس في تفنيد طبيعة العلة والمعلول ، وأثرها على الانسان من جهة السلوك ، بل في البحث عن السبب في كل مكان وزمان ، وليس فقط في الماضي . ان الانسان يفعل ما يفعله لأسباب مؤكدة ، ولا تعود جميع هذه الأسباب إلى الماضي . وقد سئلت في مقابلة تليفزيونية عن السبب الذي جعل تشارلس هويتمان يتسلى برجا في جامعة تكساس ويطلق الرصاص على أهداف من الناس الذين على الأرض أسفله . وبعد استعراض عدد من الأسباب الممكنة مثلت : « ولكن لماذا يفعل بعض الناس أشياء من هذا القبيل بينما الآخرون لا يفعلون ؟ ولا يزال السؤال ماثلا . إذا كان موقفنا هو أننا ببساطة لانعرف الكفاية عن التاريخ الماضي بالنسبة

(٣) Will Durant, "The story of Philosophy", (New York : Simon & Schuster, 1933, pp. 337-338).

للفرد ، اذق فائنا لانزال في نفس الموقف القائل بأن الاجابة تكمن في الماضي.
في مكان ما •

وعلى اية حال فان هناك فارق ضروري بين الانسان وكرة البلياردو ،
فالانسان قادر من خلال التفكير على النظر الى المستقبل ، انه يتأثر بطراز
آخر من نظام السببية ذلك الذي يطلق عليه تشارلس هارتشورن اسم :
« السببية الردفعية reactive causation » (٤) •

ويشرح التون تروبلاد هذه النقطة بافترض ان اسباب السلوك
الانساني تكمن ليس فقط في الماضي بل في قدرة الانسان على تأمل المستقبل.
أو تقدير الاحتمالات :

ان العقل الانساني يعمل الى حد كبير وهو ينظر الى الاسباب.
النهائية ، وهذا امر شديد الوضوح للدرجة انه قد يبدو من غير المستطاع
استخدام القياس التمثيل للسببية بكرة البلياردو ، وبالطبع فان كرة
البلياردو تتحرك مبدئيا حسب السببية المؤثرة ، ولكن الانسان يعمل
ب طريقة مختلفة تماما • ان الانسان مخلوق ينشغل حاضره دائما بالعودة
الى الا موجود ، ولكنه على الرغم من ذلك قوى وينظر الى المستقبل • ان
غير الوجود يؤثر في الوجود • انني اواجه مشكلة صعبة ولكن المخرجات
ليست بالضرورة ، نتيجة لمجموعة من القوى الميكانيكية ، التي تصدق
بالنسبة للجسم الطبيعي ، وبدلا من ذلك اظن ، ومعظم تفكيري ينصب على
ما يمكن ان ينتج بشرط امكانية اتخاذ بعض الخطوات (٥) •

ويعرف أورتيجا الانسان بأنه « كائن لايتكون من الكثير مما هو عليه ،
مثلا يتكون مما سيكونه فيما بعد » (٦) •

ويقول تروبلاد :

• لا يكفي ان نقول ان المخرجات محددة حتى بشخصية الانسان.
في الماضي ، لان الحقيقة فيما سنتقاسمه هي ان البدعة الاصلية يمكن ان
تنبت من فعل التفكير • ان التفكير كما نمارسه يوميا ، ليس بالضرورة

See, "Causal Necessities, an Alternative to Hume, The Phil- (٤)
losophical Review, 63 (1954), pp. 479-499.

Trueblood, General Philosophy. (٥)

J. Ortega Y. Gasset, "What is Philosophy." (٦)

مجرد ادراك الفعل ، مثلما يلج مذهب الظواهراتية epiphenomenalism
ولكنه سبب حقيقى وخلاق • ان شيئا يحدث عندما يفكر
الانسان ، وهو شيء لا يمكن ان يحدث ان لم يفكر فيه الانسان وهذا
هو ما نعينه باعتبار السببية الذاتية self-causation احتمالا ثالثا
اصيلا ضمن احتمالات المشكلة التي تحدثنا دائما (٧) •

وعلى ذلك فافتنا نرى أن « الراشد » هو المكان الذي يستقر فيه
الفعل ، وفيه يسكن الأمل ، وفيه أيضا يمكن أن يحدث التغيير •

الفصل الخامس

تحليل المعاملات

(لأنى لست أعرف ما أنا عمله - القديس بولس فى رسالته الى أهل رومية - ٧ : ١٥)

الآن وقد وضعنا أساسا لحديثنا ، نأتى الى الجانب الفنى الذى يتركز حوله ، وهو استخدام لغة الحديث لتحليل المعاملة : تتركب المعاملة من حافز أو مثير من شخص ، واستجابة من شخص آخر ، والاستجابة تصبح بدورها حافزا جديدا للشخص الأول لكى يستجيب لها . والفرض من التحليل هو : اكتشاف أى عناصر الانسان - « الوالد » أو « الراشد » ، أو « الطفل » هو منشأ كل مثير واستجابة .

وهناك اشارات عديدة تساعدنا على تحديد المثير والاستجابة مثل : « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » . وهذه بدورها لا تتضمن الكلمات المستعملة فقط ، بل أيضا نبرة الصوت وإيماءات الجسم وتعبيرات الوجه . وكلما صرنا أكثر مهارة فى التقاط هذه الاشارات ، كلما اكتسبنا معلومات أكثر فى تحليل المعاملات . وليس علينا أن نفحص فى أحداث الماضى لاكتشاف ما هو مسجل فى « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » لأننا نكتشف هذه العوامل فى أنفسنا يوميا . وتقدم فيما يلى قائمة بالاشارات البدنية واللفظية لكل حالة :

اشارات الوالد : البدنية : تقطيب الجبين - زم الشفتين - التلويح
باصبع السبابة - مز الرأس - النظرة المربعة - النقر بالقدم - وضع اليد
فى النخصر - شبك الذراعين على الصدر - التريبت على الرأس - فرقة
اللسان - التأوه - عصر اليدين . وتلك هى ايماءات « الوالد » التى تخص
« والد » الشخص . وعلى سبيل المثال ، اذا كان لدى أهلك عادة تسليك
حلقة والنظر الى السماء فى كل مرة كان يدلى فيها بتعليق حول سلوكك
الردى ، فان هذا السلوك سيظهر بلا شك كلازمة خاصة بك عند كل
تعليق « والدى » ، حتى اذا لم يكن ذلك مرثيا - « كوالد » ، فى معظم
الناس . وايضا هناك اختلافات ثقافية . وعلى سبيل المثال ، فان الناس
فى الولايات المتحدة يزفرون عندما يتشاءبون ، بينما الناس فى السويد
يشهقون عندما يتشاءبون .

اشارات الوالد : اللفظية : سأضح جدا نهائيا لهذا ، ان هذا فوق
طاقتى ، والآن تذكر دائما . . (دائما ، وأبدا ، وغالبا : هذه كلها كلمات
« الوالد » التى تكشف محدودية النظام القديم الذى أغلق أمام المعلومات
الجديدة) . كم مرة قلت لك ؟ لو كنت مكانك . . . وقد تفصح الكثير
من كلمات التقييم سواء كانت انتقادية أو مؤيدة ، عن هوية « الوالد »
اذا كانت تقدم حكما على آخر ، مؤسسا على الاستجابات التلقائية القديمة
لا على تقييم الراشد . والامثلة على هذه الانواع من الكلمات هى : غبى ،
شقى ، منير للاستهزاء ، مقزز ، منير للاستفزاز ، أحمق ، كسول ، تافه ؛
سخيف ، عديم القيمة ، منير للشفقة ، لا ! لا ! يا ابنى العزيز (بلهجة
بائعة متشددة) ، كيف تجرؤ ، شاطر ، هات من الآخر . مرة أخرى ،
من المهم أن تحفظ فى ذهنك أن هذه الكلمات ليست الا مفاتيح اشارة ،
وليسست استنتاجات حاسمة . وقد يقرر « الراشد » بعد تفكير عميق ،
على أساس نظام « الراشد » الأخلاقى ، أن أشياء معينة غبية ومثيرة
للاستهزاء ومقززة ومثيرة للاستفزاز . وهناك كلمتان هما : يجب ،
ويحتتم ، غالبا ما يفضح استخدام أى منهما حالة « الوالد » ، ولكن وكما
سيرد فى الفصل الثانى عشر ، فان كلمتى : يجب ، ويحتتم - يمكن أيضا
أن تكونا بين كلمات « الراشد » . انه الاستخدام التلقائى القديم
وبلا تفكير - لهذه الكلمات التى توضح عمل « الوالد » . ان استخدام
هذه الكلمات مع ايماءات الجسد ، وسباق المعاملات ، يساعدنا على
تعريف « الوالد » .

اشارات الطفل : البدنية : حيث أن استجابات الطفل المبكرة للعالم
الخارجى كانت غير لفظية ، فان أوضح اشارات « الطفل » تظهر فى

التعبيرات البدنية • وأى من الاشارات التالية يشير الى انفاس « الطفل »
 • فى المعاملة : السموع ، ارتعاش الشفة ، التبويز والنبرة العالية ، والتسوج
 الحركى ارتفاعا وانخفاضا ، والصوت الممتزج بالأنين ، والعينان الزائفتان ،
 والكتفان المهترزان بلا مبالاة ، والعينان المنكسرتان ، والمزاح ، والفرح ،
 والضحك ، ورفع اليدين للاستئذان فى الكلام ، وقضم الاظافر ، والتلوى ،
 والقهقهة .

اشارات الطفل : اللفظية : كلمات عديدة ، بالاضافة الى الكلمات
 الطفولية ويمكن أن نتعرف عليها ومنها : أرغب ، أريد ، لا أعرف ، سافعل ،
 لا أهتم ، أخمن ، عندما أكبر ، أكبر ، الأكبر ، أحسن ؛ الأحسن ؛
 (تتولد صيغ تفضيل عديدة فى الطفل مثل « قطع اللعب » فى لعبة
 « لعبتى أفضل » ؟ • وبنفس الروح نجد كلمات مثل « انظرى ياماما
 » اختلفت يداى « التى يقولها لى يهر « الوالد » وللتغلب على حالة
 « لست على مايرام » •

وهناك مجموعات اخرى من الكلمات التى تقال باستمرار عن طريق
 الصغار ولكنها ليست اشارات « للطفل » بل تشير أكثر « للراشد »
 الذى يعمل فى الشخص الصغير ، وهذه الكلمات هى : لماذا ؟ وماذا ؟
 وأين ؟ ومتى ؟ ومن ؟ وكيف ؟

اشارات الراشد : البدنية : ماذا يشبه « الراشد » ؟ اذا حولنا جهاز
 الفيديو عن شريط « الوالد » و « الطفل » فماذا سيظهر لنا على الشاشة ؟
 هل سيظهر وجه فارغ - أم عطوف ؟ أم بليد ؟ أم قاف ؟ يقول ارنست (١) :
 « ان الوجه الخالى من التعبير لايعنى وجه « الراشد » ، وهو يلاحظ أن
 الانصات الى « الراشد » يتحدد بالحركة المستمرة - للوجه والعينين
 والجسم ، مع رمشة العين كل ثلاثة الى خمسة ثوان • أما عدم الحركة
 فبمعنى الانصات • ويقول ارنست : « ان وجه « الراشد » معتدل ، واذا
 مالت الرأس ، يكون الشخص منصتا بزاوية فى العقل ، ويسمى « الراشد »
 أيضا « للطفل » المتعجب المستغرب بأن يطل بوجهه •

اشارات الراشد : اللفظية : وكما ذكرنا من قبل ، فان الكلمات
 الأساسية لدى « الراشد » تتكون من : لماذا ؟ وماذا ؟ وأين ؟ ومتى ؟ ومن ؟
 وكيف ؟ والكلمات الأخرى هى : بكم ؟ وبأى طريقة ؟ ونسبيا ، وحقيقيا ،

(١) محاضرة العام F. Ernest عن « الاسماع » بمعهد تحليل الملامح ،
 ساكرامنتو بكاليفورنيا يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩٦٧ •

وزائف ، ومحتمل ، وممكن ، وغير معروف ، وموضوعي ، وأطن ، وأرى :
 وأنه رأيي ... الخ . وكل هذه الكلمات تشير الى نشغيل بسانات
 « الراشد » . وفي عبارة « انه رأيي » قد يكون الرأي مشتقا من « الوالد »
 ولكن المتحدث هو « الراشد » اذ أنه يعرف أن ذلك رأي وليس حقيقة .
 « من رأيي أنه يجب منح طلبة المدرسة العليا حق التصويت » . وهذه
 العبارة ليست هي نفس العبارة القائلة : « يجب أن يمنح حق التصويت
 لطلبة المدرسة العليا » .

وبهذه الاشارات التي تساعدنا ، نستطيع أن نبدأ في تعريف
 « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » في المعاملات التي ندمج فيها نحن
 والآخرون (*) .

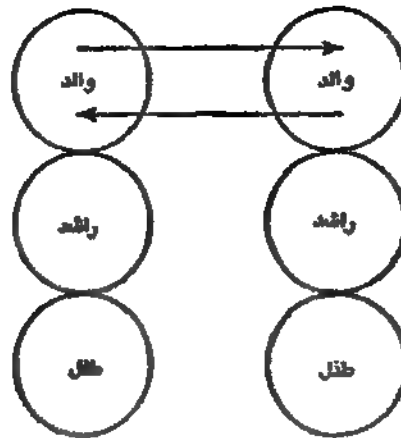
واى موقف اجتماعي يحفل بالأمثلة لكل نوع من المعاملات التي
 يمكن تصورها . ومنذ عدة سنوات مضت ، أنفقت يوما كاملا في اتوبيس
 أثناء سفرى الى بيركل ، ولاحظت عددا من المعاملات . كانت الاولى متبادلة
 بين « والد » و « والد » (شكل رقم ٩) جرت بين مسيدين عابستين .
 جالستين احدهما بجوار الأخرى في مواجهة . وكأنا نتحدثان في فلسفة
 عميقة حول النقطة الخاصة بما اذا كان هذا الاتوبيس سيصل الى بيركل
 في موعده أم لا . وقد أدارتا بمعرفة عظيمة وإيماءات مشجعة بالرأس .
 حوارا طويلا بدأ بالمعاملات التالية :

السيدة الأولى : (تنظر الى ساعتها وتملؤها وتهيم ، وتنظر الى السيدة
 التي بجانبها ، ثم تنهد في ارهاق) .

السيدة الثانية : (ترد التنهد ، وتترجح في غير راحة ، وتنظر الى
 ساعتها) .

السيدة الأولى : يبدو أننا سنتأخر مرة أخرى .

(*) لا شك أن الاشارات التي أوردتها المؤلف في هذا الفصل تمثل نموذجاً على
 سبيل المثال وليس الحصر لتلك المستعملة في الانجليزية وليست بالضرورة هي نفسها المستعملة
 في العربية خاصة اللهجات المحلية أو العامية ، ليس هذا فقط بل أن الاشارات بشكل عام
 تختلف من قطر الى قطر ومن شعب الى شعب من حيث الماني والدلالات والتوقعات . ورغم
 ذلك أوردنا الاشارات الواردة في اللتين لارتباطها بماتى إيحائية معينة في الألعاب وتحليل
 للمعاملات . ونوصي القارئ بأن يعود في هذا الخصوص الى الفصل الخاص بالاشعارات
 الاجتماعية - في كتاب : علم النفس الاجتماعي - للدكتور عبد الحليم محمود - الأسناذ بكلية
 الآداب جامعة القاهرة - للرجم .



شكل رقم ٩ - معاملة بين (والد - والد)

السيدة الثانية : انك لا تخطئين أبدا .

السيدة الأولى : هل رأيت في حياتك كلها أتوبيسا يصل في موعده ؟

السيدة الثانية : أبدا .

السيدة الأولى : هذا هو نفس ماكنت أقوله لهبربرت هذا الصباح - انك لن تحصل مرة أخرى على خدمة مثل أيام زمان .

السيدة الثانية : انك على حق تماما . انها سمة من سمات العصر .

السيدة الأولى : ولكنها مضيعة للعمر ، وأى ضياع .

هذه المعاملات متبادلة ما بين « والد » و « والد » وعلى ذلك فهي تعضى بدون استفادة من البيانات ، وهي تشبه ذلك النوع من الأحاديث الذي سمعته حينما كائنا طفلتين من والدتيهما وعماتهما وهما يتحدثان عن ركوب الأتوبيس في الزمن الماضي . وقد استمعت السيدتان باستعادة الذكريات ، أكثر من الاستمتاع المنتظر فيما لو كائنا قد ذكرنا الحقائق ، وهذا بسبب الاحساس الطيب الذي يأتي من اللوم والبحث عن الأخطاء . عندما نلوم ونبحث عن الأخطاء ، نستعيد اللوم المبكر وعمليات تصيد الأخطاء ، المسجلة في « الوالد » وهذا يجعلنا نحس بأننا على مايرام ، لأن « الوالد » على ما يرام ، ونحن نتفق مع « الوالد » ، أما الاهتداء الى شخص يوافقك ويلعب معك اللعبة ، فانه ينتج احساسا بالقدرة على كل شيء .

بدأت السيدة الأولى الحركة الأولى ، وكان يمكن للسيدة الثانية أن
توقف اللعبة لو أنها أجابت عن أى نقطة بعبارة من « الراشد » على أى من
عبارات السيدة الأولى :

السيدة الأولى : (تنظر الى ساعتها وتملؤها وتهتمهم ، وتنظر الى السيدة
التي بجانبها ، وتتهند في ارهاق) •

احتمالات اجابة « الراشد » :

١ - تجاهل التنهد بالنظر بعيدا •

٢ - ابتسامة بسيطة •

٣ - (اذا كانت السيدة الاولى متضايقه بها فيه الكفاية) : هل انت
على ما يرام ؟

السيدة الأولى : يبدو أننا سنتأخر مرة أخرى •

احتمالات اجابة « الراشد » :

١ - كم الساعة الآن ؟

٢ - هذا الاتوبيس يصل عادة في موعده •

٣ - هل تأخرت قبل ذلك ؟

٤ - سأسأل عن ذلك •

السيدة الأولى : هل رأيت في حياتك كلها اتوبيسا يصل في موعده ؟

احتمالات اجابة « الراشد » :

١ - نعم •

٢ - أنا لا أركب الاتوبيس عادة •

٣ - لم أفكر في ذلك مطلقا •

السيدة الأولى : هذا هو نفس ماكنت أقوله لهيربرت في هذا الصباح •
انك لن تحصل مرة أخرى على خدمة مثل أيام زمان • •

احتمالات اجابة « الراشد » :

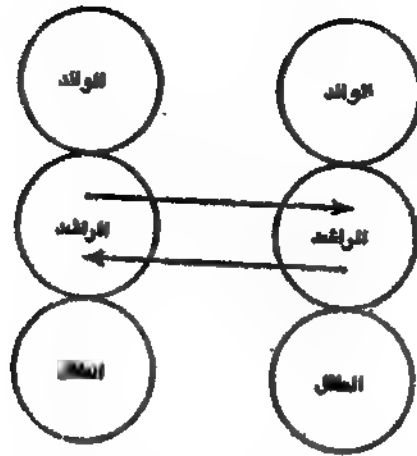
- ١ - أنا لا أوافق على ذلك .
- ٢ - أى خدمة تقصدين ؟
- ٣ - ان مستوى المعيشة مرتفع أكثر من أى وقت آخر ، حسب ما أراه .
- ٤ - ليس عندي مبرر للشكوى .

هذه الاجابات البديلة تنتمى الى « الراشد » ولكنها ليست تكميلية . ولا يرحب من يستمتع بلعبة « اليس ذلك مخيفا ؟ » بتدخل الحقائق . وإذا كانت مجموعة من الزوجات يستمتعن كل صباح بالحديث حول « الأزواج الأغبياء » فانهن لن يرحبن بالجارة الجديدة التى تعلن فى سعادة أن زوجها جوهرة .

ويأتى بنا ذلك الى القاعدة الأولى من قواعد الاتصال فى تحليل المعاملات ، عندما يتوازى الدافع والاستجابة فى نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) للمعاملات ، يصبح التعامل تكميليا ، ويستطيع أن يمشى الى أجل غير مسمى . ولا يعنينا السبيل الذى يمشى فيه الموجهون (والد - والد ، أو : راشد - راشد ، أو : طفل - طفل ، أو : طفل - راشد) اذا كانوا متوازين .

ان السيدتين الأولى والثانية لم يكن كلامهما معقولا من جهة الحقائق ، ولكن حوارهما كان تكميليا واستمر حوالى عشر دقائق . ان « الاسى المبتع » للسيدتين انتهى عندما سأل الرجل الذى أمامهما السائق عما اذا كانوا سيصلون الى بيركل فى الموعد المحدد من عنده . فقال السائق : (« نعم » فى الحادية عشرة والرابع) . وكانت هذه أيضا معاملة تكميلية بين الرجل والسائق « راشد - راشد » (شكل رقم ١٠) كانت اجابة مباشرة على سؤال مباشر لطلب المعلومات . ولم يكن هناك عنصر « الوالد » (هل يمكن أن نصل الى بيركل فى الميعاد ، ولو مرة واحدة ؟) وبدون عنصر « الطفل » (لا أعرف لماذا يحدث دائما أثنى أستقل أبطاً الاوتوبيسات) . انه تغيير غير انفعالى . وهذا النوع من المعاملات يحصل على الحقائق .

وكان هناك خلف السيدتين ، شخصان آخران يرسم نشاطهما نوعا آخر من التعامل هو « طفل - طفل » . كان لأحدهما وجه مبعد الشعر ،



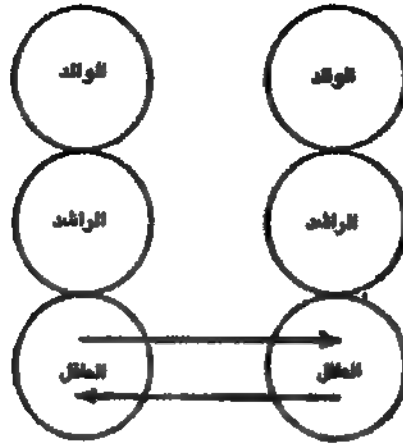
شكل رقم ١٠ - معاملة بين (راشد - راشد)

وكان بالتأكيد يبدو كطفل يشعر أشعث ومرتديا بملابس سوداء ومغطى بالتراب ، وفوقه جاكيت أسود من الجلد . أما المراهق الآخر فقد كان يرتدى ملابس مشابهة مع نظرة خلاعة مفتتحة . وكانا كلاهما منهيكين في قراءة نفس الكتاب ذي الغلاف الرقيق ، وعنوانه : أسرار طقوس التعذيب . ولو كان هناك اثنان من القساوسة منكبين على نفس الكتاب - لتطوع الانسان بالقول أنهما يبحثان عن معلومات « الراشد » حول هذا الموضوع الغريب ، ولكن بمراقبة هذين المراهقين يأخذ الانسان على عاتقه القول بأن هذا كان تعامل « طفل - طفل » . انهما بذلك ينغمسان الى حد ما في نفس القسوة التي يجدها صغيران في سن الخامسة ، عندما يكتشفان كيفية خلع أجنحة الذباب . لنفترض أن المراهقين قد تصرفا حسب معلوماتهما الجديدة ووجدوا سبيلا لتعذيب شخص ما كما هو مبين في الكتاب . لن يكون هناك تفذية « الراشد » بالمعلومات (عدم فهم النتائج) أو تفذية « الوالد » بالمعلومات (من المفزع عمل شيء كهذا) .

وحتى اذا تحول التعامل الى أسوأ بالنسبة لهما (وصول البوليس - أو الأم في حالة طفلي الخامسة اللذين يخلعان أجنحة الذباب) فإن الشخصين المندمجين في المعاملة نفسها ، سيكونان على توافق ، ولذلك فالمعاملة هنا تكميلية « طفل - طفل » (شكل رقم ١١) .

صور إضافية للمعاملات التكميلية :

معاملة « والد - والد » : (أنظر شكل رقم ٩) :



شكل رقم ١١ - معاملة بين (طفل - طفل)

- الحافظ : ان واجبها هو البقاء في المنزل مع الصغار .
- الاستجابة : من الواضح أنه ليس لديها احساس بالواجب .
- الحافظ : من المتير للاسمتزاز تلك الطريقة التي تفدى بها الضرائب كل هؤلاء التافهين من جيوبنا .
- الاستجابة : الى ماذا سيؤول الامر ؟
- الحافظ : اولاد هذه الايام كسالى .
- الاستجابة : انها من علامات الزمان .
- الحافظ : سأستاصل هذا الشر الى الابد .
- الاستجابة : على بركة الله ، عليك أن تتفدى على الفساد في مهده .
- الحافظ : أنت تعرف أن هذا غير مشروع .
- الاستجابة : أوه . ذلك يفسر ما حدث .
- الحافظ : فصل جون . كيف يجروون على عمل مثل هذا الشيء ؟
- الاستجابة : « يستاهل » يا عزيزى . أنا لا أعرف لماذا عمل لدى تلك الشركة الغبية من الأول .
- الحافظ : لقد تزوجته من أجل ماله .

- الاستجابة : حسنا • هذا هو كل ما حصلت عليه •
- الحافز : لا تستطيع أبدا أن تتق بأحد هؤلاء الناس •
- الاستجابة : تماما ! انهم جميعا متشابهون •
- معاملة « راشد - راشد » : (أنظر شكل رقم ١٠) :
- الحافز : كم الساعة ؟
- الاستجابة : ساعتى تقول : الرابعة والنصف •
- الحافز : هذه بداية جيدة الشكل •
- الاستجابة : أشكرك •
- الحافز : هذا الحبر الجديد يجف بسرعة •
- الاستجابة : هل هو أغل من النوع الآخر •
- الحافز : من فضلك ناولنى الزبد •
- الاستجابة : هاك الزبد •
- الحافز : ما هذه الرائحة الطيبة ، يا عزيزى ؟
- الاستجابة : فطائر القرفة فى الفرن ... انها جاهزة تقريبا •
- الحافز : لا أعرف ماذا أفعل • لا أستطيع أن أقرر ما هو صواب ؟
- الاستجابة : لا أظن أن عليك محاولة صنع قرار عندما تكون شديد التعب •
- لماذا لا تذهب الى السرير وستحدث عنه فى الصباح •
- الحافز : اعتقد أنها تمطر •
- الاستجابة : هذا هو ما يقوله التنبؤ الجوى •
- الحافز : العلاقات العامة احدى وظائف الادارة •
- الاستجابة : تعنى أنه لا يمكن ترتيبها من خلال احدى الوكالات •
- الحافز : السفينة لورلاين ستبحر فى الساعة الواحدة يوم الجمعة •
- الاستجابة : ما الوقت الذى علينا أن نكون فيه هناك ؟
- الحافز : يبدو جون متعبا مؤخرا •
- الامتجابة : لماذا لا ندعوه للغداء ؟

الحافظ : أنا متعب .

الاستجابة : لنذهب للسرير .

الحافظ : أرى أن الضرائب سترتفع هذا العام مرة ثانية .

الاستجابة : حسنا . ليست هذه بالأنباء الطيبة . ولكن إذا كنا سنستمر في الصرف ، فعلى أن نحصل على النقود من مصدر آخر .

معاملة « طفل - طفل » : (انظر شكل رقم ١١) :

يظهر أن هناك القليل من الألعاب الحرة التي تدور حول معاملة « طفل - طفل » التكميلية . هذا لأن الطفل مخلوق يطلب الحنان أكثر من أن يعطيه . ويقيم الناس العلاقات للحصول على الحنان . قال برتراند راسل : « لا يستطيع الإنسان أن يفكر بقوة من منطلق الاحساس المجرد بالواجب أريد نجاحا قليلا من وقت لآخر للمحافظة على مصدر للطاقة (٢) » .

وبدون الفماس « الراشد » في المعاملة لن يحصل أن شخص على حنان أو مديح ، وتصبح العلاقة غير تكميلية أو تموت من الملل .

وتعتبر حركة الهيبيز (*) نموذجا اجتماعيا واقتصاديا لهذه الظاهرة إذ يحب هؤلاء الصغار الذين في عمر الزهور ، حياة يمارسون فيها معاملة « طفل - طفل » ولكن الحقيقة المفزعة بدأت تظهر : ليست هناك متعة في عمل ما تريد إذا كان كل شخص لا يجد المتعة إلا في عمل الشيء الذي يريده . وهم باستئصال المؤسسة ، استأصلوا « الوالد » أي عدم الموافقة و « الراشد » أي الواقع المألوف ، ولكنهم مع استئصال عدم الموافقة هذا ، وجدوا أنهم قد استأصلوا أيضا مصدر المديح (قد يقرر اثنان عمر

B. Russell, "The Autobiography of Bertrand Russell", (٢)
(Boston : Little Brown, 1967).

(*) الهيبيز : حركة شبابية ماركسية ظهرت بالولايات المتحدة الأمريكية في السبعينيات ، خرج الأفراد على نماذج السلوك المادية في المجتمع الأمريكي ، وعبروا عن معارضتهم بارتداء ملابس غير عادية ، والعيش مما في جنبات ، وكان بعضهم يتناول الغذاء المخدرة لاستجلاب المتعة . وقد انتشرت هذه الحركة في مجتمعات أخرى ، ووصلت إلى المجتمع المصري ، ولكنها اندثرت بسرعة لأن مجتمعا لم يستطع أن يهضمها كما أن شبابنا لم يتجاوب معها أو يستسيغها لأنها لم تكن أصيلة بل بدعة مسعورة . وسيقوم المؤلف هنا بمناقشة حياة أفراد هذه الحركة من منطلق تحليل المأمولات لتلبرج .

كل منها أربع سنوات أن يهربا من البيت ، ولكنهما يتخيلان عن الفكرة عندما يفكران أنه من الأفضل الحصول على فح من الايس كريم . وهذا يستدعى وجود الأم) . ان الصغيرين اللذين في عمر الزهور كانا يبحثان عن الحنان ، ولكن الأمر صار أكثر وأكثر موضوعية ويدون معنى . قال الولد للبنت : « اننى أحبك طبعاً . اننى أحب كل شخص ! » وعلى ذلك فقد بدأت الحياة تستقر بأصاليب للمدعية أكثر وأكثر بدائية . منها هذا الحنان القريب (الهروب بتعاطي المخدرات) والنشاط الجنسي المستمر . ويمكن للجنس وحده أن يكون نشاطاً « طفل - طفل » طالما أن الحافز الجنسي تسجيل وراثي في « الطفل » ، مثل كافة الحوافز البيولوجية الأخرى . وأكثر أنواع الجنس جلباً للسعادة يزداد على أية حال عندما يوجد في « الراشد » عناصر الرعاية واللفظ والمسئولية نحو مشاعر الآخرين . وليس كل الهيبز مجردين من هذه القيم ، كما أنهم ليسوا جميعاً مجردين من « الوالد » و « الراشد » فالكثيرون منهم يعيشون على أية حال - على أساس مبدأ البحث عن الذات ، ويبحث كل منهم لدى الآخر - من وجهة نظر خاصة - عن الحافز الجنسي .

اننا نكتشف في علاقات الهيبز السعيدة أو صداقات الطفولة المليئة باللهو ، أنها لا تقتصر على علاقات « طفل - طفل » بل تنطوي على بيانات « الراشد » وقيم « الوالد » أيضاً . وعلى سبيل المثال ، اليك هذا الحوار بين فتاتين صغيرتين تلعبان :

« الفتاة الأولى » « طفل » : سأمثل دور الأم وأنت تمثلين دور الفتاة الصغيرة .

« الفتاة الثانية » « طفل » : لماذا يتحتم أن أكون الفتاة الصغيرة دائماً !

« الفتاة الأولى » « راشد » : حسناً . دعينا نتبادل الأدوار . أنت تمثلين دور الأم أولاً ، وفي المرة الثانية سأكون أنا الأم .

وهذا التبادل لا يمثل معاملة « طفل - طفل » لأن منخلات « الراشد » (حل المشاكل) ظاهرة في العبارة الأخيرة وكذلك فإن العديد من معاملات الأطفال الصغار تأخذ صورة « راشد - راشد » ، بالرغم من أنها قد تبدو « طفولية المظهر » بسبب نقص المعلومات .

الطفلة الصغيرة : انظروا ، انظروا ! لقد فقت « بازي » (القطة) إحدى أسنانها .

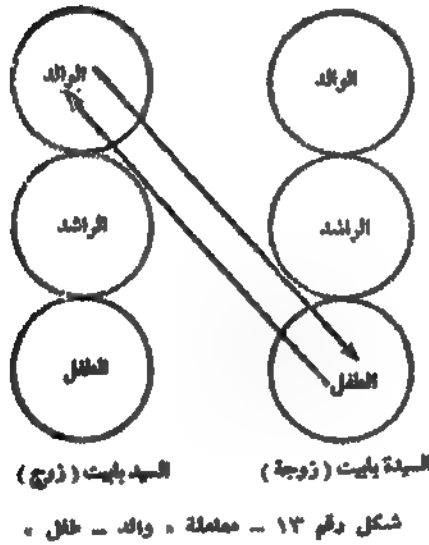
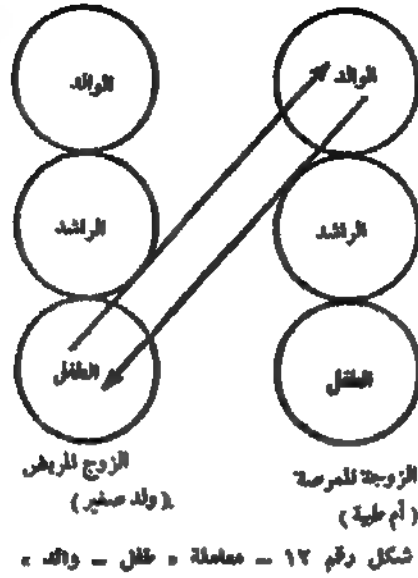
الأخت : هل ستعطيه الشمس « سنة العروسة » ؟

ان كلا من الحافز والاستجابة يعبران عن « الراشد » : انهما عبارتان ساريتا المفعول على أساس المعلومات المتوفرة . انها عملية تصنيف جيدة للمعلومات . المعلومات الخطأ . ويمكن ملاحظة معاملات « طفل - طفل » التكميلية فيما يفعله الأشخاص معا أكثر مما يقوله الواحد للآخر ، وهذا صحيح بالنسبة للصغار . ان الفتى والفتاة اللذين يتشبث كل منهما بالآخر وهما يركبان أرجوحة سريعة خطرة ويصرخان ويصيحان ملء شديقيهما ، انما يؤديان معاملة « طفل - طفل » . ويمكن القول بأن الممثلين المعروفين باسم : تاجليافيني وتاسيناري ، وهما يؤديان الفصل الثالث من أوبرا ميفيستوفيل « غناء نثائيا أي دويتو » - انما يؤديان دورا مكثفا لمعاملة « طفل - طفل » . ويمكن القول بأن الجدة والجدلة اللذين يسيران عاريا الاقدام على شاطئ البحر - انما يؤديان دور معاملة « طفل - طفل » ، ولكن « الراشد » هو الذى يرتب مثل هذه التجارب السعيدة . لقد دفع الصبيان نقودا لدخول مدينة الملاهى وركوب الأرجوحة كذلك تدرب المغنيان سنوات طويلة لاتقان أداء هذا الغناء الباعث للنشوة . أما الجدة والجدلة فقد تقاسما لذة أن يكونا معا ، تلك التى صارت مستطاعة مع حياة العطاء والآخر . ان العلاقة بين الناس لا يمكن أن تستغرق وقتا طويلا بدون « الراشد » - وعلى ذلك فقد نقول أن معاملات « طفل - طفل » تدوم باذن واشراف « الوالد » وعندما لا يكون « الوالد » « مراقبا » ، يكسر « الطفل » عن أنيابه فى معاملات متقاطعة ، سنقوم بوصفها فيما بعد فى نفس هذا الفصل .

معاملة « والد - طفل » :

تعتبر المعاملة ما بين « والد - طفل » (شكل رقم ١٢) طرازاً من المعاملات التكميلية . الزوج (طفل مريض بالحمى ، ويريد العناية . الزوجة (والدة) تعرف مدى احساسه بالمرض وترغب فى مراعاته مثل الأم ، ويمكن لهذه المعاملة أن تستمر بطريقة حسنة طالما كانت الزوجة راغبة فى أداء دور الأم .

وتنتمى بعض الزوجات الى هذا النوع . اذا أراد الزوج أن يلعب دور « الولد الصغير » ورغبت زوجته فى أن تكون « والدة » ، تتحمل مسئولية كل شئ وترعاه ، فان هذا الزواج يمكن أن يكون مجزيا طالما أنه لم تبد أية رغبات فى تغيير الدور . واذا تجاوز الواحد أو الآخر هذا الترتيب ، فان العلاقة المتوازنة تنقسم ، وتبدأ المتاعب . وقد صورنا فى



شكل رقم ١٣ معاملة تكلميلية بين جورج ف . بابيت (والد) والسيدة بابيت (طفل) :

مستر بابيت (وهو ينظر الى الجريدة) : « اخبار كثيرة » اعصار
رهيب في الجنوب . حظ سيء ، حبيسنا ، ولكن هذا يقول :

هذا كلام فارغ . بداية النهاية لهؤلاء الرفاق ! مجلس مدينة نيويورك
أجاز بعض القوانين التي ستجزم الاشتراكيين ! وهناك اضراب لعمال
المصاعد في نيويورك . وعدد كبير من طلبة الجامعة يحلون محلهم . هذا
هو الكلام ! واجتماع عام في برمنجهام طالب بطرد هذا المصاغب الايرلندي
المدعو دي فاليرا . عين الصواب . يا للعجب ! جميع هؤلاء المشاغبين دفع
لهم الذهب الألماني بطريقة ما . وليس لنا ما نعمله للتدخل مع الايرلنديين
أو أى حكومة أجنبية أخرى لننفض أيدينا نهائيا ، وهناك اشاعة جيدة
الحبكة من روسيا تقول أن لينين قد مات . هذا حسن . لا أستطيع أن
أفهم لماذا لا نخطو الى هناك ونطرد هؤلاء البلشفيك خارجا .

السيدة باييت : « وهو كذلك » (٣)

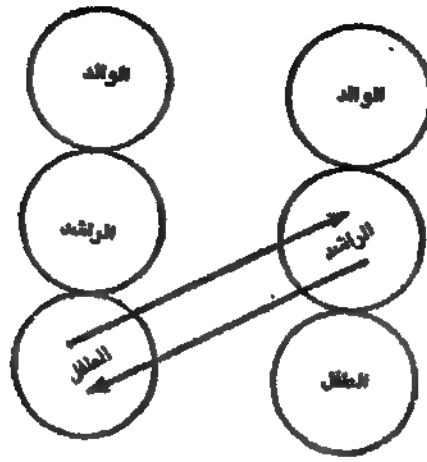
معاملة « طفل - راشد » :

المعاملة بين « طفل - راشد » تمثل نوعا آخر من المعاملات التكميلية
(شكل رقم ١٤) . شخص واقع تحت ضغط مشاعر انه ليس على مايرام ،
قد يبد يده الى شخص آخر طالبا تأكيدات حقيقية . ربما يخشى زوج
مجاوبة عمل وشيك الحدوث ، يعتمد عليه للحصول على ترقية ، وحتى
مع كفائه له من جميع النواحي ، الا أنه منقل بحمل بيانات « الطفل »
الموجودة في الحاسب . « لن أنجح في القيام به » ولذلك فهو يقول
لزوجه :
« لن أنجح في القيام به » . على أنها قد تعيد عليه ذكر الأسباب
الواقعية التي تجعل في قدرته القيام به اذا لم يدع « طفله » الذي يشعر
أنه ليس على مايرام ، يضيع فرصته في النجاح . انه يعرف أن لديها
« راشد » طيب وهو « يستمير » عندما لا يكون « راشده » على مايرام ،
وتكون استجابتها مختلفة عن استجابة « الوالد » التي لا بد وأن تكون
مؤكدة حتى اذا لم تتوفر للوالد البيانات الواقعية أو قد تتجاهل مشاعر
« الطفل » ببساطة : « طبعا مستقوم به ، لا تكن أحمقا ! » .

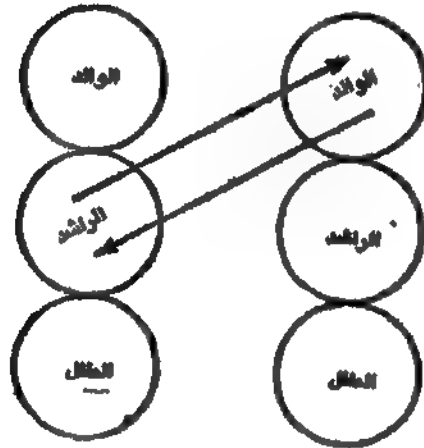
معاملات « راشد - والد » :

المعاملة بين « راشد - والد » تمثل نوعا آخر من المعاملات التكميلية
(شكل رقم ١٥) . ويمثلها رجل يريد التخلي عن التدخين . ان لديه معلومات

Sinclair Lewis, "Babbitt", Major American Writers, ed. (٣)
H. M. Jones & E. E. Lelay. (New York, Brace, 1945), pp. 17-36.

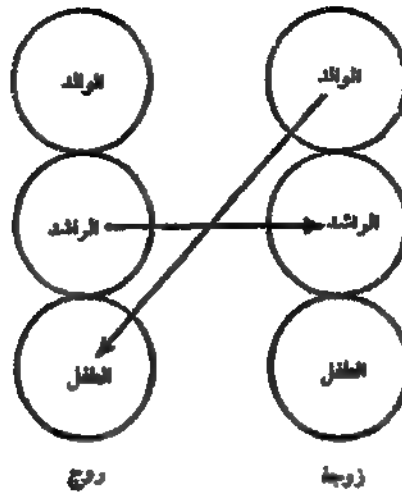


شكل رقم ١٤ - معاملة « مطل - راشد »

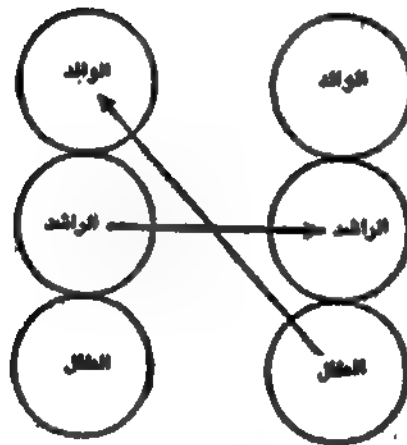


شكل رقم ١٥ - معاملة « راشد - والد »

« راشد » كافية لتفسير أهمية هذا الأمر بالنسبة لصحته . وبالرغم من هذا فإنه يسأل زوجته أن تلعب دور « الوالد » بأن تهلك سجنائه عندما تجدها ، وأن تعترض بشدة عندما يشعل واحدة . وهذه المعاملة لها امكانيات اللعبة الجيدة ، وبمجرد أن يحيل الزوج المسؤولية الى « والد » زوجته ، يمكنه أن يصير ولدا صغيرا شقيا ويلعب دور « لولاك لقيمت بذلك » او « حاول أن تمسك بي » .



شكل رقم ١٦ - معاملة متقاطعة



شكل رقم ١٧ - معاملة متقاطعة

المعاملات غير التكميلية أو المتقاطعة :

أما المعاملات المتقاطعة فأنها تمثل نوعية المعاملات التي تسبب المتاعب (شكل رقم ١٦) والنموذج الكلاسيكي الذي وضعه برن لهذا النوع يتمثل في المعاملة بين زوج وزوجة - حيث يسأل الزوج : « أين زراير قميصي يا عزيزتي ؟ » (حافز من « الراشد » يطلب معلومات) وتكون

الاجابة التكميلية من الزوجة كما يلى : « فى الركن العلوى الأيسر من درج ثيابك » أو « لم أرها ولكننى سأعاونك فى البحث عنها » . وعلى أية حال اذا كانت عزيزته قد قضت يوما عابسا ولا يزال لديها كمية من الأذى والعبارات المجنونة فانها مستصيح قائلة : « أين تركتها ! » وستكون النتيجة معاملة متقاطعة . لقد كان الحافز « راشدا » ولكن الزوجة حولت الاستجابة الى « الوالد » .

ويأتى هذا الى القاعدة الثانية للاتصال خلال تحليل المعاملات .
عندما يتقاطع الحافز والاستجابة فى الرسم البياني الخاص بمعاملة (والد - راشد - طفل) ، يتوقف الاتصال . ولا يستطيع الزوج والزوجة أن يتحدثا عن أضرار القبيص مرة أخرى ، فعليهما أولا أن يناقشا - لماذا لا يضع كل شئ فى مكانه . وما دامت استجابتهما تنسب الى « الطفل » (« لماذا تصرخ فى وجهى دائماً ؟ ») فستصل الى نفس الموقف الذى لامخرج منه ، هذه المعاملات المتقاطعة يمكن أن تشغل سلسلة كاملة من التراشقات المتبادلة ، التى تنتهى بانفجار عند بعض العبارات النائرة التى قد تصل الى حد تبادل الألفاظ الغابية (شكل رقم ١٧) .

وتكرار هذه النوعية من التراشقات يشكل العابا مثل : « أنت السبب فى كل ماحدث » ، و « لولاك لاستطعت » ، و « الصغيب » ، و « الآن أمسكت بك يا ... » ومنشرح ذلك فيما بعد فى الفصل السابع .

ويمكن أصل الاستجابات غير الراشدة فى موقف « أنا لست على مايرام » فى « الطفل » والشخص الذى يسيطر عليه هذا الإحساس ، يقرأ فى التعليقات التى تقال أشياء غير موجودة فيها : « من أين حصلت على شريحة اللحم ؟ » ، « ما بالهم ؟ » و « أحب تسريحتك الجديدة ! » ، « لم تعمل مثلها منذ فترة طويلة » ، « اننى أسسحك تتحرك » ، « لستطيع فى الوقت الحالى الانتقال الى مسكن جديد ولكن الحى يبحدر الى الأسوأ » ، « ناولنى البطاطس ياعزيزى » ، « وتسعوى سميئا » . أو كما قالت إحدى مريضاتى : « يقول زوجى انه لا يستطيع أن يفهم كتب الطهى » .

صور أخرى للمعاملات المتقاطعة :

المريض (أ) : أحب أن أعمل فى مستشفى مثل هذا .

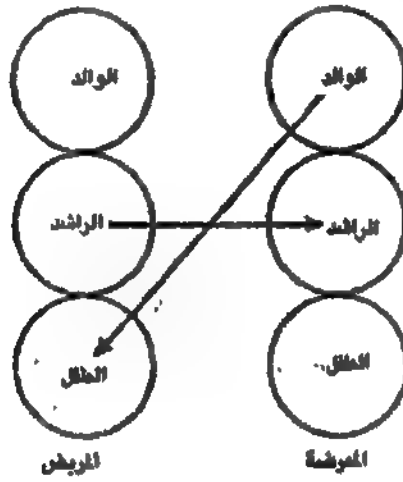
الممرضة (والد) : أنت لستطيع حل مشكلاتك الخاصة (شكل رقم ١٨) .

الأم (والد) : اذهبى ورتبى غرفتك •

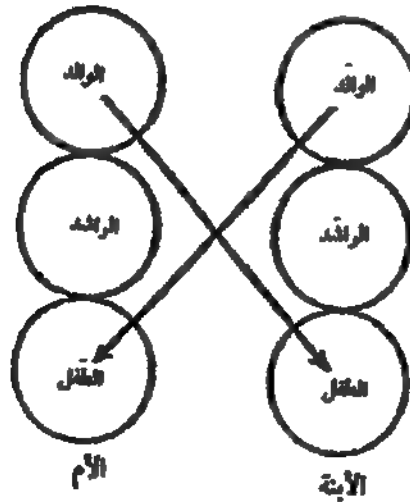
الابنة (والد) : ليس لك أن تأمرينى • أنت لست صاحب الأمر والنهى
هنا • أبى هو صاحب الأمر والنهى • (شكل رقم ١٩) •

الطبيب النفسى (راشد) : ما هو هدفك فى الحياة ؟

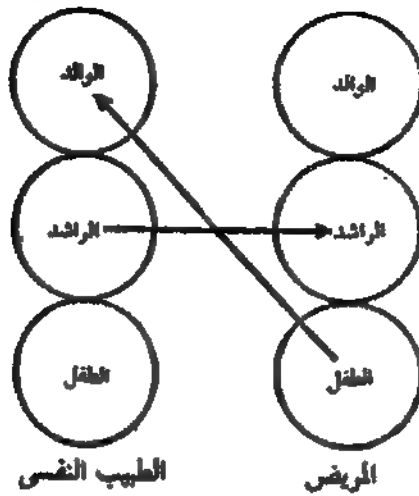
المريض (طفل) : الروتين ، الروتين (يضرب المنضدة) عليه اللعنة ،
انه الروتين (شكل رقم ٢٠) •



شكل رقم ١٨

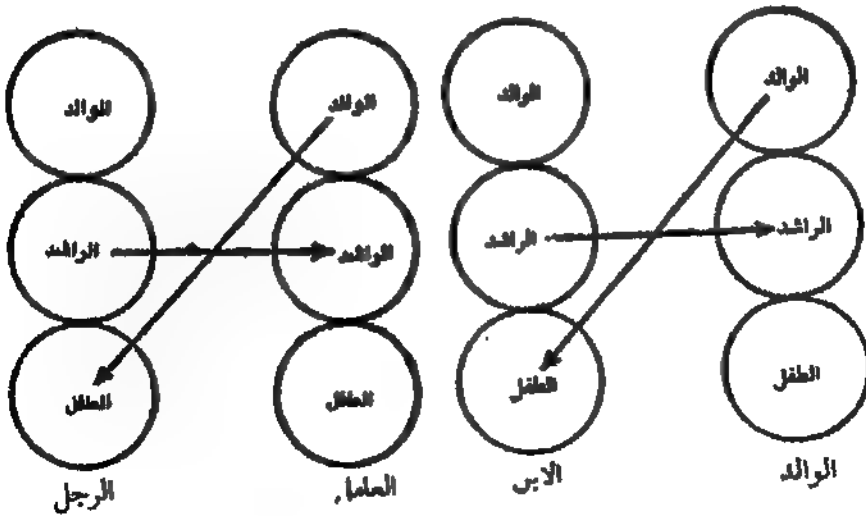


شكل رقم ١٩



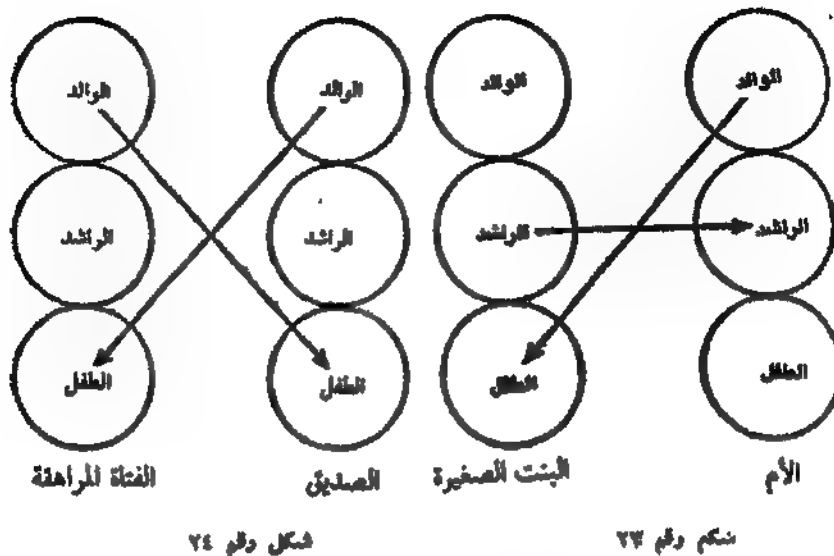
شكل رقم ٢٠

- الابن (راشد) : يجب أن أنهى التقرير الليلة • انه مطلوب غدا •
- الأب (والد) : لماذا تترك الأشياء دائما حتى آخر دقيقة ؟ (شكل رقم ٢١)
- الرجل (راشد) واقفا مع صديق : كنا نحاول فتح هذا القطاء وأسقطنا المفتاح خلف الرفرف • هل تستطيع معاونتنا فى اخراجه ؟
- عامل محطة البنزين (والد) : من الذى أسقطه (شكل رقم ٢٢) •



شكل رقم ٢٢

شكل رقم ٢١



الفتاة الصغيرة (راشد) : القمصان القلرة داخلة .

الأم (والد) : اذهبي وخذي حياها (شكل رقم ٢٣) .

الغناء المراثية (والد) : حسنا ، بصراحة ، ابي يحب منطقة بالم سببر نجر
أكثر .

الصيديق (والد) : تحاول أسرتنا تفادي الأماكن السياحية
(شكل رقم ٢٤) .

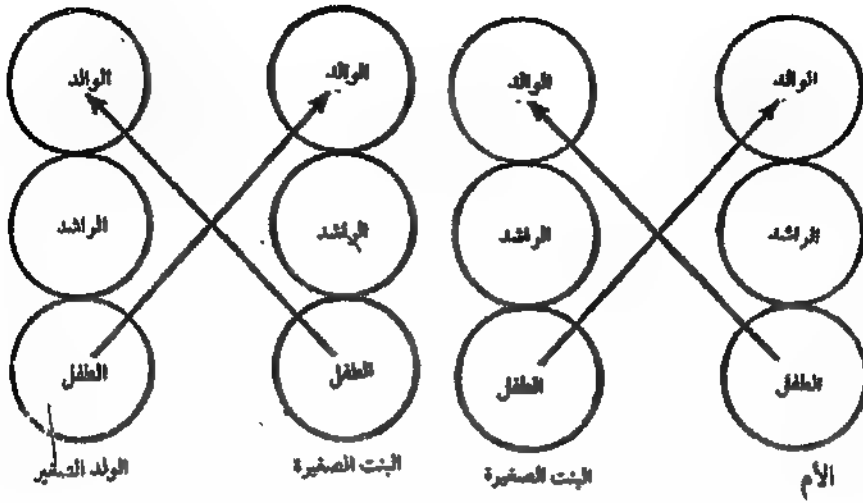
البنت الصغيرة (طفل) : اننى اكره الشدودة . لن اتناولها . انت
تطبخين طبيخا رديء الطعم .

الأم (طفل) : اننى على وشك الخروج وعندك تستطيعين أن تطبخي طعامك الرديء العلم . (شكل رقم ٢٥) .

الولد الصغير (طفل) : أبي عنده مليون دولار .

البنت الصغيرة (طفل) : هذا يساوي لاشيء ، ان أبى لديه دسليون دولار
(دسليون تعني عند الصغير عدد لانهاى) (شكل رقم ٢٦) •

فيرونا ابنة باييت (واشد) : اننى اعرف ، ولكن - اوه ، اريد أن اشترك
هل أستطيع أن أجعل أحد المتاجر الكبرى يساهم فى تحسين أثاث
بيوت الفقراء ؟



شكل رقم ٢٦

شكل رقم ٢٧

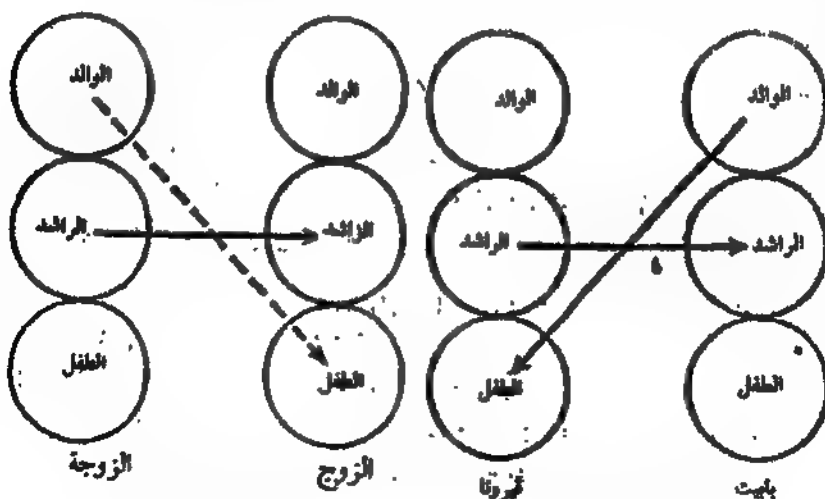
بابيت (والدة) : ما هذه الترهات ! ان اول شيء عليك ان تفهميه هو ان كل هذه المشاريع الاجتماعية ، لا تساوى شيئاً فى عالم السماء ، ولكنها اسفين من اسافين الاشتراكية . ان المرء اذا أدرك ان الحياة لن تدلله ، وان السماء لا تبطر ذهباً وفضة ، او أنه لن يحصل على الكثير لأولاده الا من كده يديه ، فسرعان ما يلتحق بالعمل وينتج ، وينتج ! هذا هو ما تحتاجه البلد . وليسبت كل هذه الأوهام هي التي تكاد تنهك طاقة الرجل العامل وتقدم لأولاده قدراً كبيراً من المفاهيم أعلى من طبقتهم . وأنت - لو تتجهين الى العمل بدلا من التصرفات الغبية والشغب الذي تبدين فيه وقتك كله ! عندما كنت شاباً ، اخترت طريقى وتمسكت به فى السراء والضراء ، ولذا ارتقيت الى ما أنا عليه اليوم (شكل رقم ٢٧) (٤) .

ان استجابات « الوالد » الشبيهة باستجابات بابيت ، يبدو أنها تركز على شعور « مالا يرام » فى « الطفل » لقد أحس بأن أولاده لم يقدروه ، وأنهم لم يفهموا كم ناضل بشدة ، وأنه لا يزال يشعر باحساس « مالا يرام » نحو هؤلاء الذين لديهم أكثر مما لديه . ولو كان قد سمح « للطفل » فيه بأن ينشط ، وربما كان قد بكى ، ولذلك فانه تبع المسار

الأسلم وأدوار المعاملة الى « الوالد » الذي يكمن فيه الخير والصواب ،
و « كل الاجابات » .

أما الشخص الذي يكون « طفله » دائما « ليس على مايرام » فإنه
لايستطيع الاستمرار في المعاملة التي ستطور تعامله مع الواقع ، لأنه مهتم
دائما بعمل لم ينته ، متصل بالواقع الماضي لا الحاضر . أنه لا يستطيع
أن يقبل النناء بامتنان لأنه لا يظن أنه يستحقه ، فيخال أنه يظن السخرية .
أنه منغمس في محاولة مستمرة لتحقيق تكامل الموقف الذي نشأ في مرحلة
الطفولة . والشخص الذي يجعل « طفله » يندفع دائما الى رد الفعل ،
انما هو في الحقيقة يقول : « أنظر الى ، أنا لست على مايرام » والشخص
الذي يجعل « راشده » دائما يندفع الى رد الفعل ، انما هو في الحقيقة
يقول : « أنظر الى ذاتك . أنت لست على مايرام » . (وهذا يجعلني أشعر
بالتحسن) . والحركتان كلاهما تعبير عن موقف « مايرام » وكل منهما
يساهم في إطالة أمد اليأس .

ان موقف « مايرام » لايعبر عنه فقط بالاستجابة : بل هو أيضا
يمكن أن يوجد في الكثير . يقول الزوج للزوجة : « أين إختليت فتاجة
العلب ؟ » ان العاقل الرئيسي « راشد » لأنه يبحث عن معلومات ايجابية .
ولكن هناك « اتصال ثانوي » في كلمة « إخفاء » (شئون منزلك تمثل
سرا بالنسبة لي ، وسنفس اذا صرت غير منظم مثلك . أتمنى لو أنني
استطعت مرة : أن أجد شيئا في مكانه ا) وهذا هو « الوالد » انه نقد
مخفي بركة . وهذا يعطي حافزا لمعاملة مزدوجة (شكل ٢٨) .



شكل رقم ٢٨

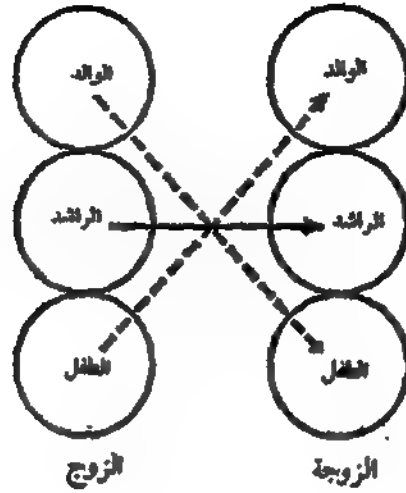
شكل رقم ٢٧

ويعتمد تطور المعاملة على أى الحوافز ترغب الزوجة فى الاستجابة لها . اذا أرادت أن تجعل الأشياء ودودة وأن تشعر بأنها على مايرام بما يكفى لعدم شعورها بالتهديد ، فانها سوف تستجيب : « لقد أخفيتنا بجوار ملاعق المائدة يا حبيبى » . وهذه الاستجابة تكميلية لأنها تعطيه المعلومات التى يريد ، وقرأ أيضا بنبرة رقيقة جهله بأسلوب ادارة المنزل . واذا قرر « راشدها » أنه من المهم بالنسبة لزوجها أن تفعل شيئا ازاء اشارة زوجها الخفية ، فانها سوف تفهم التلميح ، وتصير أكثر تنظيما . واذا شغلت « راشدها » معها لارادة المعاملة ، فانها سوف تستطيع تحقيق ذلك .

وعلى كل حال فانها اذا استتير « طفلها » الذى يشعر أنه ليس على مايرام ، فان استجابتها الأولية ستكون لكلمة « الاخفاء » وقد تستجيب على طول خط عبارة : « اذن فما هو شأنك ؟ هل أنت أعبى أم أى شىء ؟ » وهنا ينتهى السؤال عن فتاحة القلب ، بينما هما يتجادلان حول مزاجها وتقاضى كل منهما فى مجال التنظيم ، والعجز عن الرؤية ، والقباه . . . الخ . ولا تزال علبة البيرة مغلقة ، ولعبة « الفوضى » تسير على أحسن مايرام .

ويمكن لبعض المعاملات من هذا القبيل أن تقدم حافزا واستجابة على كافة المستويات : رجل يأتى الى البيت ويكتب « أنا أحبك » على الغيار الذى يكسو منضدة القهوة . ان « الراشد » يتحكم فى الموقف رغم أن « الوالد » و « الراشد » كليهما منغمسان فى الموقف (شكل رقم ٢٩) . ان « الوالد » يقول : « ألا تنظفين هذا المكان أبدا ؟ » ويقول الطفل : « من فضلك لاتفضي عنيما أنتفدك » . وعلى أية حال فان « الراشد » يتحمل المسؤولية على أساس أن اظهار الحب مهم لزواجه ، ولذلك فاننى لن أدرج « والدى » أو « طفلى يثار » اذا قلت لها اننى أحبها ، فانها لن تقضب منى ، بل ربما عملت بالفكرة القائلة بأنه من المهم قبل كل شىء لرجل فى مثل مركزى أن يكون لديه منزل جميل المنتظر .

ويمكن لذلك أن يتحول الى معاملة تكميلية اذا كانت الزوجة « على ما يرام » بما فيه الكفاية لقبول نقد بناء . وسيكون النتائج سعيدا اذا نظفت المنزل واستقبلت زوجها عند الباب بمشروب بارد كبير الحجم ، وقالت له كم هو زوج لطيف وعاطفى وواسع الخيال : ان الأزواج الآخرين يزمجرون ويثنون فقط ، ولكن هاكم الجوهرة التى نلتها ! ومثل هذا الاقبال يؤكد النجاح . وعلى أية حال ، اذا لم تستطع أن تقبيل ذلك ، فانه من



(شكل رقم ٢٩)

المحتمل أن يجيب « والدها » بحدة : « متى نظفت الجراج آخر مرة ؟ »
أو أن يرسلها « طفلها » خارجاً لتتسوق سلماً باهظة الثمن ترحق بها
زوجها . وهذه المعاملة تصور لنا أنه بالرغم من أن « الوالد » و « الطفل »
منغمسين في المعاملة ، إلا أن الناتج يمكن أن يكون ودياً ، ويحقق زواجا
طيبا إذا كان « الراشد » هو الذي يتولى المسؤولية .

و « الراشد » له حق الاختيار فيما يتعلق بالإجابة على المثير ، بطريقة
تكميلية تحمي كلا من العلاقة والأفراد الداخليين في العلاقة . ويتخذ ذلك
في بعض الأحيان شكل حساب يدهى سريع جدا :

المنظر : حفل كوكتيل . وتبدأ المعاملة عن طريق رجل يغازل « طفلة »
سيئة مفازلة وقحة فيقزمها في خدعها ، فتجيب :

(راشد) : ان أمي تنصحنى دائما بأن أدير خدي الآخر .

لماذا عرفنا هذه الإجابة بأنها صادرة عن « الراشد » ؟

كانت من الممكن أن تجيب إجابة من « الوالد » فتقول : « أيها العجوز
القدر ! » أو حتى تصفعا .

أما إذا أجابت من « الطفل » فالها قد تصرخ ، أو ترتبك ، أو تغضب ،
أو ترتعش ، أو تبتسم .

وعلى أية حال فإن اجابتهما صدرت عن « الراشد » لأنها ضمننت
اجابتهما الواحدة قدرا كبيرا من المعلومات :

١ - لي أم قالت لي دائما - اذن فأنت تحت المراقبة !

٢ - أعرف الكتاب المقدس أيضا وهذا ما تعنيه ادارة الخلد الآخر ، وهكذا
تري أنني لست من الفتيات العابثات •

٣ - المزاج الصافي لهذه التمثيلية الكلامية دله على أن « طفلي » يضحك ،
وأنت على مايرام ، وأنا أستطيع أن آخذ الأمر على سبيل المزاح •

٤ - تمت المعاملة •

والشخص الذي ينجح دائما في التغلب على المواقف الحرجة ،
لا يفعل ذلك مصادفة • ان لديه « راشد » عالي السرعة ، ينجده في موقف
يلم به في سرعة ، وهو عنصر هام في الحياة الاجتماعية مثل الموقف
السابق ، ولكنه أهم بكثير في المنزل ، فأنت تستطيع أن تهرب من حفل
الكوكتيل ، أما الهروب من البيت فشيء آخر •

وهنا يبرز السؤال : كيف يستطيع « الراشد » أن يعمل أفضل
وأسرع ؟ عندما يدق شخص على الباب الأمامي للحياة ، فمن يذهب الى
هناك أولا - « الوالد » ، أم « الراشد » ، أم « الطفل » ؟

كيف تبقى في « الراشد » :

ينمو « الراشد » متأخرا عن « الوالد » و « الطفل » • ويبدو أن
مواكبة نموه لنمو الانسان ليست من الأمور اليسيرة • ان « الوالد »
و « الطفل » يحتلان العواثر الأولية التي تأتي تلقائيا استجابة للحافز ،
ولذلك فإن الطريق الأول هو بناء قوة « الراشد » بحيث يصبح حساسا
لاشارات « الوالد » و « الطفل » • وتعتبر المشاعر المثارة مفتاحا يكشف
عن أن « الطفل » قد التقط الطعم • وأول متطلبات تشغيل بيئات
« الراشد » هي معرفة المرء « للطفل » الكامن فيه ، وأن يصبح حساسا
لمشاعر (ليس على مايرام) ، إذ أنه لو أحس أن « هذا هو « طفلي » الذي
لبس على مايرام » لبات بوسعه أن يتجنب الإفصاح عن هذه المشاعر في
شكل أفعال • وتشغيل هذه البيانات يستغرق لحظة ، ويضرب العد من واحد
الى عشرة ، طريقة مفيدة لتأخير الاجابة التلقائية لكي يحقق « الراشد »
التحكم في المعاملة • ويمثل مبدأ « عندما تفك ، اتركها » تدريبا جيدا
لتأخير ردود أفعال « الطفل » القديمة أو المسمرة • وقد صرح أرسطو بأن

المظهر الحقيقي هو أن يتمالك المرء نفسه بالتحكم في استجابات « الوالد » و « الطفل » التلقائية القديمة ، وانتظار أن يحسب « الراشد » الاستجابات المناسبة للموقف . ويمكن التحكم في اشارات « الوالد » بنفس الطريقة . ومن المفيد برمجة أسئلة معينة « للراشد » في الحاسب حتى يمكن تطبيقها على بيانات « الوالد » : هل هذا حقيقي ؟ وهل يمكن تطبيقها ؟ وهل هي ملائمة ؟ ومن أين واتتني هذه الفكرة ؟ وما هو الدليل ؟ وكلما زاد ما نعرفه عن مضمون « الوالد » و « الطفل » كلما سهل علينا أن نفصل « الوالد » و « الطفل » عن « الراشد » . ويقر بنا هذا من النصيحة القديمة بأن يرتب المرء عناصر شخصيته . انها بالضبط هي العملية المطلوبة لتطوير « الراشد » . وكلما كان الانسان حساسا بالنسبة « للوالد » و « الطفل » كلما صار « الراشد » أكثر انفصالا واعتزازا بنفسه وأشد قوة .

ان التحكم في الحوار الداخلي هو الطريق الوحيد للتعرف على « الوالد » و « الطفل » . وهذا الأمر ميسور الى حد ما طالما أنه لا يوجد هناك مطالب خارجية تستدعي الاستجابة ، وأن الفرد لديه الوقت لفحص المعلومات . وعندما يشعر الفرد بأنه ليس على مايرام ومكتفهر وغادم ومغتم ، فإنه يستطيع أن يسأل السؤال : (لماذا يضرب « والدى » « طفلى » ؟) وتصبح المحادثات الثنائية الداخلية التي تتضمن الاتهام عادية الحدوث . لقد كتب برتراند راسل عن الفريد نورث هويتهد قائلا : « كان مثله كمثّل الرجال الآخرين الذين عاشوا نمطا صارما من الحياة ، عرضة لتوبات مزعجة من مناجاة الذات . وعندما كان يظن أنه بمفرده ، كان يوبخ نفسه من أجل نقائصه المفترضة (5) » .

وعندما يكون الانسان قادرا على أن يقول : « هذا هو والدى » أو « هذا هو طفلى » يستطيع أن يقولها بالنسبة « للراشد » ، ومن ثم يمكنه عن طريقة الاستفهام أن ينتقل الى « الراشد » . ان بوسع الانسان أن يشعر بالراحة المأجلة في موقف مغمم بالاجهاد ، ببساطة عن طريق توجيه السؤال : « من الذى يقوم برد الفعل ؟ » . وعندما يصير الانسان حساسا بالنسبة « للطفل » الخاص به ، يصبح بالتالى حساسا بالنسبة « لطفلى » الآخرين . ولا يوجد انسان يحب الانسان الذى يخاف منه . اننا نخاف « الوالد » فى الآخرين ، ولكننا نستطيع أن نحب « الطفل » فيهم . ومن التبريات المقيمة في المعاملات المختلفة ، أن ترى الولد

الصغير ، أو البنت الصغيرة . فى شخص آخر ، وان نتحدث الى هذا الولد أو تلك البنت ليس بأسلوب التفضل ، بل بأسلوب مقم بالحب والحماية . وعندما تكون فى شك ، قدم الحنان . وعندما يستجيب الانسان « لطفل » انسان آخر فانه لا يكون خائفا من « والد » الشخص الآخر . ويظهر المنال التالى عن « الحديث الى الولد الصغير » فى كتاب ادبيل روجرز سسانت جونز ، وعنوانه : لا تقل لأحد Tell no man ، وفيه يقول هانك جافين :

استطعت ان انقل الى باطنها من خلال مظهرها وسلوكها ، لقد حدث لى هذا من قبل مرتين وأنا أعقد صفقات مع بعض الرجال ، رؤساء الشركات - لقد استطعت النفاذ الى ذواتهم ، وكأننا بانث جلودهم شفافة ، فرأيت فيهم أحيانا رجالا يائسين حزاني وغرباء - مثل صبي خرج للصيد بدود والمصنارة . قد يبدو ذلك غير قابل للحسوث ولكنه حدث مرتين ، فتعاملت معهم على هذا الأساس ونجحت فى عقد الصفقة (٦) .

ان الراوى هنا تعامل مع « الطفل » الكامن فى هؤلاء الرجال .

وهناك طريقة أخرى لتقوية « الراشد » وذلك بأن تقضى الوقت الكافى لاتخاذ بعض القرارات الكبرى حول القيم الأساسية ، التى ينتج عنها عدد كبير من القرارات الأصغر غير الضرورية . وهذه القرارات الكبرى يمكن اختبارها دائما ولكن الوقت الذى تستغرقه لاتخاذها يجب ألا ينقضى فى فحص كل حدث صغير يمكن أن تنطبق عليه القيم الأساسية . وهذه القرارات الكبرى تشكل أساسا أخلاقيا للأسئلة التى تبادرنا كل لحظة : ماذا نعمل ؟

واتخاذ هذه القرارات الكبرى يتطلب جهدا وإعيا . لانك لاتستطيع تدريس الملاحة وسط عاصفة . وبالمثل ، فانك لاتستطيع بناء نظام للقيم فى طرفة عين ما بين قول « طمك » : « لقد ضربنى جوى بقبضته فى أنفى » . واستجابتك . لاتستطيع أن تستمر فى معاملة بناءة مع « الراشد » المسئول ، اذا لم تتدبر القيم الأساسية والأولويات من قبل . اذا كان لديك قارب فانك تصير ملاحا ماهرا ، لأنك تعرف النتائج المترتبة على فشلك فى قيادة الزورق . انك لن تنتظر حتى تهب الريح ، لكى تفكر كيف تدبر الراديو . واذا كنت متزوجا ، فانك تصير شريكا خبيرا لأنك ربت نفسك للنتائج المترتبة على الفشل . ومستقيم نظاما للقيم يدع

A. Rogers st. Jones, "Tell no man", (New York : Doubleday, (٦)
1966).

زواجك ، ومن ثم يخدمك عندما تشتد الأزمات • إذن فإن « الراشد » قد استعد لتغطية المقابلات بسؤال مثل : « ما هو الشيء المهم هنا ؟ » •

ويستطيع « الراشد » وهو يؤدي دور الخبير في تقييم الاحتمالات - أن يعمل نظاما للقيم يشمل ليس فقط علاقة الزواج ، بل كافة العلاقات • وعلى عكس « الطفل » فإنه يستطيع تقييم النتائج ولا يتعجل المكافأة • أنه يستطيع انشاء قيم جديدة مؤسسية على اختبار أكثر شمولاً للأسس التاريخية والفلسفية والدينية للقيم • وعلى عكس « الوالد » فإنه مهم أكثر بالحفاظ على الفرد أكثر من الاهتمام بالحفاظ على التقاليد الاجتماعية •

ويستطيع « الراشد » أن يتمسك عن وعي بموقف يحرص فيه على محبة الآخرين له • و « الراشد » يستطيع أن يرى في فكرة « مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ » أكثر مما يراه الأب الوصي على تصرفات ابنه •

وهذا هو نوع العطاء الذي يتمكس عليه « الراشد » كما تحدث عنه أريك فروم :

يخطئ الناس أشد الخطأ حينما يتصورون أن « العطاء » يعني « التنازل » أو « التفضحية » أو « الخسران » ! إن هؤلاء الذين يسلكون دروبا عقلية غير منتجة هم الذين يحسبون أن « العطاء » الخفار لهم ... وهم يحسبون بهذه الشعور ، ولأنهم يجدون العطاء مؤلماً ، لذلك يجعلونه واجبا ، فلهذيلة العطاء لديهم تنعرج تحت باب التفضحية •

وبالنسبة لسلوك الانتاج « راشد » فإن العطاء له معنى مختلف كلية • فالعطاء هنا هو أعلى درجات التعبير عن القدرة • وأنا أجرب من خلال فعل العطاء - قوتي وثروتي وقدرتي • وهذه التجربة المغصية بالحيوية والقدرة العالية تملؤني بالفرح • اننى أختبر نفسى كشخص حى يفيض ويصرف ، ومن هنا يأتى الفرح • إن العطاء أكثر اسعادا من الأخذ • ليس لأنه حرمان ولكن لأن فعل العطاء يتضمن التعبير عن حيويته (الموافقة) (٧) • وهذا النوع من العطاء يمكن أن يكون طريقا مختارا للحياة • وهو اختيار يبرز كافة القرارات • عندما يسأل « الراشد » قائلا : « ما هو الشيء المهم هنا ؟ هل أنا محب ؟ » وما دمت قد اتخذت هذه القرارات التقييمية

E . Fromm, "The art of loving", (New York : Harper, 1956). (٧)

فان الفرد يستطيع أن يتصنعي بطريقة بنسابة قائلا : « أين أخفيت فتاحة العلب ؟ » وينضى من خلال تقوية موقف « أنا على ما يرام ، وأنت كذلك » يوما بعد يوم . وبالاختصار فان « الراشد » القوي ينبتى على ما يلي :

١ - تعلم ان تعرف « طفلك » بما فيه من نقاط ضعف ، ومخاوفه ، وطرائقه الرئيسية للتعبير عن هذه المشاعر .

٢ - تعلم ان تعرف « والدك » بما فيه من موانع وفروض ومواقف ثابتة وأساليه في التعبير عن هذه الموانع والفروض والمواقف .

٣ - كن حساسا بالنسبة « للطفل » الذى فى الآخرين . تحدث اليه ، وأظهر الحنان نحوه ، واعطه الحماية والتقدير .

٤ - عد من واحد الى عشرة عندما يكون ذلك ضروريا حتى يجد « الراشد » الفرصة لتصنيف المعلومات وفضل « الوالد » و « الطفل » عن الحقيقة .

٥ - عندما تكون فى شك ، دع الأمور تسير ، فلن يهاجمك احد على قول لم تنطق به .

٦ - اصنع لنفسك نظاما للقيم . انك لستطيع ان تتخذ قرارات ، بدون اطار اخلاقى .

أما كيف يصنع « الراشد » نظاما للقيم ، فهذا هو موضوع الفصل الثالى عشر ، وعنوانه : (نموذج : الوالد - الراشد - الطفل) والقيم الأخلاقية .

الفصل السادس

كيف نختلف

(تصبح أدوات العقل عبئاً عليه ، عندما تنتهي الظروف المحيطة التي جعلتها ضرورية - هنرى برجسون)

ان جميع الناس متشابهون من حيث البنیان ، بمعنى أن لكل منهم « والد » ، و « راشد » ، و « طفل » . وهم يختلفون بطريقتين في مضمون كل من « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » والتي هي واحدة عند كل شخص من حيث كونها تسجيلات للتجارب الواحدة عند كل شخص . و يختلفون في ترتيبات التشغيل أي وظيفة كل من « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » وقد خصصنا هذا الفصل لفحص هذه الاختلافات الوظيفية . وهناك نوعان من مشاكل التشغيل هما : الافساد ، والاستبعاد (أ) .

الافساد :

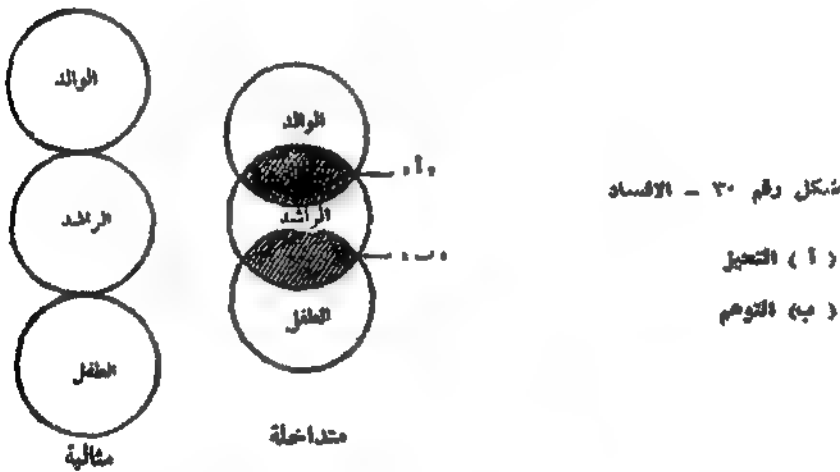
في نهاية الساعة التمهيدية التي شرحت فيها نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لفتاة في سن السادسة عشرة ، كانت محاولة من شعبة الخدمة الاجتماعية . وقد كانت فتاة منطوية عاجزة عن التواصل وليست

E. Berns, "Transactional Analysis in Psychotherapy", (New York : Grove Press, 1961). (A)

على شيء كبير من الثقافة ، وقد تركت المدرسة قبل أن تكمل دراستها ،
سألها السؤال التالي :

« هل تستطيعين أن تذكرى لى ما يعنيه نموذج : الوالد - الراشد -
الطفل ، بالنسبة لك الآن ؟ »

وبعد صمت طويل قالت : « انه يعنى أننا جميعا مكونين من ثلاثة
أجزاء ، والأفضل لنا أن نحافظ عليها منفصلة حتى لا نواجه المتاعب » ،
ان المتاعب التى تنتج عندما لا تنفصل هذه الأجزاء تسمى : « افساد الراشد » ،
والوضع المثالى لدوائر « الوالد والراشد والطفل » (شكل رقم ٣٠) هو
الفصل بينها . وعلى كل حال فان هذه الدوائر الثلاثة تتداخل لدى بعض
الناس . ان التداخل « أ » فى الشكل يمثل افساد « الراشد » بواسطة
معلومات « الوالد » القديمة وغير المفحوصة التى تظهر حقيقية وهذا هو
ما يسمى : التحيز .



وعلى ذلك فان بعض المعتقدات مثل « البشرة البيضاء أفضل من
البشرة السوداء » ، « المتعاملون باليد اليمنى أفضل من المتعاملين باليد
اليسرى » ، « رجال الشرطة أذكياء » ، تظهر فى المعاملات على أساس
قاعدة « الحكم المسبق » (*) قبل تطبيق المعلومات الحقيقية « للراشد »
عليها .

(*) نسمى هذه الظاهرة فى الاعلام أى علوم الاتصال البشرى باسم : الصور النمطية
Stereotypes . وجود قوالب سابقة المجهز يفرغ فيها الشخص معلوماته
عن الأشخاص الآخرين أو أفعالهم وينسج عن ذلك إصدار حكم مسبق غير مفحوص - المترجم .

وينشأ « التحيز » في الطفولة المبكرة ، عندما يخلق باب التساؤل حول بعض الموضوعات المعينة على يد « الوالد مانع الأمان » وهنا لايجرؤ الصبي على فتحه خوفا من تبكيت « الوالد » .

ونعرف جميعا كم هو صعب الحوار المنطقي مع شخص متحيز . ويستطيع الانسان أن يستعرض مع بعض الناس قضية منطقية وواضحة ، متعلقة بموضوعات : التمييز العنصري ، أو استخدام اليد اليسرى ، أو أي موضوع يتحيز الفرد اليه ، ولكن « الوالد » في هؤلاء الناس يحتل بثبات جزءا من « الراشد » . وسيحيطون قضاياهم الانجيازية بكافة أنواع المجادلات الخارجة عن الموضوع لمساندة موقفهم . وتبدو صلابتهم في التمسك بموقفهم الآمن ، غير منطقية مثل موقفهم ذاته . وكما أوضحنا في الفصل الثاني فانه من الأسلم للصغير أن يصدق كذبة من أن يصدق عينيه وأذنيه ، ولذلك لا يستطيع الفرد أن يقضى على رأى متحيز بمجرد مناقشته مناقشة راشدة . والطريقة الوحيدة لاستبعاد التحيز تتمثل في كشف حقيقة أنه لا يوجد خطر مائل في الاختلاف مع « والد » الشخص ، وتحديث معلومات « الوالد » بمعلومات منبثقة من واقع اليوم . وعلى ذلك نستطيع أن نرى العلاج ممثلا في الفصل ما بين « الوالد » و « الراشد » واسترجاع الحدود بينهما .

أما التداخل « ب » في شكل رقم ٣٠ ، فيمثل افساد « الراشد » بواسطة « الطفل » في شكل مشاعر أو خبرات قديمة تظهر في غير مظهرها . وهناك انسان من الأعراض العادية لهذا النوع من التحيز همما : الأوهام والهلوسة . والأوهام تجد لها أرضية في الخوف . ان المريض الذي قال لي : « ان العالم بشيع » . كان يصف كيف ظهر له العالم في حديثه ، فأى صبي صغير يمانى من خوف مستمر من تعرضه لقسوة « والد » لا يمكن التنبؤ بتصرفاته ، يصيب عروضة - كشخص بالغ تحت تأثير الضغط - لأن ينغمس تحت نفس الخوف الى حد أن يلقى منطلقا يبرر به البيانات المخزونة في عقله ، فقد يظن أن البائع المتجول المتجه نحوه من آخر الشارع ، قادم في الحقيقة ليقتله . وإذا واجه حقيقة أنه مجسرد بائع ، فإن هذا الشخص قد يؤيد خوفه بأن يقول جملة مثل : « لقد كشفته في نفس الحقيقة التي رأيتها فيها . انه هو ! انه مطلوب أمام مكتب التحقيقات الفيدرالى . لقد رأيت صورته في مكتب البريد ، وهذا هو سبب مجيئه لكني يقتلني » . وكما هو في حالة التحيز فان هذا الوهم لا يمكن أن يستبعد بالاكتماء بالقول بأن هذا الرجل ليس سوى بائع ، وانما يكشف

حقيقه ان التهديد الاصلى « للطفل » لم يعد موجودا فى الظاهر اذ لا يستطيع « الراشد » أن يتعامل مع البيانات الواقعية الا اذا تظهر من الشوائب .

وتعتبر الهلوسة نوعا آخر من أنواع « افساد الراشد » بواسطة « الطفل » . والهلوسة ظاهرة تنتج عن الضغط الشديد ، تطفو فيها الى السطح من جديد ، التجارب الخارجية التى كان قد تعرض لها المرء والتى عانى فيها من شعور بالانحطاط والرفض والنقد . وقد تطفو هذه الظواهر دون استئارة من أحد . وتظهر التجربة المسجلة للمريض كما لو كانت حقيقة واقعة . ويسمع الشخص الأصوات التى عاينها فى تجربة واقعية فى الماضى ، واذا سألتها عما تقوله الأصوات ، فإنه سيصف بصفة خاصة ، المحتويات ، على أنها كلمات النقد والتهديد أو العنف . وكلمات زادت غرابة الهلوسة ، كلما زادت غرابة الحياة بالنسبة له كصغير . والهلوسة الخارجة عن المؤلف لا تستعصى على فهمنا عندما نمن النظر فى النوعيات المختلفة من المعاناة التى يخضع لها بعض الصغار ، لفظية كانت أم مادية .

الاستبعاد Exclusion :

بالإضافة الى التحيز هناك اضطراب رئيسى آخر يوضح لنا كيفية الاختلاف ، وهو : الاستبعاد : يتجسد الاستبعاد فى موقف نطى يمكن التنبؤ به ، ويتمسك به المرء لأطول فترة ممكنة ازاء موقف التهديد ، وينتج « الوالد » الثابت و « الراشد » الثابت و « الطفل » الثابت - جميعهم ، من الاستبعاد الدفاعى للعاملين التكميليين فى كل حالة (٩) . وهذا الموقف يستطيع فيه « الوالد » المستبعد أن يوصد « الطفل » ، كما أن « الطفل » المستبعد يستطيع أن يوصد « الوالد » .

الشخص الذى لا يستطيع اللعب :

ان نموذج « الراشد » الذى يهيمن عليه « الوالد » الذى يستبعد « الطفل » يتمثل فى الرجل المثقل بالأعباء ، الذى يعجز فى مكتبه حتى

ساعة متأخرة ، منشغلا بالعمل طول الوقت ولا يميل لمشاركة أفراد أسرته ، في لهوهم ومرحهم مثل القيام برحلات للأماكن الخلوية . اننا نخال أنه متوقف عند نقطة ما في حياته ، كان واقفا فيها كلية تحت ضغط والدين جادين وصارمين وملزمين بأداء الواجب ، للدرجة أنه وجد أن الطريقة الوحيدة الآمنة للتقدم في الحياة إنما تتمثل في استبعاد « طفله » تماما ، أو أن يوصده . لقد وجد بالتجربة أنه في كل مرة يطلقه ، كانت تحدث متاعب : « اذهب الى غرفتك » ، « لا ينبغي أن يسمح للطفل بصوت » ، « كم مرة يتحتم أن أقول لك » ، « عليك أن تكبر ! » . وإذا كوفيء هذا الشخص الصغير أيضا للالتزام الكامل والجهد الدؤوب والادعان وتنفيذ ما يطلب منه تماما ، فس يبدو له أن طريق الحكمة هو الالتزام الكامل بشخصية « الوالد » ومن ثم فإنه يعتاد الاغلاق الكامل على « الطفل » وعدم مسايرة الطقولة . وهذا الطراز من الأفراد لديه القليل جدا من السعادة المسجلة في « الطفل » ، ومن المحتمل ألا يستطيع الاخراج عن « طفله » السعيد لأن الصغير الذي لديه « محدود السعادة » . (انظر شكل رقم ٣١) .

ويمكن مساعدته بإيضاح أن موقفه ليس عادلا بالنسبة لأسرته وأولاده ، وأن زواجه في الحقيقة قد ينقسم إذا أصر على محاولة الاغلاق على « الطفل » في زوجته وأولاده . ويستطيع من خلال الجهد الهادف عن طريق « الراشد » أن يقوم برحلة مع أسرته ، ويقطع ساعات عمله بالمكتب ، وينصت في حب (تقويم الراشد) لحكايات أولاده ، وأن يشترك في حياتهم . ويستطيع عن طريق « راشده » تحقيق قيمة الحب أو المحافظة على أسرته . أنه لن يغير طبيعة « والده » أو ينشئ « طفلا » سعيدا هو



شكل رقم ٣٢ - راشد تدخل معه
الطفل وألقى عنه الوالد



شكل رقم ٣١ - راشد تدخل معه
الوالد وألقى عنه الطفل

أصلا غير موجود عنده ، ولكنه يستطيع أن يتبصر الطرق التي تجعل ذلك مستطاعا لبناء حياة راضية في الحاضر .

الشخص المجرد من الضمير :

ويمثل « الراشد » المهيمن عليه « الطفل » ، و « الوالد » الموصد (شكل ٣٢) صعوبة شديدة جدا بالنسبة للمجتمع .

وتتطور هذه الحالة في الشخص الذي كان أبوه الحقيقي ، أو هؤلاء الذين أشبعوا دور « الوالد » فيه ، متميزين بالوحشية والارهاب ، أو على النقيض ، مفرطين في التدليل الى حد البله بحيث تمثلت الطريقة الوحيدة للحفاظ على الحياة في « اغلاق الوالد » أو « طرده » . وهذا هو الطراز النموذجي للسيكوباتية (*) ، وهو الشخص الذي يترك الموقف الأول (أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام) في السنوات الأولى من حياته ، ويتخذ موقفا جديدا هو موقف (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) . ويستنتج هذا الشخص الصغير تماما أن أبويه هما في الحقيقة (ليسا على مايرام) الى درجة أنه يطردهما خارجا تماما . وقد يبالغ في ذلك حتى يصل الى القتل . وإذا لم يفعل ذلك فهو على الأقل يستبعدهما نفسيا ، ولذلك فانه من وجهة نظره الخاصة ، ليس لديه « والد » . انه لا يطرد « الوالد » المذموم فحسب ، ولكنه يطرد أيضا الخير القليل الموجود في « الوالد » ، ويمثل هذا الشخص لا يوجه في معاملاته الجبرية أي شرائط مسجلة تمده بالمعلومات التي تتعلق بالانضباط الاجتماعي ، والتعليمات الصحيحة حول « ما يجب وما لا يجب » ، والمعايير الثقافية ، أو ما يمكن العودة اليه كضمير . ان سلوكه مسير « بالطفل » الذي يستطيع من خلال « الراشد » القاسم ، أن يستميل الأفراد الآخرين لتحقيق أغراضه . ان « راشده » يستطيع تقييم النتائج ولكنها تلك التي تتعلق بما لو كان سيقع أم لا ، ونادرا ما تتضمن عناصر الاهتمام بالآخرين . وبالرغم من أنه قد توجد استثناءات ، الا أن القاعدة العامة هي أننا لا نتعلم أن نكون محبين ان لم تكن قد نلنا الحب مطلقا .

وإذا تمثلت السنوات الخمس الأولى بكاملها في معركة حرجية من أجل البقاء الطبيعي والنفس ، فان هذه المعركة قد تستمر طوال الحياة .

(*) اضطراب عقل يجعل من الفرد عدوا للمجتمع - المترجم .

والطريقة الوحيدة لتحديد ما اذا كان الشخص لديه « والد » من عدمه ، تتمثل في تحديد استمرار مشاعر الخجل . ان هذه المشاعر التي تبقى في « الطفل » تنطلق مع ضربات « الوالد » « للطفل » . واذا لم تستمر هذه المشاعر ، فمن المحتمل أن يكون « الوالد » مقيماً . ولنا أن نستنتج أنه اذا لم يعبر رجل اعتدى على صغير ، عن أية مشاعر للاحساس بالذنب أو بالندم ، سوى ندمه على وقوعه في يد الشرطة ، فان هذا الرجل يفتقر الى « والد » يعمل في ذاته ، وينطوي ذلك على دلالات هامة قد تنفع المهتمين باصلاح المجرمين ، ومن الصعب علاج مثل هذا الشخص ، فلا يمكن للانسان أن يثير « الوالد » لأنه غير موجود . وقد أجرى عدد من التجارب على القردة التي فصلت عن أمهاتها الحقيقية وربيت مع أمهات بديلات في شكل دمي من السلك مغطاء بطبقات من القماش القطني السميك . ووجد أن القردة قد كونت في مستهل الطفولة انجذاباً قوياً نحو هذه الأمهات البديلات ، ولكنها حينما وصلت الى مرحلة التنظيف ، قلت قدرتها على التناسل وتربية الصغار (١٠) . لقد أصبحت تفتقد الكفاءة فيما يتعلق بخبرة الأمومة التي يحسبها الكثيرون غريزة من الفرائز . ان خبرة الأمومة لم تكن مسجلة في « الوالد » ولذلك لم يظهر منها شيء عند تشغيل التسجيل .

ان هذا التنبؤ قد لا يصدق على الانسان الذي قيد « والده » لأنه على خلاف القرد ، لديه ١٢ مليار خلية في عقله بمقام ١٢ مليار كومبيوتر ، يستخدمها في تقييم الحقيقة وبناء الاجابات ، حتى لو لم تكن قد سجلت مبكراً .

ان المجرم المضطرب عقلياً يستطيع أن يفهم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) الخاص به لدرجة أن « راشده » يستطيع توجيهه أنشطته بطريقة تجعل من الممكن تغيير مصيره من اقتراف جريمة والقاء القبض عليه ثم سجنه . وهكذا قد لا يكون لديه « والد » عامل لسانة « راشده » ولكن « راشده » يمكن أن يصير قوياً بما فيه الكفاية ليقوده الى حياة ناجحة يحظى فيها بالقبول وربما أيضاً بتقدير الآخرين . وهذا هو الاحتمال الذي يجب أن تعتمد عليه جهود اصلاح المجرمين وتقويم سلوكهم .

H. F. Harlow, "The Heterosexual Affectional System in Monkeys", American Psychologist, 17 (1962) : 1-9. (١٠)

الراشد الموقوف

ان الشخص الذى عنده راشد « موصد » (شكل رقم ٣٣) هو مصاب بالذهان (مضطرب عقليا) . ان « راشده » لا يعمل ولذلك فانه منفصل عن الواقع ، ومن ثم يفتح الطريق أمام « والده » و « طفله » مما ينتج في الكثير من الأحوال خليطا مهوشا للمعلومات القديمة والتجارب المبكرة التي تبدو غير منطقية حاليا ، لأن المعلومات لم تكن منطقية عند تسجيلها . وقد لوحظ ذلك في مريضة بمستشفى لأعراض النساء تخلل أدامها للتراويل الدينية « والد » الفاظ بذينة تدور حول وظائف الجنيد « طفل » . ان المضمون خارج عن المألوف ، ولكن يبدو أنه ترديد لصراع قديم بين « الوالد والطفل » حول الخير والشر ، ما يجب وما لا يجب ، التخلص والهلاك ، وقد كشف مضمون هذه المخرجات اللفظية عن قدر كبير مما يتغلق « بوالدها » و « طفلها » . أما حقيقة أن « راشدها » غائب فقد أظهر عنف الصراع . ان المعركة عنيفة جدا . « لن أحاول » ولا يعنى هذا القول أنها تجد راحة في الاستسلام ، فقد كانت واقعة تحت رحمة المشاعر المرعبة التي عانتها في طفولتها .



شكل رقم ٣٣ - الراشد الموصد أو الموقوف (المريض العقل)

وتتركز الخطوة الأولى لعلاج المضطرب عقليا في تقليل مشاعر الفزع هذه . ومن الأمور الأساسية لشفاء المريض ، احساسه من الوهلة الأولى للقاءه بالطبيب النفسي - بالموقف الواضح (أنا على ما يرام وأنت

على مايرام) • فى سنة ١٩٦٣ أبلغنى زميلى جوردون هايبرج - يآثر هذا الموقف على مرضى الاضطراب العقلى ، الذين كان يعالجههم حينذاك فى مستشفى ولاية ستوكتون :

يبدأ العلاج مع بداية تبادل النظرات بين الطبيب النفسى والمريض ، عندما يدخل الطبيب المعالج من الموقف الأساسى (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) • ان المضطربين عقليا متلهفون على إقامة علاقة أقوى مع الناس ••• وعندما يواجه هؤلاء الأفراد السريعو الفهم عادة ، شخصا يتخذ موقف (أنا على مايرام وأنت على مايرام) فان ذلك يشكل تجربة جديدة ومثيرة بالنسبة لهم ، ويقع « الراشد » فى شبكة هذه المواجهة الانسانية ويبدأ فى التساؤل قائلا : « كيف تكون أنت فى الخارج بينما أنا فى الداخل ؟ » ولا يتلقى ردا سريعا على السؤال ، وأما فى الوقت الذى يحنس فيه المعالج انه مهيا لاستقباله بعد ان يكون الطبيب النفسى قد انتهز الفرصة لتعديد أكثر للتاورات او اللعبات التى يستخدمها الشخص تقيرا ، يقال للمريض ببساطة وبطريقة مباشرة مثلا : « أنت تخيف الناس وتفرعهم » ••• أى أننا نخبره صراحة انه على مايرام ••• انه يشعر بالأهمية بسبب تفرد وجوده البشرى مما يشبع فى نفسه الأمل • وعندما يستطيع « الراشد » ان يبدأ فى تصنيف المعلومات ، والاتصاف ، والتعلم ، والمعاونة فى اتخاذ القرارات ، تبدأ القوى التوليدية الجديدة فى العمل وحدها وتبدأ عملية العلاج تبعا لذلك (١١) •

وكثيرا ما تحتوى مجموعات العمل الخاصة بى والتي تتضمن فى أى وقت عددا يتراوح ما بين عشرة الى عشرين مريضا ، على مرضى بالذهان • وعند اعداد فريق متماقد على أساس نموذج (أنا على مايرام وأنت على مايرام) ، يشعر المريض بالذهان - بأنه يتلقى المعاونة والمديح والطمانية • وهنا يكون المسرح قد أعد لعودة « الراشد » •

وفى إحدى مجموعات المستشفى ، أخذت إحدى السيدات فى تسوية جونلتها مرات ومرات وشدها الى أسفل ركبته خلال الجلسة التى استمرت ساعة ، بالرغم من أن هذا العمل لم يردون ملاحظة ، فان أحدا لم يفعل شيئا حياله ، أو ينظر باستنكار ، وبالتالي استمرت المجموعة فى المناقشة • وكانت هناك ثلاثون دقيقة من هذه المناقشة لتعليم نموذج

(١١) G. Halberg, "Transactional Analysis with State Hospital Psychotics", Transactional Analysis Bulletin, Vol. 2, No. 8 (October, 1963).

(الوالد - الراشد - الطفل) ثم يلي ذلك المناقشة . وعند نهاية الساعة اذا بالرجل المجاور للمرأة يقول لها : « هل تعرفين أننى أحصيت عدد المرات التى سويت فيها جورلتك » لقد فعلت ذلك تسع عشرة مرة » .
فقالت فى عجب يخالطه شعور بالسعادة لهذا الاكتشاف : « أنا فعلت ذلك ٩ » .

كانت قادرة على قول هذه الاجابة الصادرة عن « الراشد » دون خوف من التهديد . اما انبثاق « الراشد » مهما كان ضئيلا ، فانه هو بداية إعادة الاتصال بالحقيقة ، وأن المسرح معد لدراسة نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) الذى يجرى من خلاله أوسع اكتشافات المريض لسلوكه الذاتى .

ويرتبط بالعلاج الجسمى ، استخدام العقاقير للمساعدة فى رفع الروح المعنوية وتهدة الهياج الشديد ، وفى حالات الاحباط الشديد ، يستخدم العلاج بالصدمة الكهربائية وتأثيره هائل جدا فيصبح المريض بعد جلستين أو ثلاثة ، بشوشا ، ومسترخ ، وراغبا فى الحديث . ويمحو العلاج مؤقتا ، التسجيلات المؤلمة القديمة ، ويسمح بعودة « الراشد » ومن ثم يستطيع المريض تحت قيادة « الراشد » أن يبدأ فى تعلم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ، لمعرفة من أين تاتى المشاعر القديمة ، وكيف يستطيع التخلص منها بنفسه .

الانفلاق المرحل فى الشخصية المصابة بالهوس الانقباضى : Manic-depressive

ان الشخص الذى لديه « والد » مسنقر أو « طفل » مستقر ، يطفى على المتصرين الآخرين ويستبعدهما - يستجيب للأحداث المحيطة به بطريقة ثابتة يمكن التنبؤ بها ، وتبقى حالته النفسية ثابتة أيضا .

والكثيرون منا لديهم تغيرات مزاجية ، حيث أن كل جزء من جهازنا المكون من (الوالد - الراشد - الطفل) يساهم بدوره فى تفكيرنا وسلوكنا . وفى بعض الأيام نشعر بأننا على مايرام ، وفى بعض الأيام الأخرى يخامرنا شعور معاكس . واذا حولنا فاننا نستطيع عادة أن نكتشف سبب ارتفاع معنوياتنا ، أو هبوطها . وفى بعض المرات تكون الأسباب مراوغة ، أو لاتبدو متعلقة بأى علامة محددة فى الحاضر ، وقد اختبر كثير من الناس حالة تقلب المزاج مع تغير الفصول . وفى موسم

الاجازات تكثر حالات الاحباط كما هو واضح من تزايد الحالات المرضية في عيه الميلاد . كذلك فأن مقدم فصل الخريف يؤدي الى البهجة لدى الكثير من الناس حيث يعاد تشغيل اشربة العودة للمدرسة القديمة ، و « نستنشق » مرة أخرى النكهة المثيرة لصناديق الاقلام ، والأرضيات المدهونة بالزيت ، وأقلام الرصاص . ونفس هذه الروائح قد تؤدي الى الاحباط لدى بعض الناس ، اعتمادا على ما حدث في تلك السنوات الدراسية المبكرة . ويعاد تشغيل العديد من التسجيلات القديمة لتنتج « المنويات المرتفعة أو المنخفضة » التي خبرناها جميعا . والكثيرون منا يتجاوزون المشاعر الحزينة ، ويستمتعون بالمشاعر الطيبة ، لان « الراشد » يظل مسيطرا ويجعل سلوكنا سليما .

وهناك حالة تصبح فيها تغيرات هذه الامزجة متطرفة ، وتؤدي الى سلوك مبالغ فيه ، لا يكون « للراشد » سيطرة عليه . ولا يكون « الراشد » غير قادر على التحكم في السلوك فقط ، بل أيضا غير قادر على اكتشاف سبب تغير المزاج . وتوجد هذه الحالة لدى الشخصية المريضة بالهوس الانقباضي ، ويصاب المريض به - بين حين وآخر - بتقلبات مزاجية شديدة وليس لها تفسير . وفي حالة الهوس أي عند الحالة القصوى ، يشعر بالابتهاج وأنه يقف على قمة المسالم ، وأنه مغم بالحيوية ، وقد يصبح كثير الكلام أو عدوانيا . ويبدو كما لو كان « طفله » يفر معه من هذا العالم .

ويبدو أن « الوالد » ليس له تأثير يحد من هذه الحالة عند الوصول الى هذه المرحلة . ويشعر الشخص بأنه لا يقدر أن يرتكب خطأ ، ويقفز من شيء الى آخر ، صارفا سعادته في نشاط واحد ، لا يتخلل عنه الا للقيام بعمل مبهج مغم بمغامرة أكثر ، كما لو أنه كان من وجهة نظره الخاصة - يختبر الى أي مدى يستطيع أن يمضي في نوبة سعادته هذه . والمشكلة هي أنه رغم شعوره بالعظمة الا أن « راشده » قد أضيء ، أو أفسد ، ولم يعد سلوكه حقيقيا ، وقد يتعالى على الآخرين . وإذا اشتد به الأمر فقد يلزم احتجازه ، أو يودع في مستشفى . وفي النهاية ، يهبط ويستعيد ما يبدو أنه فترة استقرار قد تستمر لمدة طويلة . وخسلا هذا الوقت يكون « الراشد » مسيطرا على سلوكه الذي يبدو حقيقيا ومتامبا ، ثم يقوئ لسبب لا يعلمه ، في خضم فترة من الاحباط الشديد ، ويختفي الاحساس بأنه على ما يرام بطريقة سرية مثلما ظهرت ، وتبدو الحياة فارغة ، وتتبدد حيويته ، ويود « والده » بالانتقادات المخزونة والاستبداد القديم . ومرة ثانية يصاب « الراشد » بالضرر ، ويسكن الشخص في حالة الاحباط .

ويختلف المصاب بهذه الحالة عن الآخرين الذين يعيشون كل يوم حالات النشوة والاكثاب العادية ، من حيث حقيقة أن هذه التغيرات المزاجية تبدو مستعصية على التشخيص . كذلك فإن هذه التغيرات المزاجية تحدث على فترات ، ومتكررة . ولكي نفهم ما الذي يجري أثناء تلك الدورات ، فمن الضروري معرفة أن كلا من الاحساس بالقدرة على كل شيء المصاحب لحالة الخلل ، والاحساس بالتفاهة المصاحب لحالة الاحياط ، يمثل المشاعر المسجلة في « الطفل » . ويمثل كلاهما استجابات للتسجيلات القديمة في « الوالد » . وفي كلا الحالتين يكون الحوار الداخلي دائرا ما بين « الوالد - الطفل » وفي مرحلة الاحياط يكون « الوالد » منهمكا في ضرب « الطفل » . أما في حالة الهوس فيمدح « الوالد » « الطفل » وكما هو الحال في تحليل كافة المشاعر ، فمن الضروري توجيه هذا السؤال : « ماذا كانت المعاملة الأصلية ؟ » وغالبا ما نجد في الشخصية المريضة بالهوس الانقباض « والدا » قويا ، ان لم يكن مستبدا ، يتضمن أوامر وتصانيع متناقضة مسجلة مبكرا ، ربما على أساس قاعدة ملاحظات بياجيه ، خلال العامين الأولين من العمر - عندما كان « الراشد » في الشخص الصغير قد ارتبط لأول مرة بعمل نظام العلة والمعلول . وفي هذه الفترة العصبية ، لو كانت هناك تناقضات عاصفة ومخالفات ، فإن « الطفل » قد يبعد عن محاولة التوصل الى بدء السببية قائم على التفكير والتدبر (ليس للأمور معنى مهما قلبت على أوجهها) . وقد ينظر لما يحدث له على أنه مسألة « وقت » وليس علاقة الأشياء بالأحداث . ولا يستطيع الشخص المريض بالخلل العقلي أن يقرر ما الذي يدفعه الى الاحساس بالانقباض أو النشوة بالنسبة الى الأمور التي كانت عليها . حالته في البداية . ويكون مزاجه غير متوقع في المستقبل في اللحظة الحاضرة مثلما كان في اللحظة السابقة ، لأن الأبوين اللذين يماقبان ويمتدحان لا يمكن التنبؤ بلحظة ظهورهما . وقد كتبت فريدا فروم رايتسمان أن الشخص الذي يظهر عليه تدلب الهوس الانقباض قد وقع - كقاعدة عامة - تحت طل تناقض عظيم ، ولم يستطع « الراشد » في نفس الصبي أن يترك التغيرات المرحلية في أبويه . ولذلك اعتزل « الراشد » في محاولة أخيرة لاتخاذ موقف (أنا لست على مايرام ، وغير متأكد بالنسبة لك) . ان « الطفل » صار يعرف على أي حال « أن الوقت قد أوقف لحظوث شيء ما » . أو أن « كافة الأشياء الطيبة لابد أن تنتهي » . لقد حدث بالفعل . ومنيتحدث الآن . ان حقيقة وجود أشياء طيبة ، وأشياء طيبة جدا ، التي يعاد سماعها في حالة الهوس ، قد تظهر أن « الوالد » (وهو في العادة الأم حيث أنها كانت أكثر الأشخاص تأثرا في العامين الأولين من العمر) ، أعطت في

الحقيقة حنانا عظيما وقبولا يضافان الى احساس المريض بالتبذ • ولم تكن استجابة الأم « الوالد » للطفل ترتجع بداية الى ما فعله الصغير ، ولكن الى تقلباتها المزاجية أو التغيرات المؤثرة في شخصيتها •

فكروا معي في مدى الصعوبة التي يلقاها الصغير ذو العامين في محاولة فهم ما يجسرى عندما تتغير الأم دوريا وكنية من احدى نوعيات الشخصية الى نوعية أخرى • ان في استطاعتنا احصاء عدد من الأسباب لهذا النوع من التغير • أحدها هو تعاطي المسكرات • الأم هنا تبص بالنشوة ، انها تحتضنه وتدلكه وتدغدغه حتى يصرخ ، وتلعب معه لعبة المسكة حول المنضدة • انها تقذف به في الهواء • انها تصفق بيديها وتضحك في هستيرية عندما يسك القطعة من ذيلها ويطوح بها في الهواء • ياء ! ان الحياة عظيمة ! ثم تفقد الأم وعيها وتترك الصغير وحيدا عند ساعات • انه جوعان ، وفارغ •

لقد مضت • • ومضى الحنان • • كيف يستعيدنا ؟ ماذا حدث ؟ انه لايعرف • وفيما بعد نستيقظ مريضة • انها لا تستطيع ان تنظر اليه • انها تدفعه بعيدا ولكنه يبكي ويعود اليها ثانية • انها تضربه • ماذا حدث ؟ ماذا حصل ؟ لقد كانت تمنحه احساسا طيبا من قبل • انها الآن تمنح احساسا سيئا • انه يصرخ ويصرخ حتى ينام • ويأتي الغد • ان الروح المعنوية للأم مرتفعة مرة ثانية • ونمضي معا • لقد كانت الليلة الماضية سيئة جدا • وهامى ذى الآن تتحسن ثانية • وبالطبع ستبوء مرة ثانية • أنا لا أعرف لماذا ، ولكن كل شيء سيتغير في وقته • انها حالة طيبة بصورة مخيفة (هوس) وسيئة بصورة مخيفة (انقباض) • ان الخوف هو الذي توصف به كالتسا الحالتين بسبب الواقع المعاش الذي يخبره أن التغير سيأتي فجأة ، وشاملا ، ودون توقع •

وهناك حالات أخرى في الأيوين تؤدي الى هذه النوعية من التقلبات مثل : ادمان المخدرات • التطرف الديني (الانفصال الزائد عن الحد ، أو الاستبعاد الزائد عن الحد • بالشئون الصوفية الدينية) ، أو الذهان (اختلال عقل حاد يؤثر على شخصية المصاب تأثيرا شاملا) ، أو تكون الأم ذات شخصية منقضة ، لاستجيب للكحول ، بل للتسبيجات القلبية التي يظهر تأثيرها الآن في ولدها • ان الخلل العقلي يجري في دم العائلات • ومن السهل رؤية كيفية انتقاله • ان احساس « الطفل » بأنه على غير مايرام ، يتعاطم في مثل تلك الأحوال ، فهو قد يرى خلاصه في محاولة ارضاء « الوالد » أي أنه يستطيع أن يكون على مايرام (لو) ، ولكن أسلوب

الشرط حفظ التغيير (فى الليلة الماضية عندما طوحت بالقطة من ذيلها ابتسمت واحتضنتنى ، وقد فعلت ذلك مرة أخرى صباح اليوم . ولكنها تضربنى) . وعندما يكبر الصغير تقوى هذه الأنواع من الاستجابات غير المستقرة . ان الصغير يعاقب بشدة لاستخدام « كلمات بذينة » ، ولكنه فى هذه الليلة يسمح أباه الثمل وهو يقيم وليمة لأصدقائه وهم يلعبون البوكر مع حكايات عن براعة ابنه ، وفى النهاية ينسأدى الصبى مصمما (على عكس الأمر السابق) على أن يقصر على المسم هارى النكتة التى حكاها من قبل .

وعلى ذلك فان الشخصية المصابة بهذا الهوس يمكن رؤيتها كشخص أبعد « راشده » النامى عن عملية بناء نظام العلة والمعلول القائم على موافقة أو توبيخ « الوالد » . وحيث أن هذه الموافقة أو التوبيخ قد فسرت غالبا بواسطة الاستحسان أو التوبيخ الشفوى فان المزاج المتأرجع للكبار المصابين بهذا الهوس ، يؤدى أيضا الى الاحساس أثناء حالة الاختلاف بأن « الحياة غنية » والاحساس خلال حالة الاحباط بأن « الحياة فارغة » .

ومن الضروري كما هو حادث فى علاج كافة المشاكل الوجدانية ، ربط « الراشد » باختبار الاحاسيس ، وتشجيع « الراشد » على السؤال بكلمة : لماذا ؟ . أما الصعوبة العظيمة البادية فى علاج حالة الهوس الانقباضى فتتمثل فى أن « الطفل » قد توقف مبكرا عن السؤال بكلمة : لماذا ؟ وهو فى الحقيقة قد قرر ألا يعاود السؤال .

ويذكر فروم رايشمان أن الهوس الانقباضى يتصف « بفقدان القدرة على الملاحظة الصحيحة ، وفقدان الاحتمام ، والتدريب المبكر على الاستبطان أى قدرة المرء على فحص أفكاره وتصرفاته وتفهمها » . وهذه القدرات المبنية على الملاحظة ، انما هى نتاج القرار المبكر . ويتكون العلاج من إعادة « الراشد » الى موقفه السابق اعتزاله أى الذى كان فيه يدير مبدأ « العلية - Causality » . وحيث أن الفاصل بين « الراشد » و « الطفل » والشخص قد تحطم ، وأن الشخص قد اكتنفته المشاعر ، فمن الضروري غالبا ، اعطاء المريض المساعدة من خلال العلاج باستعمال العقاقير المهدئة ، أو المضادة للاجباط ، أو الصدمة الكهربائية . ومادام « الطفل » قد هدأ ... فان « الراشد » يبدأ فى العمل . ويمكن مساعدته على كشف أسباب النوبات المزاجية « غير القابلة للتفسير » . لقد كان « الطفل » فى البداية تحت رحمتها ، والآن يستطيع الشخص أن يتوصل لمعرفة أن ما يفعله هو الذى يحدد المديح أو التأنيب الذى سيناله . أما المديح أو التأنيب الذى

يلقاء اليوم فقد لا يكون في مثل كثافة ذلك الذي تلقاه في الطفولة -
ولن يؤدي المسيح الى الخلل الشديد ، كما أن الاحباط لن يؤدي اليه
التأنيب - ولكنه متحرر من القلق الشديد الخاص بعلم القصة على التنبؤ
بالمستقبل الذي يساوره حتى في حالة الهوس .

الملل المستقر :

وهناك طراز من الافراد باهتي الشخصية الذين تتميز تسجيلاتهم
في « الوالد » و « الطفل » بأنها تافهة. لدرجة أن الواحد منهم يفتقد بحق ،
المواد الخام الضرورية لتكوين الشخصية ، وفي الغالب فإن ذلك يعبر عن
نفسه مرضيا ، في الشخص الذي يعاني من اكتئاب غامض (السمادة
للآخرين) أو أنه ببساطة قد أحس بالملل من الحياة . لقد كان أبواه
غبيين وعاجزين عن التعبير عن رأيهما ، وجمعان بين موقفين متعارضين ،
وكانت العقوبة نادرة ، والمكافأة أيضا نادرة ، كما كان هناك حساس قليل
تجاه أي شيء . وهو كشخص صغير لم يتعرض لاثارة العالم الخارجي ،
ونادرا ما كانت له علاقات بالصفاء الآخرين . وبالرغم من أنه كان ولدا
طيبا اذ لم يسبب أي متاعب خاصة ، الا أنه لم يكن بالصغير الذي يلاحظه
أحد . لقد أدرك « راشد » الحقيقة ، ولكنها لم تكن بالحقيقة السارة .
وربما يكون قد كبر بحيث يتمتع « براشدا » متحرر ، ولكنه « راشد »
لا يرى أية قيمة ايجابية في محاولة التواصل مع الآخرين (يلبس المرء
هذا النوع من القيم لأول مرة في « الوالد » لو صح حقا أنها قيمة من قيم
« الوالد ») . ان شخصيته تشبه الحاسب الآلي ، فبينما يتمتع الآخرون
أنفسهم في سفل ، فإنه يقلب مجلة في ركن ، مؤديا العمل الوحيد الذي
يعرف أن يعمل : غرلة المعلومات . وإذا حضر في النهاية للعلاج ، فإن
سؤاله سيكون شيئا مثل : « ألا يوجد ما هو أكثر من ذلك في الحقيقة ؟ »
وبالرغم من أنه لا يمثل مشكلة للمجتمع الا أنه يعتبر مشكلة بالنسبة
لنفسه . ان حقيقته محدودة بنفس محدودة واقعه في بداية حياته .

وينطبق هنا رأى الفريد نورث هورثيهيد من وجهة نظر خاصة
حيث يقول ان « تعليم الأخلاقيات غير مستطاع بعيدا عن الرؤية المعتادة
للعظمة » . وإذا فكرنا في الأخلاقيات على أنها نظام قيمي ، وإذا لم تكن
« مملة » أو كانت « مثيرة لاهتمام الآخرين » أو « خلقة ومنتجة » ، فإنها
تكون قيما ايجابية . ومن الواضح أن الشخص الذي كانت انطباعاته

الأولية عن الحياة فاترة ، سيكون هو نفسه بليدا ، اذا لم تظهر في طريقه بعض العلاقات العظيمة .

وهناك أسباب أخرى للملل ، فتجد مثلا أن الشخص الصغير الذي تلج عليه أسئلة في مطلع حياته مثل : لماذا يرتفع الدخان ؟ ولماذا ينزل المطر ؟ ومن صنع الله ؟ ومن صنعه ؟ انه يتلقى باستمرار اجابات مراوغة ، تزيد من حيرته ويتضح له فيما بعد أنها خاطئة . وفي نهاية الامر يتخلل عن السؤال ، ويتخلل عن الاستكشاف ، ويتوقف عن الاهتمام ، ويبدأ حياة الملل ، ويبدأ حاصبه في الانغلاق على مناطق واسعة تتطلب الاهتمام ، لأن الاجوبة على أسئلته لم تزد الا من حيرته ، ويظهر هذا النوع من الملل بين طلبة المدارس العليا والكليات حيث ينمو الملل لديهم من الاجابات المبسطة التي يتلقونها خلال البحث عن الحقيقة ، والموانع التي فرضت على متابعتهم للحقيقة ، والى أين تقودهم ، فيتصورون أن عليهم الاختيار بين الايمان والحقيقة ، وأن كليهما ينفي الآخر ، ورغم أن من رجال الدين من لا يجد حرجا في النقاش ، ويتعمق في البحث ، الا أن الكثير من المجتمعات الدينية تطرح العقيدة طرح المسلمات التي لا تناقش .

ومع تقدمنا في الدراسة رأينا كيف أن الناس تختلف حسب الترتيبات البنائية المختلفة لدى « الوالد » و « الراشد » ، و « الطفل » وتظهر أغلب هذه الاختلافات كمشاكل مرضية ، وتختلف أيضا اختلافات صحية ، لأن « تعريف الصحة » يتمثل في أنها « راشد » متحرر مسئول دائما عن كل المعاملات . ويعنى هذا أن « الراشد » يأخذ البيانات من « الوالد » ومن « الطفل » ومن الحقيقة ، ثم يتوصل الى قرار حول ماذا يجب أن يفعل . وكلما أخذت المعلومات عن مصدر غنى ، كلما زادت احتمالات الاشباع . ان الصغير الذي تضمنت تجاربه المبكرة استكشافا غير معوق للقصور والحلل ، والطين المتد بطول أحواض الزهور ، والحشرات ، والأصدقاء ، والرحلات الى الريف ، والأمسيات التي تحكى له فيها القصص ، والاجازات التقليدية في البيئة المحيطة ، واللعب التي يتحكم فيها ، والتسجيلات التي يستمع اليها ، والمحادثات المفتوحة الودودة مع الأقران غير المتمجدين ، والعديد من المشاعر الايجابية في حياته - هو أفضل من الشخص الصغير المنعزل والذي يحاط بالحماية الزائدة ، والشخص الصغير الذي يختبر مبكرا أساليب التغلب على موقف الاحساس بأنه هو أو غيره . ليسا على مايرام ، انما يقوى « راشد » ، ويتشجع للتقدم نحو الاستكشاف والتحكم الأوسع ، ومن ثم يتحول الى « طفل لامع » يكتسب لنفسه المديح والثقة بالنفس اللذين يدفعانه لأن يصير أكثر لمعانا .

أما حقيقة أنه يجلب الثقة للأسرة فإنها لا تقلل من حقيقة أنه يكتسب الثقة لنفسه ، إذا لم يمارس أبواه ضغطا مفرطا ، ويفرضان عليه طلبات ليست في حدود اهتمامه ، خلال هذه العملية .

ومن خلال فهمنا لنموذج (الوالد - الراشد - الطفل) في كل منا نستطيع أن نصل إلى فهم ما يلزم في « الوالد » و « الطفل » بل وأيضا مالا يحد من ذلك . فإذا استطاعت الفتاة التي تتحسر لأنها تشعر بأنها بسيطة وغبية . . . ولا تزيد على ذلك ، أن تقدر العجز في « والدها » و « طفلها » لأن معرفتها بالحياة بسيطة ساذجة ، تستطيع حينذاك أن تتحرر مع « راشدها » للوصول إلى الحقيقة واكتشاف أن الحياة تزخر بأشياء مثيرة . وقد تستغرق فترة لتتركها ، ولكنها تستطيع أن تجد المساعدة لمعرفة أنها صاحبة الاختيار . وإذا قلت « أستطيع أن أكون مختلفا » ، فإن ذلك يساعدك كثيرا .

الفصل السابع

كيف نستخدم الوقت

(إن الوقت هو ما نريده أكثر من غيره ، ولكن يا للعجب ! اننا نستهمله اردا استعمال - ولیم بن) •

يُعتبر استكشاف الفضاء واحدا من أكثر المغامرات العلمية إثارة في هذا القرن ولا يكفينا أن نعرف أنه لا نهائي ، لأننا نريد معرفة المعالم التي تسهل التعرف على النقاط البارزة لكي نتحدث عنها - بما في ذلك منصات لأقمارنا الصناعية ، ومواقع محسوبة رياضيا نستطيع أن نصوب إليها مركباتنا الفضائية • اننا نريد أن نستوعب الفضاء ونضع له تعريفا حتى نستعمله أفضل استخدام •

أما الحقيقة الكونية الأخرى فهي الوقت • قد نتأمل في نهاية وجودنا على الأرض ، وقد نؤمن بالخلود في مواجهة الموت الذي يتمتع فهمه ، ولكن علينا في تعريفنا للوقت أن نبدأ من حيث نقف تماما مثل مجهوداتنا الخاصة بمحاولة وضع تعريف للفضاء ، وكل ما نستطيع أن نعرفه هو أن متوسط ما يخص الفرد من الزمن لا يعتمد سبعة عاما ، ماذا نفعل بتعييننا المحدد ، هذا هو ما يعني • وما يعني بالأكثر هو ماذا نفعل بالمجموعات الصغيرة من الزمن التي في أيدينا : الاسبوع القادم ، واليوم التالي ، والساعة التالية ، وهذه الساعة الحالية •

ونحن جميعا نشاطر ذراتيلى الاحساس بأن « الحياة أقصر من أن تكون صغيرة » • ولكن الاحباط الأعظم يتمثل في أن معظم الحياة ربما كان

هو ما يتفوق على استكشاف الفضاء منويا وجراميا ، وأعني به فحس استكشافنا للوقت : قال جون هاو : « يالها من حماقة أن نرتد من فكرة التخطيط من الحياة مرة واحدة ، ولكننا لا نأبه أن نبددها على دفعات » . وكما هو الشأن بالنسبة للفضاء ، فاننا لانكتفى بفهم الزمن على أنه مجرد شئ لانهاى . والسؤال الملح بالنسبة لاناس كثيرين هو : « كيف سياتحرك خلال الساعة القادمة ؟ » وكلما كان هناك تخطيط أكثر للوقت كلما خفت صعوبة هذه المشكلة ، ولا يملك الناس المشغولون تماما بالمطالب الخارجية العديدة وقتا ضائما إذ أن « الساعة التالية » قد تم التخطيط لها جيدا . وهذا التخطيط أو البناء هو ما يحاول الناس أن يحققوه ، وعندما لا يستطيعون ذلك بأنفسهم ، فانهم يطلبون من أشخاص آخرين أن يضعوا لهم برامج زمنية « قل لى ماذا أفعل ؟ » ، « ماذا أفعل بعد ذلك ؟ » ، « ان ما نحتاج اليه هو القيادة » .

ان الحاجة الى التخطيط تفوق الحاجة الى المصارفة التي تسمى من الحاجة المبدئية للمديح . ان الصغير ليست لديه المعرفة الضرورية بالوقت حتى يخطط له ، ولكنه ببساطة يرتب لعمل الأشياء التي يشعر أنها طيبة لحظة بلحظة . وبينما هو يتقدم قليلا في العمر يتعلم أن يرجو التشجيع لأجل مكافآت أعظم : « أستطيع أن أخرج للعب مع سوزى الآن ، ولكننى اذا انتظرت عشرين دقيقة أخرى وارتيديت فستاني الرقيق ، أستطيع أن أذهب الى المركز التجارى مع أبى » . وهذه المشكلة أساسية فى التخطيط للوقت : أى الاختيارين سيكون أكثر امتعا ، وأيهما يسودى الى مكافأة أكبر ؟ ومع تقدمنا فى السن يكون لدينا اختيارات أكثر وأكثر . وعلى أية حال فان موقف (ليس على مايرام) نحفظنا من ممارسة هذه الاختيارات بحرية أكثر مما نظن ، ونحن قادرون من خلال ملاحظتنا للمعاملات بين الناس - على اقامة صبة أنماط من الخبرات ، متضمنة كل المعاملات .

هذه الأنماط هي : الانسحاب ، والطقوس ، والأنشطة ، وتبيلية وقت الفراغ ، والاعباب ، والألفة .

وبالرغم من أن الانسحاب لا يعتبر معاملة مع شخص آخر ، الا أنه مع ذلك يمكن أن يحدث فى الإطار الاجتماعى . ان الرجل الذى يتناول الغداء مع جماعة من الرفاق المثيرين للبلل ، الذين يهتمون برائحتهم أكثر من راحتهم ، ينسحب الى أوهام الليلة الماضية ، عندما كانت المجاملة أفضل ، وبينما لا يزال جلسه على متصلة الغداء ، فانه هو نفسه غير موجود . ان فضول الدراسة فى يوم ربيع لطيف مزودة بالأجسام التى تهيم

أرواحها في ذكريات المرح في حوض السباحة ، أو اللهو مع الأصصدقاء
أو مغازلة الفتيات . وعندما ينسحب الناس بمثل هذه الطريقة فمن المؤكد
أن الانسحاب يبعدهم عن هؤلاء الذين يجاورونهم بالجسد . وهذا لا يضر
إذا لم يحدث طول الوقت .

أما الطقوس فهي استخدام للوقت مختلط اجتماعيا حيث يوافق
كل فرد على عمل نفس الشيء . انه في أمان . ولا يوجب التزام نحو شخص
آخر أو تورط معه ، والنتائج محسوبة مسبقا ، ويبحث على السعادة طالما
أنت ملتزم بالخطوات أو منفذ للشيء الصحيح . وهناك طقوس للعبادة ،
وطقوس للتحية ، وطقوس لحفلات الكوكيتيل ، وطقوس لغرفة النوم .
إن الطقوس قد رسمت ليتمكن فريق من الناس من تضيئة الوقت المعين
دون أن يضطروا الى التقرب الى أى شخص ، وربما حدث ذلك التقرب ،
ولكنه غير مفروض عليهم فالملاقات الجنسية في الظلام ، أقل إحراجا
بالنسبة للأفراد الذين لا ترقى درجة علاقتهم الشخصية الى دفع علاقاتهم
الجنسية ، وهناك فرصة أقل للانسحاب في حفل كوكيتيل عنها في تناول
غداء لستة أفراد . هناك التزام أقل ، وبالتالي انسحاب أقل ، فالطقوس
مثل الانسحاب يمكن أن تحافظ على الفوارق بيننا .

أما النشاط كما يراه برن ، فهو طريقة عمومية ومناسبة ومريحة
ونفعية ، لتخطيط الزمن بمشروع مصمم للتعامل مع الواقع الخارجي
أو المادى (١) . أن الأنشطة العامة تحفظ مواعيد العمل ، وعمل أطباء
الطعام ، وبناء المنازل ، وتأليف الكتب ، وجرف الثلوج ، والاستعداد
للامتحانات .

أما هذه الأنشطة من حيث كونها منتجة وخلاقة ، فقد تتضمن في
حد ذاتها أعلى درجات الرضا ، أو أنها قد تقود الى الرضا في المستقبل على
هيئة الثناء الذى قد يناله المرء عندما يؤدي عملا باقتان ، ولكن لا توجد حاجة
للاندماج الحميم مع شخص آخر خلال وقت أداء النشاط ، وقد يكون ذلك
موجودا ولكنه غير مفروض . إن بعض الناس يستخدمون عملهم لتفادى
الآلة فيعملون بالكتابة ليلا بدلا من العودة للبيت ، مكرسين حياتهم
لاكتساب الملايين بدلا من اكتساب الأصدقاء .

(١) E. Berne, "Transactional Analysis in Psychotherapy", (New York : Grove Press, 1961), n. ٥5

ان الانشطة يمكن أن تبتعد بنا بعيدا ، تماما مثل الانسحاب .

اما تسلية وقت الفراغ فهي وسيلة لقضاء الوقت . ويعرف برن التسليّة لتمضية الوقت بأنها :

علاقة تكون فيها المعاملات صريحة . . . قد تنطلق تسليّة وقت الفراغ من أجل التسليّة ذاتها وتؤدي إلى أرضه الذات إذا تمت مع اناس سعداء او منظمين جدا ، على أن تكون قدرتهم على الاستمتاع سليمة لم تفسد . أما التسليّة مع غيرهم خاصة المصابين بأمراض عصبية فتكون حسب دلالة اسمها ، مجرد طريقة لتمضية الوقت (أي تخطيطا للوقت) ، وحتى يصل الانسان إلى معرفة الناس جيدا ، وحتى يتم انجاز هذه الساعة ، او على نطاق واسع حتى وقت النوم ، او حتى وقت الإجازة ، او حتى بداية الدراسة ، او حتى حلول العلاج ، او حتى حلول شكل من أشكال المؤهبة ، أو النجدة ، أو الموت . وتعتبر التسليّة بفرض تمضية الوقت - من وجهة النظر الوجودية - طريقة لتجنب الذنب ، أو اليأس ، أو المودة ، أو أداة أوجدتها الطبيعة أو الثقافة لتخفيف اليأس البطيء . وهي تعتبر من الوجهة المتفائلة على احسن الفروض ، شيئا يستمتع به الانسان لذاته ، وهي تعمل على الأقل كوسيلة للتعارف ، يهدف منها المرء إلى تحقيق التفاهم المرغوب مع الكائنات البشرية الأخرى ، وعلى أية حال فإن كل المشتركين يستغنمونها بطريقة الفرصة المتاحة ليحققوا منها أية مكاسب أولية ولأثوية مستطاعة (٢) .

أما هؤلاء الذين لا يستطيعون المشاركة في تسليّة وقت الفراغ فليسوا موهوبين اجتماعيا ، ويمكن النظر إلى تسليّة وقت الفراغ على أنها نوع من الفحص الاجتماعي ، حيث يطلب الانسان معلومات عن المعارف الجدد بطريقة تخلو من التهديد وغير متميزة . وتنعصر ملاحظة برن في أن تسليّة وقت الفراغ تشكل قاعدة لاختيار المعارف ، وقد تقود إلى الصداقة ، وفيما بعد قد يتمتع الذين يمارسونها بخاصية « تأكيد الدور وتثبيت الموقف » .

وقد أعطى برن بعض الأسماء السائرة الساحرة لبعض من ألوان أنشطة وقت الفراغ ، التي يمكن ممارستها في حفلات الكوكتيل ، وغداء السيدات ، وجلسات العائلات ، والنوادي الخاصة ، حيث تدور نوعيات

B. BERNIE, "Transactional Analysis in Psychotherapy". (New York : Grove Press), p. 88. (٢)

من الأخاديت العامة عن المهن المختلفة ، فمثلا يتحدث العاملون في جنرال موتورز عن (المقارنة بين السيارات) ، أو يتحدث رجلان عن « برامج التلفزيون » ، أو يتحدث السيئات في شئون البقالة والمطبخ والملابس ، أو كيفية عمل شيء ، أو الأسعار ، أو بعض أماكن الذكريات ، أو الاستفسار عن معرفة بعض الأشياء ، أو الأصدقاء القدامى ، أو توقعات الغد ، أو أنواع المشروبات (٣) .

ويمكن أداء لعبة تسلية وقت الفراغ عن طريق « الوالد » أو « الراشد » أو « الطفل » . وقد تبدأ اللعبة بين « والد - والد » بالمعاملة الآتية :

مود : . تقصدين أنك تقومين بتنجيد المفروشات ؟

بيسى : فقط عند الضرورة .

ويقود ذلك الى مناقشة حول أسعار التنجيد ، وتدهور مستوى العمل الآن أو الأوكازيونات .

أما لعبة تسلية وقت الفراغ التي تبدأ بين « طفل - طفل » فهي المشاركة في اختيارات مستحيلة ترمز الى موقف الطفل الصغير من اختيار أحد أمرين أحلاهما بر ، ويمكن لهذا اللون من ألوان النشاط أن يخفف من القلق . ليس لأن المشكلة قد وجدت لها حل ، ولكن لأنه قد شارك فيها شخص آخر . « حاول مع هذه المشكلة لحظة ! » . لقد سميت هذه الأسئلة خلال حديث متبادل بين شخصين عمر كل منهما خمسة أعوام : « هل تفضل أن تأكل تلاملوا بالمثل ، أو تشرب دلوا مبروًا بالدواء المفل ؟ وهل تحب أن يطاردك ثور وحشى أو تلبس فردة حذاءك اليمنى في قدمك اليسرى والعكس طول اليوم ؟ وهل بودك أن تجلس على قرن سائح أو تدخل الفسالة الكهربائية خمسين مرة ؟ وهل تريد أن تلدغك آلاف الزناجير أو تنام في حظيرة الخنازير ؟ .. أجب باختيار واحد من الأمرين ؟ أى عليك أن تختار واحداً من كل اثنين . ويمكن أن تكون أسئلة الكبار أكثر حنكة مثل : هل أنت ديموقراطي أم جمهوري ؟

ويمكن للراشد أن يلعب تسلية وقت الفراغ بموضوعات مثل الطقس لعنسل علاقة تستمر حتى ظهور شيء يثير الاهتمام أو يؤدي الى المذبح :

مستور ١ : يبدو أن عاصفة ستهب .

مستور ٢ : هذه السحب تبدو سوداء في حقيقتها .

مستور ٣ : انها تذكرني بالوقت الذي كنت أقود فيه طائرتي ، ودخلت في عاصفة مفاجئة فوق خليج سان فرانسيسكو .

مستور ٤ : أوه . أنت طيار ؟

وما دامت تسلية وقت الفراغ مفيدة في مواقف اجتماعية معينة ، فمن الواضح أن العلاقات التي لا تنقسم إلى أبعد منها تموت - أو على الأقل تعيش في يأس بطيء ، وملل متزايد . وتسلية وقت الفراغ مثل الانسحاب ، والطقوس ، والأنشطة ، يمكن أن تأخذ الناس بعيدا . أما الألعاب فهي ظاهرة معاملات عامة حتى أن برن قد وضع كتابا كاملا عنها هو أفضل كتب توزيعا ، وعنوانه : .

(ألعاب يلعبها الناس - Games People Play) . ومعظم الألعاب تسبب الضيق ، انها تمثل محطتي العلاقات ، ومنتجتي البؤس . وتكمن اجابة السؤال « لماذا يحدث لي ذلك دائما ؟ » في فهم هؤلاء جنينهم : يقول برن : ان كلمة (لعبة) يجب ألا يساء فهمها وهي لا تنطوي بالضرورة على اللهو أو جنى المرح . وأنا أنصح من يرغب في فهم تلك الألعاب فهمها ببطيئها بقراءة كتابه . وعلى أية حال فانا تقدم فيما يلي تعريفنا موجزا يؤدي الغرض من هذا الدليل الخاص بتحليل المعاملات :

تمثل اللعبة تطور سلسلة متصلة من المعاملات التكميلية الكائنة خلف السطح نعو مخرجات جيدة التعريف ومستقبلية . انها بالتحديد مجموعة دورية من المعاملات ، تتركز في الغالب ، وتبدو مقنعة ظاهريا ، مع حافظ خفي ، أو انها ببساطة أكثر ، سلسلة من التعركات ذات مصيدة أو طعم . والألعاب تختلف بوضوح عن الإجراءات والطقوس وتسلية وقت الفراغ في صفتين أساسيتين : ١- انها كائنة تحت السطح ٢- انها مضمرة ،

أما الإجراءات فقد تكون ناجحة ، كما أن الطقوس قد تكون فعالة ، كما أن تسلية وقت الفراغ قد تكون مفيدة ، ولكنها في مجموعها صريحة وأصحة ، فهي قد تسبب المنافسة ولكنها لا تسبب الصراع ، وقد تكون نهايتها مشيرة ولكنها غير دوامية ، ومن الناحية الأخرى فإن كل لعبة في

اساسها غير شريفة ، وناتجها يتسم بشيء من اللوعية التي نستطيع ان نميزها عن الالفة التي تحدثها (٤) .

وكما بينا فى الفصل الثالث فان كل الالاب لها اصلها الذى يعود الى لعبة الطفولة البسيطة التي اسمها « ما لى افضل مما لىك » ، والتي يمكن ملاحظتها بسهولة فى أى فريق من الصغار الذين فى سن الرابعة ، الذين يلعبونها كما يلعبها الكبار ، لتوفير بعض الراحة الوقتية من حمل عبء الاحساس بأن المرء ليس على مايرام . وكما فى حالات الكبار الاكثر حكمة فانها خفيفة من حيث انها لاتعبر صراحة عن حقيقة ما يشعر به الفرد . وعندما يقول الصغير « ما لى افضل مما لىك » يخالجه احساس « أنا لست مثلك » . انه دفاع هجومى من حيث سعيه لتحقيق الاستقرار الداخلى . وفيها أيضا رد أو وفاة مثل الالاب الكبار . وعندما يستغرق الالاب فى لعبة « ما لى افضل مما لىك » فان اللعبة تنتهى بسرعة شديدة أو صفة على الوجه ، أو يتحقق الصغير من أن ما معه مثلاً ليس هو الافضل ، وهى حقيقة موجبة وهى تعيد الشخص الصغير مرة أخرى الى مكانه بعد أن تهرمن مرة أخرى على موقف « أنا لست على مايرام » ، وللإبقاء على هذا الموقف الثابت ، يخالج الصغير نوع ما من الاحساس الضعيف بالأمن .

وهذا هو جوهر كل الالاب . انها طريقة لاستهلاك الوقت بالنسبة للناس الذين لا يستطيعون احتمال فقدان الحنان الناتج عن الانسحاب ، ومع ذلك لايزال موقفهم (أنا لست على مايرام) يمثل عقبة كؤودا أمام تحقيق الشكل النهائى للانتماء والمودة . وبالرغم من وجود البؤس الا أن هناك شيئاً . وكما قال المثل الهزلى : « أن تنبعث الرائحة الكريهة من فمك ، أفضل من ألا تتنفس مطلقاً » . نقول أن مواجهة القسوة فى الالاب أفضل من عدم وجود علاقة على الإطلاق .

وقد كتب الدكتور ريتشارد جالدستون عن الصغار الذين يعانون من سوء المعاملة ، ما نيل : « أن [الصغير] النامى أكثر عرضة لأن يتغلب على مرارة القسوة ، منه على مرارة التجاهل واللامبالاة (٥) » .

E. Berne "Games People Play", (New York : Grove Press, (٤) 1964), p. 48.

R. Galdston, M.D., "Observations of Children Who Have Been Physically Abused and Their Parents", American Journal of Psychiatry, Vol. 122, No. 4 (October, 1965).

وعلى ذلك فإن الألعاب نفيده جميع اللاعبين فهي تحمي سلامة الموقف
دون أن تهدد بالقضيحة .

ولتحديد طبيعة الألعاب بصورة أوضح سنورد الحركات الخاصة
بلعبة واحدة هي : « لماذا لاتفعل ؟ نعم ولكن » ، واللاعبان هما امرأة شابة
تدعى جين ، وصديقتها (وهذه اللعبة تؤدي غالبا في موقف المساعدة ،
أو مكتب رجل الدين ، أو مكتب الطبيب النفسى ، أو مطبخ جارة تعاني من
مشكلات طويلة الأمد) .

جين : اننى ساذجة جدا ، وغير منسقة المظهر لدرجة تنفر منى الرجال .
الصديقة : لماذا لاتذهبين الى صالون تجميل ممتاز ، وتقومين بتغيير
تسريحتك ؟

جين : فكرة رائعة ، ولكن ذلك يكلف مبلغا كبيرا من المال .

الصديقة : طيب ، ولم لاتشتريين مجلة من مجلات التجميل وتستفيدين
منها في تصفيف شعرك ؟

جين : ومن قال اننى لم أحاول ذلك ؟ ولكن شعري ناعم جدا . انه
لا يثبت على تسريحة معينة . أما اذا علقته ، فسيبدو على الأقل
مقبول الشكل .

الصديقة : وماذا عن استخدام الماكياج لتجميل ملامحك ؟

جين : نعم ، ولكن بشرتى حساسة بالنسبة للماكياج . لقد عيلته مرة
فصارت بشرتى خشنة وثققت .

الصديقة : هناك كميات ضئيلة من الماكياج المضاد للحساسية ، فلماذا
لاتذهبين لزيارة طبيب الأمراض الجلدية ؟

جين : نعم ، ولكننى أعرف ما سيقوله . سيقول اننى لا أتناول الغذاء
الصحيح . أعرف اننى أتناول كميات كبيرة من الحلوى ، ولا أتناول
وجبات متوازنة . وهذا هو ما يحدث عندما تمشى بفردك .
أوه ، حسنا ، ان الجمال كى منطوى .

الصديقة : حسنا ، هذا صحيح ، وربما يساعدك أن تحصل على بعض
الدراسات الخاصة بتعليم الكبار ، فى مجال الفن ، أو الأحداث
الجارية . انها تساعدك على أن تكونى متحدثة جيدة كما تعلمين .

جين : نعم ، ولكن هناك حقيقة أن هذه الدراسات كلها مسائية ،
وأنا أكون خائفة القوى بعد انتهاء العمل .

الصديقة : حسنًا ، ادرسي بعض المناهج بالمراسلة .

جين : نعم ، ولكن ليس لدى وقت لكتابة الخطابات لأقاربي ، فكيف أجد
وقتا للدراسة بالمراسلة .

الصديقة : مستجدين الوقت ، لو كانت الدراسة مهمة بما فيه الكفاية .

جين : نعم ، ولكنه من المستحيل لك أن تقول هذا القول ، لأن لديك
طاقة كبيرة ، أما أنا فإن قوتي خائرة دائما .

الصديقة : لماذا لاتذهبن للسهر ليلًا ؟ لا عجب في أن تشعرى بالتعب
عندما تجلسين وتشاهدن « فيلم السهرة » كل ليلة .

جين : نعم ، ولكنني تعودت أن أضع عملي ترويحيا . وهذا هو
كل ما تفعله عندما تكونين مثل .

نرى هنا أن المناقشة اتخذت دائرة كاملة . وقد هدمت جين بأسلوب
منتظم كل اقتراح من اقتراحات صديقتها . إنها تبدأ بالشكوى من أنها
ساذجة وغير منسقة المظهر ، وتنتهي بادلة بالسؤال الذي يحمل السبب
الآخر : إنها ساذجة وغير منسقة المظهر لأن « هذا هو حالى » . وأخيرا
تلفس صديقتها يدما منهزمة ، وربما تتوقف أخيرا عن زيارتها ، فتضاعف
من إحساس جين بأنها ليست على مايرام . وهذا « يبرهن » لجين على أنه
لا أمل لها حقيقة ، وأنها لاتستطيع حتى الاحتفاظ بأصدقائها . ويبرز هذا
دخولها في لعبة أخرى هي : « أليس الأمر مزعجا » وتنحصر الفائدة التي
تنالها جين في أنها ستوفر على نفسها عبء العمل لأنها كررت البرهان
على أنه لا يمكن عمل شيء .

أما لعبة « لماذا لاتفعل ؟ نعم ولكن » فمن الممكن أن تمارس بأى
عدد من الأفراد حسب قول برن :

يطرح لاعب ما مشكلة . ويبدأ الآخرون فى تقديم الحلول ، ويبدأ
كل منهم بعبارة « لماذا لا تفعل ؟ » ولكن اللاعب يرفض كل حل مستعملا
عبارة « نعم ولكن » ويستطيع اللاعب الممتاز أن يتفوق على بالى المجموعة
بلا حدود حتى يستسلم الجميع ، وهنا يفوز هذا اللاعب عليهم .

«وحيث أن جميع الحلول قد رفضت بلا استثناء ، فمن الواضح أن هذه اللعبة لابد وأن تخضع غرضها خفيا . والفخ الموجود في لعبة « لاذا لاتفعل ؟ نعم ولكن » هو أنها لاتمارس من أجل غرضها الظاهري (راشد يطلب معلومات أو حلولاً) ، ولكن لتأكيد وتشجيع (الطفل) . وقد يخال من يقرأ الحوار أنه اعلم « راشد » ، ولكنه إن استمع إلى اللاعب أو اللاعب لوجههما يقومان نفسيهما « كاطفال » غير مؤهلين لمواجهة الموقف ، بينما يكون الآخرون قد تحولوا إلى آباء حكماء متشوقين لتقديم حكمتهم المصلحة ذلك المسكين وهذا هو ما يريد اللاعب ، حيث أن رفضه يهدف إلى بث الحيرة في هؤلاء الآباء الواحد بعد الآخر (٦) .

(وهذه صورة حديثة من لعبة « ما لدى أفضل مما لديك » التي تنكر فكرة حقيقية ، وهي أنك أفضل مني) . ومع انتهاء اللعبة ، يحزن جميع هؤلاء الذين قدموا نصائحهم لأنهم فشلوا في مساعدة اللاعب بينما يبرهن هو على أن مشكلته في حقيقة الأمر ، ليس لها حل ، وهذا يجعل في إمكانه أن يدخل « طفله » في لعبة جديدة هي : « ليس الأمر مزعجا ؟ » أي أن هذا هو الواقع وهذه هي طريقتي (ولذلك لا أستطيع أن أفعل شيئا حيال الأمر لأنه كما رأينا ، لا يوجد ما يمكن عمله) .

ويصف يرن في كتابه الخاص بالألعاب حوالي ستة وثلاثين لعبة وعناوين هذه الألعاب موضوعة بالعامية الدارجة ، وأغلبها دقيقة المعنى ، تضع اصبعك على الشخصية الرئيسية في اللعبة مثل : « ليس الأمر مزعجا ؟ » و « لو لم تكن لك كنت أستطيع » و « هيا تشابرا » و « الآن قد أمسكت بك يا ابن الـ... » (٧) . ونظرا لأن العناوين بالعامية فإنها غالبا ما تدعو إلى الضحك ، والحقيقة هي أن الألعاب ليست مسلية ، إنها دفاعات لحياة الأفراد من درجات أكبر أو أقل من الألم الذي يتضخم من موقف « أنا لست على مايرام » . أما شعبية كتاب يرن عن الألعاب ، فقد أدت إلى ظهور لعبة من ألعاب تزجية وقت الفراغ بين أبناء بعض الأوساط الراقية . ويمكن أن يكون مبدأ الألعاب أداة علاجية مفيدة .

E. BERNE, "Transactional Analysis", P. 104.

(٦)

(٧) نورد هنا عناوين هذه الألعاب الأربعة التي أوردتها المؤلف كنموذج مرية من الإشارة إلى البسبب وذلك بعد العودة إلى الكتاب الأصلي وهو : Games people play كما يل :
Ain't It Awful. x If it weren't for you, I could x
Let's you and him Fight x Now I've Got you, son of a Bitch.

- للترجم -

عليهما تستخدم مع فهم مسبق لنموذج « الوالد - الراشد - الطفل » ولكن
 ان غاب هذا الفهم يمكن ببساطة أن تتحول اللعبة الى طريقة أخرى للمبدوان ،
 ويستطيع الأفراد مع فهم نموذج « الوالد - الراشد - الطفل » أن يستخدموا
 مناقشة أكاديمية للالعاب بتطبيقها على أنفسهم ، ولكن اذا استدرج المرء
 الى اللعبة دون فهم أو اهتمام فقد تؤدي الى انبثاق مشاعر القضب .
 اننى مقتنع أشد الاقتناع من الملاحظة الطويلة لهذه الظاهرة أن تحليل
 الألعاب يجب أن يحتل دائماً مكانة ثانوية بالنسبة لتحليل المعاملات .
 ولا تتيح لك معرفة اللعبة التي تلعبها - فى حد ذاتها - أن تتغير . وهناك
 خطر ينطوى عليه نزع الدفاع قبل أن تساعد الشخص أولاً على فهم
 الموقف - وموقف الطفولة الذى نشأ منه ، والذى جعل ذلك الدفاع
 ضرورياً ، ويمكن أن تذكر ذلك بطريقة أخرى وهى أنه اذا كانت هناك
 ساعة واحدة من الزمن متاحة لمساعدة شخص ما ، فإن طريقة الاختيار
 ستختصر فى التعليم الدقيق لنموذج « الوالد - الراشد - الطفل »
 وظاهرة المعاملة . واعتقد أن هذا الاجراء يقدم فرصة أكبر للتغيير
 باستخدام العلاج القصير الأجل أكثر من تحليل الألعاب .

وباختصار - فاننا نرى الألعاب كأدوات لتخطيط الوقت وهى مثل
 الانسحاب والطقوس والأنشطة وتسلية وقت الفراغ ، تباعد بين الناس .
 إذن - ما الذى نستطيع أن نفعله بالوقت بحيث لا يبعد بيننا ؟ يقول
 جورج سارتون :

« أعتقد أن الانسان يستطيع تقسيم الناس الى فئتين رئيسيتين :
 هؤلاء الذين يمانون من الرغبة الشديدة فى الاندماج هؤلاء الذين لا يمانون
 منها . وتوجد هوة بين النوعين - أما التوافق الى الاندماج فهو المتضايق ،
 وأما الآخر ففى سلام » .

لقد غلبت على حياة الانسان منذ عدة آلاف من السنين ، أساليب
 الانسحاب ، والطقوس ، وتسلية وقت الفراغ ، والأنشطة ، والألعاب .
 وربما كان الشك فى هذه التشكيلة يواجه على أحسن ما يكون بتذكر
 التكرار الدؤوب للحرب على مدى التاريخ ، والحرب هى أكثر اللعيبات
 قسوة . وقد سلم معظم الناس بأن هذه النماذج هى الطبيعة البشرية ،
 والمسار الحتمى للأحداث ، وأعراض التاريخ التى تكرر نفسها ، وكان
 هناك سلام معين فى قبول هذا النوع من الآراء ، ولكن كما يقول سارتون ،
 فإن أشد الناس احساساً بالضيق على مدى التاريخ هم هؤلاء الذين رفضوا
 إخضاع أنفسهم لحتمية التباعد ، والذين استمروا فى التقدم برغبة شديدة

فى الانساج ، لقد كان المركز الديناميكي المحور للفلسفة هو دافع الاتصال أو التواصل . كان الأمل موجودا دائما ، ولكنه لم يهزم الخوف التكاملي فى النفس من اقتراب المرء من الآخرين ، ومن فقدان الذات فى نطاق الآخرين ، ومن التآلف الذى يعتبر آخر الاختيارات التى يختارها الانسان .

أما علاقة الألفة بين شخصين فقد يظن أنها موجودة مستقلة عن الأساليب الخمسة الأولى لتخطيط الوقت وهى : الانسحاب ، وتسلية وقت الفراغ ، والأنشطة ، والطقوس ، والألعاب . أنها تركز على قبول الناس الذين يتخذون موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) كما تركز حرفيا على الحب المقسم بالقبول ، حيث يصبح تخطيط الوقت الدفاعى غير ضرورى . ان العطاء والمشاركة هما تعبيران غويان عن الفرح أكثر منهما استجابتان لطقوس مخططة اجتماعيا . ان الألفة هى علاقة خالية من الألعاب لأن الأهداف غير خفية . ان الألفة مستطاعة فى الموقف الذى يتيح فيه غياب الخوف ، الإدراك التام ، حيث يمكن رؤية الجمال منفصلا عن المنفعة ، وحيث يصبح الامتلاك غير ضرورى بالنسبة لحقيقة المالك .

إنها علاقة يصبح فيها « الراشد » مسئولا فى الشخصين كليهما ، ويسمح بظهور « الطفل الطبيعى » . و « الطفل » فى هذا الصدد قد يظن أن له طبيعتين : « الطفل الطبيعى » (خلاق وعفوى ومحب للاستطلاع وواع ومتحرر من الخوف) « والطفل الطوع » (طوع نفسه لمطالب « الوالد » الأصلية المتمدينة) ويمكن لتحرير « الراشد » أن يتيح « للطفل الطبيعى » الظهور مرة أخرى ، كما يستطيع « الراشد » تحديد مطالب « الوالد » حسب ماهيتها القدية - ويمطى الاذن « للطفل الطبيعى » بالظهور مرة أخرى ، دون خوف من عملية التمدين المبكرة ، التى غيرت ، ليس فقط سلوكه المدوانى غير الاجتماعى ، بل أيضا سمادته وقراته الخلاقة . وهذه هى الحقيقة التى تجعله حرا - ليكون واعيا مرة أخرى ، وليسمح ويشعر ويرى بطريقته الخاصة . ويمثل هذا جزءا من ظاهرة الألفة . وعلى ذلك فإن الهدية المكونة من حفنة من أزهار الربيع قد تكون تعبيرا عفويا عن الحب والفرح أكثر من هدية من العطر الباريسى الفاخر تقدم فى إحدى المناسبات الاجتماعية المهمة . ان تسميان عيد الزواج لا يمثل كارثة للزوج والزوجة المحبين ، ولكنه غالبا كذلك بالنسبة لهؤلاء الذين تدمر علاقتهم بفضل الطقوس .

وهذا هو السؤال الذى يدور غالبا : هل الانسحاب ، وتسلية وقت الفراغ ، والطقوس ، والأنشطة ، والألعاب - رديشة دائما بالنسبة

للعلاقات ؟ من الأسلم القول بأن الألعاب هدامة في معظم الأحوال مادامت حركتها خفية ، وخاصية الإخفاء هي تقيض الألفة . أن الأربعة الأول غير هدامة بالضرورة إلا إذا أصبحت شكلا سائدا للتخطيط للوقت ، ومن الممكن أن يكون الانسحاب شكلا استرخائيا ومنشطا من أشكال التأمل الانعزالي . أما التسلية انمضية وقت الفراغ فيمكن أن تكون طريقة سارة لتهدئة الحرك الاجتماعي . أما الطقوس فيمكن أن تكون ترفيفية ، مثل حفلات أعياد الميلاد ، والإجازات ، والجري لللاقة الأب عند عودته من العمل إلى البيت . وبذلك فهي استعداد ثانية للحظات السعادة التي يمكن توقعها ، وعمل حساب لها ، وتذكرها .

أما الأنشطة التي تتضمن العمل فهي ليست فقط ضرورات للحياة ، ولكنها مكافآت في حد ذاتها ، لأنها تسمح بالسيطرة ، والامتياز ، والمهارة في الصنعة ، والتعبير عن تشكيلة كبيرة من المهارات والمواهب . وعلى أية حال فإنه إذا لم تتوفر الراحة في علاقة بين شخصين عندما تتوقف هذه التماذج من تخطيط الوقت ، فمن الأسلم القول بأن هناك ألفة قليلة ، وبعض الأزواج يخططون كل وقتهم مما ينشأ ملحوه ، والنشاط لنفسه غير مدمر مالم يكن الدافع للانفعال يماثل الدافع للانعزال .

ويقفز السؤال الآن : إذا جردنا أنفسنا من الوسائل الخمسة الأولى لتخطيط الوقت ، فهل نكون قد حققنا الألفة آليا ؟ أم نكون قد حققنا لأشياء ؟ ويبدو أنه لا توجد وسيلة بسيطة لتعريف الألفة ، ولكن يمكننا الإشارة إلى تلك الأحوال الأثيرة جدا بسبب مظهرها : غياب الأعصاب ، وتحرير « الراشد » والالتزام بموقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) .

ومن خلال « الراشد » المطلق السراح ، نستطيع أن نصل إلى المناطق الرحبة لمعرفة ما يتعلق بعالمتنا ، وما يتعلق بنا ، وإلى استكشاف أعماق الفلسفة والدين ، وملاحظة ما هو جديد ، دون أن يكسره القديم ، وربما نجد إجابات تحل لنا كلا من عناصر ذلك التساؤل المنبئ : « ما الهدف من هذا كله ؟ » سيرد شرح لهذه الفكرة في الفصل الثاني عشر .

الفصل الثامن

نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) والزواج

(اننا نعطي وعودا حسب آمالنا ، وننجزها حسب مخاوفنا -
فرائسوا دوق دي لاروشفوكو)

يرى أحد أصدقائي القصة التالية حول موقف حدث عندما كان ولدا صغيرا . عند نهاية وجبة غذائية أعلنت أمه للأخوة والأخوات الذين كان عددهم خمسة ، أن الحلوى ستكون هي ما تبقى من الفطائر التي صنعتها . ومن ثم أحضرت برطبان الفطائر ووضعت على المائدة ، وتبع ذلك تدافع الصغار في ضجة للوصول إلى البرطبان ، وكان أصغر الأخوة وعمره أربعة أعوام هو الأخير كالمادة . وعندما وصل إلى البرطبان لم يجد سوى فطيرة متبقية ، وقد ضاعت قطعة منها ، وهنا اختطفها وألقى بها على الأرض باكيا في غمرة من اليأس ، وصرخ قائلا : « لقد تهشمت فطيرتي كلها ! » .

وهذه هي طبيعة الصغير أن يحسب خيبة الأمل كارثة ، ويفسد الفطيرة كلها ، لأن قطعة منها ضاعت ، أو لأنها ليست كبيرة أو لذينة مثل فطائر الآخرين . وقد بقيت هذه القصة في أسرته كنموذج قياسي للرد على أي شكوى فيقال : « ما الخبر ؟ هل تهشمت فطيرتك ؟ » وهذا هو نفس ما يحدث عندما تفسد الزيجات ، أن « الطفل » يباشر عمله في أحد الشريكين أو كليهما معا ، ويتحطم الزواج كله عندما تبدأ النقائص في الظهور .

ان الزواج هو أكثر العلاقات الانسانية تعقيدا فقليل من العلاقات هي التي تستطيع أن تنجح مثل هذه الانفصالات المتطرفة ، أو يستطيع الانتقال بسرعة من ممارسات النشوة الغامرة الى هذه القسوة العقلية الباردة والتي تؤدي في النهاية الى الانفصال الشرعي . وعندما يتوقف الانسان لتقييم المضمون الهائل للمعلومات القديمة التي يدخلها كل شريك في عملية الزواج من خلال المساهمة المستمرة لكل من « والده » و « طفلة » يستطيع الانسان أن يرى سريما ضرورة وجود « راشد » متحرر في كل من الطرفين لجعل هذه العلاقة فعالة ، ولكن عقد الزواج المتوسط يتم على يد « الطفل » الذي يفهم الحب على أنه شيء تحس به وليس شيئا تعملة ، ويرى السعادة كشيء تسعى خلفه وليس ناتجا ثانويا للعمل نحو تحقيق سعادة شخص آخر سواء . أما الشركاء الشبان الذين يتضمن « والدهم » المشاعر الخاصة بما يجب أن يكون عليه الزواج الناجح ، فانهم سعداء وقليلون في نفس الوقت . وهناك أفراد عديدون لم ير الواحد منهم الآخر ، ولذلك فانهم يستعيرون مفهوم الزواج من القصص الخيالية التي تشبع بالرومانتيكية والتي قرأوا عنها ، حيث يكون للزوج عمل ممتاز كمدير تنفيذي مساعده في شركة اعلانات كبرى ، ويعود الى البيت كل ليلة ومعه باقة من الزهور لتقدمها الى الزوجة الرشيقه المتألقة التي تنتظره في البيت الفخم ، الذي كسيت أرضياته بالسجاد الفاخر . وأخذت نوافذه تتلألأ بما تكشف عنه من أضواء الشموع الخافتة ، مع الموسيقى التي تنبعث من الستريو لتوفير جو الحب . وعندما يبدأ الوهم في الانقشاع ، وتبيل السجاد ، ويتوقف الستريو عن العزف ، ويفقد الزوج عمله ، ويتوقف عن قول : « انني احبك » . فان « الطفل » يظهر ومعه شريط « الفطيرة المهشمة » وينتهي العرض كله ، وقد تجطم كل شيء الى قطع صغيرة أما الذي يتبقى فهو الوهم ، وما يبدو باللون الأزرق هو « الطفل » . لقد أفسدت المشاعر القديمة الخاصة بموقف « ليس على ما يرام » الراشد في كلا الشريكين ، ومع عدم وجود مكان آخر ينقلبان عليه ، ينقلب الشريكان كل منهما على الآخر ، لقد عرف منذ مدة طويلة أن أفضل الزوجات تبسو عندما يكون لدى الشريكين كليهما نفس الخلفية ونفس الاهتمام بالحقيقة . وعلى أية حال عندما يتولى « الراشد » مسئوليته في تخطيط الزواج فان الاختلافات المهمة يجري تجاهلها غالبا ، ويتم توقيع عقد فحواه : « شركة حتى الموت » مرتكزا على مثل هذا التماثل غير الكامل من نوع « نحن الاثنين نحب الرقص » أو « نحن الاثنين نريد الكثير من الأطفال » أو « نحن الاثنين نحب الخيول » أو « نحن الاثنين متشاحنان » . أما الكمال فيظهر في الاكتاف العريضة ، والأسنان

اللامعة ، والصغور الناعمة ، والسيارات الفارحة ، وغير ذلك من المعائب القابلة للفناء .

وفي بعض الأحيان يقوم الارتباط على أساس اجتماع الاثنين على معارضة موقف ما ، بناء على افكرة الخاطئة التي تقول أن عدو عدوى هو صديقي ، بنفس الطريقة التي يواسي بها صغيران غاضبان من أمهما ، أحدهما الآخر . ويتعاقب بعض المتزوجين بطريقة « نحن ضد العالم » كاحتجاج ضد هؤلاء ذوي النوايا السيئة . أو أن الزوجين يكره كل منهما عائلة الآخر ، أو يكرهان أحدهما السابقين ، أو أنهما يكرهان تلك المعاهدة السخيفة التي تمثل السطحية الأمريكية ، أو لعبة الباولنج ، أو البيسبول ، أو السباحة ، أو العمل . انهما يعيشان حماقة يتقاسمان فيها نفس الأوهام . وسرعان ما يصبحان أداتين تجلبان المرارة لنفسيهما ، وما يجري في لعبة « انها غلطتهم » يتحول الى لعبة « انها غلطتك » .

وبين أكثر الوسائل مجاونة في اختيار التشابهات والاختلافات هو استخدام تحليل المعاملات في الاستشارة السابقة للزواج لعمل تخطيط شخصي للشخصين المقدمين على الزواج . والهدف ليس هو فقط استعراض المتشابهات والاختلافات الواضحة ، بل أيضا اجراء استكشاف كابل لما هو موجود في « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » لدى كل منهما . والزوجان اللذان يدخلان في مثل هذا الاستكشاف سيتمتعان بعوامل كثيرة تعمل في صالحهما اذا كانا جادين في مشروع الزواج بما فيه الكفاية لالقاء نظرة متعمقة قبل اقدام . وعلى أية حال فانه من الممكن للطرف الذي يشك جديا في صلاحية الطرف الآخر ، أن يقوم بهذا الاستكشاف على نفقته الخاصة ، والمثال على ذلك سيدة شابة كانت بين إحدى مجموعاتي العلاجية ، سألتني أن أرتب ساعة منفصلة لأجلها بفرض مناقشة مشكلتها إذ كانت قد التقت بشباب منذ فترة قصيرة وقد تقدم هذا الشاب لطلب يدها . كان « طفلها » منجذبا اليه ، ولكن كانت هناك معلومات أخرى داخلية في « حاسبتها » دفعتها الى السؤال عما اذا كان الزواج فكرة جيدة أم لا . لقد تعلبت أن تستخدم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) بدقة وطلبت أن أساعدها في فحص هذه العلاقة على أساس فحص نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) في كل منهما .

وفي البداية أجرينا مقارنة بين « والد » كل منهما . فوجدنا أن لديها « والدا » قويا اشتمل على قواعد للسلوك لا حصر لها ، والمدينة من الأوامر والنواهي ، ومنها تحذير بالآ تنذع في الزواج بدون تفكير .

وكانت هناك عناصر معينة نفوذ حول استقامتها الشخصية ، مثل « نحن من أفضل الناس » . وتضمنت أفكارا مثل : « المرء مرآة صدقه » و « لا تفعل شيئا أقل من مستواك » . وقضنت السمات المبكرة لحياة البيت المنظمة جدا ، حيث كانت الأم تراقب البيت ، وحيث كان الأب يعمل في مكتبه يجده والى وقت متأخر . وكان هناك مخزون من مادة « كيف أن ؟ » كيف تنظم عيد ميلاد ؟ ، وكيف تزين شجرة عيد الميلاد ؟ ، وكيف تربي الصغار ؟ ، وكيف تكيف نفسك في المواقف الاجتماعية . لقد كان والدها ذا تأثير مهم في حياتها لدرجة أن الانطباعات كانت ثابتة تقريبا . وبالرغم من أن التشدد كان جائرا أحيانا ، وأنتج احساسا ملحوظا بأنها ليست على مايرام في « طفلها » الا أن « والدها » استمر كمصدر ثابت للمعلومات في كل معاملاتها في الوقت الحاضر .

ثم تحولنا الى فحص « الوالد » في الشباب . كان أبواه قد انفصلا عندما كان عمره سبع سنوات ، وقامت أمه على تربيته ، ورغم أنها اغدقت عليه المتع المادية ، الا أنها أعطته اهتماما متقطعا ، وكانت هي نفسها واقعة تحت سيطرة « الطفل » وانفعالية ، وعبرت عن مشاعرهما في سفهما في اتفاق الأموال ، وراودتها فترات متقطعة من العيوس ، والانسحاب ، والشراسة . ولم يظهر « والده » في التسجيلات أبدا الا في صورة « وغد دنيء فاسد مثل كل الرجال » . وعلى ذلك فإن « والد » الشباب كان مختلا ومحطبا وغير منسجم في تصرفاته ، لدرجة أنه لم يظهر خلال المعاملات كمؤثر متحكم أو معدل لنزواته الطائشة ، وسلوكه الخاضع لسيطرة « الطفل » . ان « والدها » و « والده » لم يكونا جد تقيضين فحسب ، بل أن « والدها » كان يرفض « والده » ، لقد ظهر سريما أن هناك قاعدة ضمنية لوجود لاقامة معاملة (والد - والد) حول أي موضوع بحيث تحكم أي شيء تكميل على هذا المستوى .

وبعد ذلك أجرينا استجوابا حول قوة « الراشد » في كل منها ، وتقييما لاهتماماتها بالحقيقة ، فكانت هي شابة ذكية ، ومتقفة ، تمتعت بتشكيلة كبيرة من الاهتمامات . كانت تحب الموسيقى الكلاسيكية ، وتسائر التقاليع الموجودة ، وكانت قارئة جيدة للأدب الكلاسيكي ، ومنعت نفسها بعمل الأشياء اليدوية ، وأحببت أن تعمل أشياء خلاقية وجميلة في أو كان المنزل ، وكانت تستمتع بمناقشة الأفكار الفلسفية والدينية ، وبالرغم من أنها لم تتقبل معتقدات أبويها الدينية الا أنها كانت تشعر بأهمية وجود نوع من الاعتقاد . كانت خبيرة في ادارة المحادثات ، وفضولية ، وكانت تهتم بنتائج ما عملته ، كما أحسبت بالمسؤولية تجاه نفسها . وكانت

في شخصيتها مناطق معينة للمحاياة تعبر عن افساد «الوالد» «لراشد» مثل «كل رجل تجاوز عمره الثلاثين عاما ولم يتزوج ، لا ترتجى منه فائدة» ، « المرأة التي تدخن ، تعمل أى شئ» ، و « أى شخص لم يدخل الجامعة في أيامنا هذه يكون كسولا » و « ماذا تتوقع من رجل انفصل عن زوجته » .

وعلى العكس منها ، كان « راشد » صديقا قد افسده « الطفل » . كان منقادا للبلذات « مثلما كان وهو ولد صغير » وكان طالبا غير مجتهد خلال دراسته بالمدرسة الثانوية ، ثم ترك الكلية خلال الفصل الدراسي الأول لانها « لم توافقه » ، ولم يكن ذكيا ولكن كان لديه اهتمام قليل بالموضوعات الجادة التي كانت مهمة بالنسبة للبنات . وكان يظن أنه كل المقائد مخادعة بنفس الطريقة التي ظن بها أن جميع البالغين مخادعين فانصرف عنها وعنهم ، وكان يتمتع في القراءة ، ولا يقرأ سوى تعليقات الصور الموجودة بمجلة لايف ، وقالت عنه « انه من هؤلاء الرجال الذين اذا سألهم عن باخ حسبوك فتجئت عن نوع من البيرة الألمانية » وكانت لديه أفكار سطحية عن السياسة مع الاحساس بأن الحكومة سيئة لانها « تنبردك من حريتك » ، كان حاضر النكتة وذكيا ، ولكنه فارغ المضمون ، وكان اهتمامه المبدئي بالحقيقة منصبا على سيارات السباق ، التي كان لديه معلومات واسعة عنها ، وكان من الواضح أنه لا يوجد سوى القليل مما يمكن تطويره في علاقة « راشد - راشد » بين الاثنين ، وقد أوجد هذا المستوى من المعاملة احباطا لديها ، وضجرا لديه .

ثم تحولنا الى عمل اختبار « للطفل » في كل منها . كان طفلا يخبى بالجوع للحنان ، والاشتياق للبهجة ، ويشعر بالاكتمال غالبا ، كما كان حساسا بالنسبة لمؤشرات الانتقاد الواردة اليه ، والتي أوجدت احساسا قويا بعدم الرضا ، ولم تتجاوز حقيقة أن « أى شخص أتيق » لابد أن يقع في حبها ، ولم يكن لديها أصدقاء كثيرين ، وظنت في نفسها أنها ساذجة ، أما ملامحها فقد كانت عادية بحيث لا يستطيع الفرد أن يعرفها بعد لقاء واحد . وكانت ما أن ترى شابا أشقر محبسا للهو حتى يجتاح قلبها حب جارف . ولا تستطيع أن تتخيل أحيال شعورها الجياش بأن تكون محبوبية ومطاردة من الشبان ، وعندما كانت معه ، كانت تشعر بأنها على مايرام بطريقة لم تشعر بها من قبل ، لم تكن تستطيع أن تتخلى عن هذا الشعور بسهولة . وأما من الجهة الأخرى فإن « طفلة » هو كان عدوانيا ، ومحبيا للذات ، وميالا للسيطرة ، و يعرف طريقه دائما وفيه خطط للوصول اليها أيضا . وكان ذلك جزءا من المشكلة حيث أن

« والديها » لم يكن يسمح لهما بأن تستمتع بالمباهج النادرة التي عرضها للمتصرف اليها ، وعلى ذلك يكون « طفله » قد أفسده « راشده » . أما « والده » فكان ضعيفا جدا ، لدرجة أنه لم يعجز عن تقدير النتائج فقط ، بل أنه ظن أن فكرة النتائج كانت ساذجة ، ومتزمتة بصفة عامة ، وأنه كان مثل سكارليت اوهارا يفضل أن « يفكر في ذلك غدا » .

ومع نمو علاقتهما قل الحديث بينهما شيئا فشيئا ، فلم تكن هناك معاملات على مستوى (والد - والد) وكانت هناك معاملات قليلة على مستوى (راشد - راشد) . أما على مستوى (طفل - طفل) فقد نتج عنها مضايقات ضخمة في « والد » الفتاة . ومن هنا بدأت العلاقة تستقر على طراز (والد - طفل) مع قيامها بدور الشريك المستول والناقد ، وقيامه هو بدور « الطفل » الشقي صعب المراس وأخذ يعيد تمثيل موقفه الأصلي في الطفولة .

كان هذا التقييم المتعلق بنموذج (الوالد - الراشد - الطفل) مختلفا تماما عن الحكم على كل من الشريكين بأنه طيب أو ردي . كان بحثنا عن معلومات ايجابية تدور حول كل منهما ، على أمل التنبؤ بنوعية العلاقة المتكينة في المستقبل . وبعد لقاء الضوء الكثير على هذه المادة ، قررت الفتاة إنهاء العلاقة لأنها لم تكن توحى بالانعقاد المنتظرة لكل منهما . وقد ساعدتها على رؤية كيف كان طفلها الذي يشعر أنه ليس على مايرام ، يخشى من محاولات الرجال الذين كانوا يسعون للتقرب منها لأنها ، رغم أن منهم من كان أقل منها ، تشعر بأنها ليست جديرة بالاقتران بانسان مثالي . وقد اكتشفت السبب في عدم تكامل هذه العلاقة كما فطنت الى ما كانت تبحث عنه في الرجل ، وتغير موقفها من الشعور بأنها ليست على مايرام ، الى موقف آخر تحترم فيه ذاتها . ولا تتناقض كافة العلاقات بمثل وضوح هذه العلاقة . لقد كان لها « والد » قوي ، بينما كان له « والد » ضعيف .

وهناك حالات عديدة يكون فيها « الوالد » قويا لدى الطرفين كليهما ، ولكن بهضمون مختلف ومتنافر في الغالب . فاختلاف المضمون الديني والثقافي يمكن أن ينتج متاعب جديده اذا شعر كل طرف بالحاجة الشديدة للالتزام بتوجيهات « والده » غير المختيرة . وأحيانا يحدث التفاضل عن هذا الاختلاف في المرحلة المبكرة للزواج ، ولكن سرعان ما ينطلق في اندفاعه ضارية عند انجاب الصغار . فقد يوافق الرجل اليهودي مسبقا على تربية أولاده حسب العقيدة الكاثوليكية طبقا لرغبة

عروسه الكاثوليكية ، ولكن هذا لا يعنى أنه لن يكون قلقلًا جدا حول هذا الموضوع فيما بعد .

والحقيقة هنا هي أن « عقيدتي أحسن من عقيدتك » وأن « أهل هم أفضل من أهلك » ، سرعان ما تتحول الى : أنا أفضل منك . ولا يعنى هذا القول بأن الاختلافات التي من هذا النوع تستصحب على الحل ، ولكنها تحتاج « راشدا » متحررا في كلا الطرفين ينطلق على أساس موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) .

ربما تعرف هذه الاختلافات قبل الزواج ، ولكن ذلك نادر الحدوث . ان الطرفين قد وقعا في الحب ، واذا رغبا في عمل أى استشارة قبل الزواج ، فانهما يقضيان جلسة سطحية لمدة ساعة مع رجل الدين ، ثم يمضيان على أساس تحقيق رغبتهما فيما يطلق عليه اسم : الزواج السعيد ، غالبا دون تحقيق الفائدة المرجوة من هذه الزيارة .

اذن فما هي احتمالات بناء أو انقراض الزواج الذى دخل فيه الطرفان دون الاستفادة من هذا النوع من التحليل ؟ وخيت أنه لا يوجد شخصان متشابهان ، فان فكرة المطابقة الكاملة تكون فكرة مضللة . ويمكن أن نعرض المشكلة بصورة أفضل اذا استخدمنا مصطلح مقارنة الصغوبات : انه من الصعب تجاوز الاختلافات وعمل تسويات ، ولكن البديل صعب أيضا . ونعنى به فسخ الزواج . ان الانسان لا يستطيع أن يمضى في العمل على أساس التعبيرات المطلقة مثل « الطلاق خطأ دائما » لأن هناك مبادئ أخرى يمكن تطبيقها ، أما الاصرار على مبدأ أن تعيش المرأة مع زوج متعنت ووقح ، ولا تجده السعادة أبدا مع أى شخص آخر ، فانه يلغى أهمية الكرامة الانسانية الى يوم الحساب : (نأخذ اختيارك وعليك تحمله) وهذا يعنى الاصرار على أن يستمر الرجل في تحمل زوجة كسولة حقودة ، تنكر أى مسئولية عليها في تدهور زواجهما ، وهو تجاهل لنفس مبادئ الكرامة الانسانية . ولا يعنى ذلك القول بأننا لانستطيع الحصول على الزواج المثالى كرابطة مستديرة ، ولكننا يجب ألا نراه رخصة للإيقاع بالناس في شرك يرتبطون فيه الى الأبد بواجبات شرعية ولكنها غير أخلاقية . وفي بعض الأحيان لا يبدأ الناس في فحص زيجاتهم حتى يرون الطلاق قادما نحوه ، وحينئذ تبدأ صغوبات المقارنة النسبية في الظهور ، ويبدأون في فهم طبيعة الاختيارات التي يجب اتماها .

ان الزواج النعس ربما يجعل حياة المطلق السعيد أو العازب المرتاح البال تبدو عظيمة حقاً ، ولكن الاختيار الطائش على أساس فرض غير مفهوض

قد يقودنا فيما بعد الى المزيد من اليأس . ويعالج مورتون م . هنت في أحد كتبه (١) : حياة الأزواج السابقين ويرى أن تجربة انتهاء الزواج لم تكن بالمدمرة تماما ، ويذكر هذا المؤلف الحقائق العديدة التي تلي الطلاق والتي يجب على من يزمون الطلاق أن يأخذوها في الاعتبار لكي تجعل قراراتهم قائمة على أساس مقارنة الصعوبات : صعوبة الرحلة بصفتها الما متواليا ، وفقدان الأصدقاء القدامى الذين لا يريدون أن (ينحازوا الى أحد الجانبين) ، وفقدان الصغار ، وتمزيق قلوب الصغار ، والخراب المالي ، والتورط في الفضل والتصب الناتج عن ضرورة أن يبدأ الانسسان من جديد . ان على « الراشد » عند تقييم موقف الشخص أن يأخذ هذه الحقائق في الاعتبار . وبعد ذلك يجب أن يتجه البحث الى الزواج نفسه . اننا نجد في الغالب أن شريكا واحدا فقط هو الراغب في بدء الفص حيث أن واحدة من أكثر ألعاب الزواج شيوعا هي « انها غلطتك أنت وحدك » ، فاذا جئنا أحد الشريكين وليكن هو الزوجة التي تتعلم نموذج (الوالد - الراشد - العلفي) فاننا حينذاك نتعمق في الطرق التي نستطيع بها أن نشبك « راشد » زوجها ، ونجعله يهتم بأن يتعلم اللغة جيدا ، لأنه لا يمكن البدء في التقدم على أساس قاعدة (راشد - راشد) دون الاعتماد على لغة مشتركة . فاذا رفض أحد الطرفين التعاون في هذا ، فان فرص إنقاذ الزواج ستكون معدومة . أما اذا كان الطرفان مهتمين بما فيه الكفاية للعمل في سبيل استمرار الزواج ، فان نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) سيدهما بأداة للفصل ذاتيهما عن توجيهات « الوالد » القديمة ويجقق لهما أصاليب ممتازة لممارسة اللعبة (٢) .

ويعتبر عقد الزواج نفسه أحد أوليات الأشياء التي سيفحصانها بعد أن يتعلما اللغة . ان عقد الزواج المادى هو عقد سيء لأنه يمثل عقد صفقة متكافئة ويركز هنا على الحسابات المادية . ويسمى اريك فروم هذا النوع من عقد الزواج : « المتاجرة بطرود الشخصية ، أو المقايضة الفيبية للشخصيات » . انها ستكون مجرد معيّن له - اليسا زوجين لطيفين ؟ - الا يكمل أحدهما الآخر ؟ ان مثل هذه الأقوال تحيلهما الى أشياء لا أشخاص ، في سوق المنافسة . ان عليهما أن يستمررا في تقاسم هذا المالك المادى والا انهار الزواج القائم على المصلحة . ويكون هذا العقد من عمل

M. Hunt, "The World of the Formerly Married", (New York : (١).
McGraw-Hill 1966).

E. F., "Trade of Personality Packages.

(٢)

« الطفل » • ان « الطفل » يفهم العدالة وتقاسم الأرباح ، ولكنه في موقف (ليس على مايرام) لا يعرف مبدأ أكثر عمقا ، مبدأ لا يسعى فيه لجسود حصوله على نصيبه من الصنف ، بل يكون فيه راغبنا في التفاضل عن العائد ، ويكرس فيه وقته لشريك حياته في اطار الاهداف المشتركة التي يرسمها « الراشد » • ويصبر بول شير في كتابه التأمل الرائع عن هذه الفكرة بهذه الطريقة : « ان الحب مسرف ، لا يابى للحساب ، ولذلك فهو دائما مدين (٣) »

ان « الطفل » وهو يريد الحب ، لا يرى الحب بهذه الطريقة • اما « الراشد » فانه يستطيع • هناك حساب للباس في عالم اليوم ، لأن كل شخص يبحث عن الحب ولكن يبدو أن القليلين هم القادرون على تقديمه • وهذا بسبب التأثير الدائم لسيطرة موقف (أنا لست على مايرام ، وانت على مايرام) على « الطفل » • وهو تأثير موجود في كل شخص • وعلمنا أن نتذكر كيف أن الشخص الصغير يحاول أن يخفف هذا الحمل عن نفسه مبكرا في بداية الحياة بلعبتين أصيلتين هما : « ما لدى أفضل » ، و « حصلت على الأكثر » • ومن الحق القول بأن فكرة تقاسم الأرباح تبدأ في الظهور ، ولكن يبدو أن موقف (ليس على مايرام) يزعم فكرة العدالة مبكرا في بداية الحياة •

في صباح أحد الأيام كانت ابنتي هايدى ذات الأربعة أعوام - غلى وشك شراء قطعة من الحلوى مع زميلتها ستاسي • وأخذتا تفكران في أي منهما ستحصل على القطعة الأكبر ، بالرغم من تذكيرهما مرارا بأن هذا النوع من المنافسة يؤدي دائما إلى المشاكل • حينئذ أعطت لهن كل منهما فطيرة • وكان واضحا للبنتين أن هاتين الفطيرتين كانتا متساويتين • ولكن مع التسليم بهذا التنازل ، ظلت هايدى غير قادرة على مقاومة الاعتراض الذي بدأته وتبسكت به : « ها • ها • ها » لقد حصلت على فطيرة مائلة لفطيرتك • أما أنت فخلاص ذلك ! » وهذا نوع من المناورات المحفوظة في « الطفل » والتي تظهر فيما بعد عند زواج الصنف •

ولذلك يجب على المشرىكين اللذين يبحثان عن إتخاذ لزوجهما ، أن يبدأ جهدا مشتركا لتحرير « الراشد » حتى يمكن فحص (الاحساس بأن المرء ليس على مايرام) في « الطفل » والمضنون الغير للمضايقات في

P. Scherer, "Love is a Spendthrift", (New York : Harper & Brothers, 1961). (٣)

« الوالد » لدى كل منهما لمعرفة كيف أن هذه المعلومات القديمة تستنتر في السيطرة وتخريب علاقتهما في الحاضر .

ومما يخرب العلاقات المشتركة الآراء المطلقة مثل : « هكذا أنا - لا تحاول أن تغيرني » . ومن يتمسك بالمبدأ المتشدد : « اننى صعب المراس حتى أتناول أول فناجين القهوة » يلقي بوزر أخطائه على طبيعته بدلا من أن يعتبر أن أخطائه هي السبب في سوء طباعه . ومثل هذا الشخص يكون مصدر ازعاج لعائلته في كل صباح ، مع أن الصباح يمكن أن يكون أفضل أوقات اليوم ، ولكنه يتحول من نقطة انطلاق للعمل والنشاط ، الى محنة جنونية مفعنة بشاعر اليأس والعداء . يندب الأبناء الى المدرسة وهم يثماجرون ، ويندفع الزوج خارجا الى عمله وقد أصيب بعسر الهضم . وتشعر الأم بالهبوط لأنها فقدت فستمعيها المرغمين على الاستماع اليها . والحقيقة هي أنه ليس من حق أحد أن يرغب في مزيد حتى يتناول أول فناجين القهوة أو في أى وقت آخر . ان كل انسان لديه الاختيار ، طالما أن « رائدته » قد تحرر .

تقول أغنية فرنسية قديمة : « الحب هو طفل الحرية » ويحتاج الحب في الزواج الى حرية « الرائد » لفحص « الوالد » لقبوله أو رفضه على أساس سياق أحداث اليوم الحاضر ، وأيضا لفحص موقف « الطفل » والتعويضات المشاكسة ، أو الألعاب التي يمارسها حتى ينضو عن نفسه حمل (الشعور بأنه ليس على مايرام) .

ان الأزواج الذين يدخلون في مجموعات العلاج انما يفعلون ذلك لعدة أسباب : البعض قد سمع عن تحليل المعاملات وجاء « ليتعلم شيئا جديدا » ، والبعض الآخر يأتي للبحث عن اجابة السؤال الباهت غير المستقر ، ولكنه يتوازي مع « ألا يوجد في الحياة ما هو أكثر من ذلك ؟ » ، والبعض الأخير جاء لأن « صقله » يقومون في المتاعب . ويأتي الكثيرون لأن علاقتهما الزوجية تمر بمرحلة حرجة . وكان العديد من الأزواج السبعة والثلاثين الذين عالجتهم على فترة أربع سنوات يفكرون في ، أو على الأقل قد ناقشوا « الطلاق » كاسلوب وحيه للتخلص من مشاكلهم . وكان البعض قد بدأ الاجراءات الشرعية وأحال الموضوع الى محاميه أو نقاضى محكمة الأحوال الشخصية . وكانت أزمة سبعة عشر من هؤلاء الأزواج (٤) (٤٦٪) قد

(٤) في هذه الفقرة من الموضوع يجد القارئ أن كلمة زوج تعني اثنين أما كلمة أزواج فتعني مجموعات مكونة من اثنين هما الزوج والزوجة معا - للترجيح .

ظهرت مع تقل أحد الشريكين الى المستشفى بسبب هبوط شديد مع الميل الى الانتحار أو محاولة الانتحار بالفعل . وكان بين المرضى الذين نقلوا الى المستشفى أربع عشرة زوجان وزوجان . وتضمنت حالة واحدة فقط زوجا وزوجته معا خسب طلبهما « ليجعلا الأشياء متساوية » . ولم يكن أى من هؤلاء الأزواج قد مضى على زواجهما أقل من عشر سنوات . وكان لديهم جميعا صغار ، كما كان لدى بعضهم أحفاد .

وقد تعلموا نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) اما في مجموعات بالمستشفى ، أو في جلسات فردية بمكتبى . وعندما كانوا يفهمون المبدأ ، كانوا يمرون عن الاشتياق للانضمام الى إحدى مجموعات الأزواج الموجودة التى يتكون كل منها من خمسة أزواج ، وكان متوسط عدد جلسات العلاج لكل زوج هو سبع عشرة جلسة ، بمعدل جلسة كل اسبوع على مدى أربعة شهور . وكان هناك جدول زمنى لمجموعات الأزواج حتى آخر ساعة فى اليوم بمعدل ساعة واحدة وأحيانا كانت تزيد عن الساعة . ومن بين هؤلاء الأزواج السبعة والثلاثين لا يزال خمسة وثلاثون زوجا متزوجين حسب علمى والفصل اثنان فقط . وقد تخلص من المجموعات أربعة من بين هؤلاء الخمسة والثلاثين لأنهم كان عليهم أن ينصرفوا عن الألعاب لعدم رغبتهم فيها . أما الواحد والثلاثون زوجا الآخرون فقد قرروا أنهم يتممون بمعاملات طبية فى زيجاتهم ، حيث يجد كل شريك الآن ، السعادة فى الأهداف الجديدة ، مع الغياب النسبى للألعاب القديمة الملمسة ، وتحقيق الألفة . وبذلك تحقق أحد الأهداف الأصلية للعلاج وهو انقاذ الزواج بحيث نستطيع أن نحقق النجاح مع هذه المجموعة بنسبة ٨٤٪ .

ان العلاقة بين الأزواج المديدين تمثل شبكة معقدة من الألعاب حيث ينتج تراكم مشاعر الاستياء والحارة ، نسخا معقدة ومكررة من المشاجرات « انها غلطتك وحدك » أو « عيب عليك » أو « والدك رجل مشاكس » أو « لولاك لكنت كذا وكذا » . ان القواعد والأنماط فى هذه الألعاب المذكورة بتفصيل عظيم فى كتاب برن : Games People Play - ألعاب يلعبها الناس » الذى يعتبر دليلا من أعظم الأدلة المثالية نوصى كل زوجين بقراءته فى حالة العلاج . وتتطور هذه الألعاب كلها من لعبة الطفولة المعروفة باسم « ما لدى أفضل » والتى صممت للتغلب على الخوف الاصيل لدى الانسان من الوقوع فريسة للخداع . وقد كشف ادوارد اليب ببراعة فى مسرحية « من يخاف فرجينيا وولف ؟ » التى سبق ذكرها ، عن أحد أساليب الحياة القائمة على الألعاب . وهذه المسرحية تصور أنه بالرغم من

كل اليأس الناتج ، فلا تزال هناك فوائد ثانوية بما فيه الكفاية للقول بأن الألعاب يمكن أن تبقى على الزواج وبعض الزوجيات يمكن أن تظل قائمة بفضل شريك « مريض » وإذا بدأ هذا المريض في التحسن ، وبدأ يرفض الانسجام في الألعاب القديمة ، فإن الزواج يبدأ في التصدع . وقد دعاني أحد الأزواج وكانت زوجته قد خرجت من المستشفى بعد عشرة أيام من دخولها ، وكان في حالة من الذعر وقال : « ان زوجتي تبدو أسعد وأحسن ، ولكنني الآن لا أستطيع أن أتماشى معها مطلقا » . ان الزواج مثل بدن الإنسان ، إذا بدأ أحد الكتفين في التهدل كان حتما أن يتكامل معه الكتف الآخر فيتهدل بدوره حتى تحتفظ الرأس بوضعها العنودي بالنسبة للقدمين . وكذلك إذا تغير أحد الشريكين فلا بد من حدوث تغيرات أخرى تكمله لكي تحتفظ العلاقة بوضعها السليم . وتعتبر هذا أحد نقائص نوعيات العلاج النفسي القديم ، حيث كان الطبيب النفسي يعالج أحد الشريكين وحده ، ويرفض حتى مجرد الكلام مع الشريك الآخر . وكان التركيز يدور حول العلاقة التي أقيمت بين الطبيب النفسي والمريض ، تاركا العلاقة الزوجية خارج الباب . ورغم تغير ولاء المريض وسلوكه ، إلا أن الزواج كان يعاني من المتاعب غالبا ، لأن الشريك الآخر لم تكن لديه الأدوات الإدراكية التي يفهم بها ما كان يجري ، أو يفهم معنى ما تراكم لديه من الغضب واليأس .

وإذا كان في وسع الطرف الآخر العلاج فقد يلجأ للعلاج مع طبيب آخر لتزداد الفجوة بين الزوجين اتساعا حيث يغير هذا الطرف أيضا موطن عاطفته ، واذ تضيق قاعدة الاتصال بين الزوجين ، يصبح الطريق مفتوحا لطرق جديدة أفضل لممارسة لعبة « ما لدى أفضل » في شكل « طبيبي نفسي أفضل من طبيبك » أو « انني أنقلب على مشكلتي أفضل منك » أو « سأخذ قرارا عما اذا كنت سأمارس معك الحب بعد جلسة يوم الأربعاء » . ان الاثنين قد أغرقا « طفلها » في عملية استبطان كلية قد تملأها بيانات مفيدة حول منشأ شعورها ، ولكنها تعجز عن الامساك بحقيقة أنه ليس هناك شخص واحد ، بل اثنان في علاقة زواج . وهناك مبدأ يجبر عليه أطباء النفس - بالرغم من أنه قد يبدو متطرفا الى حد ما ، إلا أنه وثيق الصلة بموضوعنا إذ يصير العديد من الأطباء النفسيين على أنه لا توجد صيحة للمشاعر العقلية إذا لم يواجه الإنسان الحقيقة . وإذا كانت هذه هي القضية فلماذا يجعلون مرضاهم يرقنون على الأرائك حيث يسهل حلم اليقظة ؟ ربما كانت المرتبة ذات المسامير أفضل .

ويجب أن يكون كل شريك راغيا في تأكيد مسئوليته عن نصيبه في خلق المشكلات التي يعاني منها الزواج . ان وجهة النظر القائلة : « انها غلطتك وحدك » قد اعتبرها امريسون حجة باطلة - في ملاحظته عن انه « لا يستطيع رجل أن يقترب مني الا من خلال سلوكي الشخصي » . فاذا كان الزوج قد دأب على اهانة زوجته لمدة عشر سنوات وقد احتملت الزوجة ذلك مدة العشر سنوات ، فانها تكون بطريقتها هذه قد شاركت في التغيير . واذا رفض كلا الشريكين تأكيد هذه المشاركة ، فان الأمل في التغيير يصبح ضئيلا .

وقد كتب آرثر ميللر في قصته المؤثرة عن ماجي في مسرحيته (After the fall - بعد السقوط) (وهي قصة شخصية كانت شديدة الشبه بزوجته مارلين مونرو) أن مسرحيته كانت تدور حول احباط أو عدم قدرة الانسان على أن يكتشف في نفسه بذور تدمير ذاته . « انها نفس المعركة دائما وأبدا : « أن ندرك بشكل أو بآخر مدى تورطنا في صنع الشر أمر رهيب لا يستطيع المرء احتماله ، ولذا فنحن نطمئن أكثر الى رؤية العالم في صورة الضحايا الأبرار والمحرضين الأشرار على استخدام العنف والقسوة وهي صورة لا تؤذي احساسنا بالبراة . ولكن ما هو أكثر الأماكن براة في أي قطر ؟ أليس هو مصحة الأمراض العقلية ؟ وهناك يمضي الناس في ممارسة حياتهم بمنتهى البراة ، غير قادرين مطلقا على النظر الى أنفسهم . ان كمال البراة حقا هو الجنون (5) .

وهذا « الهلع الذي لا طاقة لنا به » يكون مفهوما عندما يفكر المرء في أن الاعتراف بالمشاركة في خلق المشاكل ، يقضي حيا آخر الى حمل الاحساس بأن المرء ليس على ما يرام ، وهو الاحساس الفظيع الذي كان سببا للمشكلة في المحل الأول . ان الاعتراف بالذنب ، أمر صعب . انه الاسامة العظمى « للطفل اليأس » . وهذا الحمل الإضافي الذي قال عنه اللاهوتي الألماني ديتريش بونهوفر : « أليس هذا عبثا جديدا ثقيلنا نضيفه الى الأعباء التي تثقل كاهل البشر ؟ ، وهل هذا هو كل ما نستطيع أن نفعله عندما تثن نفوسنا وأبدان الناس تحت ثقل العديد من المعتقدات التي صنعها الانسسان (٦) ويظهر لنا تحليل طبيعة (الوالد - الراشد - الطفل) طريقة للخروج من هذه المشكلة التي تتمثل في استحالة التغيير بدون الاقرار بالمشاركة ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى

A. Miller, "With Respect for Her Agony. But with love", (5)
Life, 55 : 66 (Feb. 7th, 1964).

D. Bonhoeffer, "The Cost of Discipleship". (New York : (٦)
Macmillan, 1963).

ضرورة الاعتراف بالذنب • ونستطيع بطريقة عملية جداً أن نرى اختلافاً في كيفية مواجهة شخص بما يملكه • فإذا قلنا : « أنت انسان شاذ الأطوار ، ومي الطباع ، وصعب ، وغير مقبول - وهذا هو الخطأ في زواجك » فإننا ببساطة نزيد من احساسه بأنه ليس على مايرام • وننتج مشاعر تجعل الشخص أكثر شذوذاً ، وأسيواً طباعاً ، وأشد صلابة ، وغير مقبول • أما ذلك ، وأما أن تدفعه إلى الحزن العميق • وإذا استطاع الانسان من جهة أخرى أن يقول مشجعاً : « انه » طفلك » الذي ليس على مايرام هو الذي يسبب لك الضيق ويدمر فرص السعادة في الحاضر بطريقة الشاذة وطباعه السيئة » فإن هناك بعض الايجابية في المشكلة • ويرى الشخص نفسه ليس صفراً كاملاً ، بل خليطاً من الخبرة الماضية ومن الايجابية والسلبية ، التي تنتج الصعوبة • وعلاوة على ذلك فإنها تتيح الاختيار • ويستطيع الشخص أن يؤكد هذه الحقيقة عن نفسه بدون الانزال ، ويمكن أن يبدأ هذا التأكيد لتقوية « راشده » للقيام بعمل اختبار « الوالد » و « الطفل » والطريقة التي تنتج بها هذه التسجيلات القديمة طفيان الماضي •

وبدون الأقرار بدور المرء في صنع المشاكل التي يواجهها ، يمكن لتحليل المعاملات أو تحليل الألعاب أن يصبح ببساطة أسلوباً آخر للتعبير عن الكراهية : (اللعنة عليك وعلى « والدك ») أو « لقد عاد طفلك الشقي » أو « هل متلعب نفس اللعبة من جديد ؟ » وحينئذ تصبح هذه التركيبات نموتاً ساخرة ومهينة في لعبة جديدة تسخر من مسميات التحليل • وبينما نرى المشاكل التي تظهر ، فإننا نبدأ في فهم معنى الفكرة التي يصر عنها عنوانين موضوع آرثر ميلر حول هذه المسرحية : « مع احترام غداها - ولكن بالحب » •

إن الالتزام بهذه الفكرة هو المطلوب من الأزواج الداخلين في العلاج إذا أرادوا النجاح في بناء شيء من القيمة في زواجهم وهنا يبرز سؤال أخير هو : « ماذا نفعل عندما نتوقف عن الألعاب ؟ ماذا يوجد غيرها ؟ ماذا نفعل ؟ بالراشد » المتحرر ؟ •

وضع الأهداف :

إن السفينة التي ليس لها ميناء وصول تنحرف وتحملها الأمواج على غير هدى فتعلو وتهبط بها ، وتتلعب بها الرياح في عرض البحار • فإذا هدأت العاصفة ، أخذت تنساب في هدوء على صفحة الماء • انها تسامر

البحر في حركته • وهناك العديد من الزيجات التي تماثل حالة السفينة هذه • انها تظل طافية ولكن على غير هدى • وتكون أولوية المعلومات الداخلة في صنع القرار هي : ما الذي يفعله الآخرون ؟ ان أفراد هذه الزيجات لا يشنون عن دائرتهم الاجتماعية في الملبس والسكن وتربية الصغار والقيم والتفكير • أما النموذج الذي يتبعونه فيما يفعلون فهو : « مادام الآخرون يعملون ذلك ، فلا بد أنه على ما يرام » • « اذا كان كل فرد يشتري نوعا معينا من السيارات الفخمة فانهم أيضا سيشترون واحدة ، حتى اذا كانوا غارقين في الديون • انهم لم يقيموا بناءهم الخاص من القيم المستقلة الذي ينتمى الى واقع حياتهم ، ولذلك فانهم ينتهون غالبا الى خيبة الأمل والوقوع في براثن الاستئانة •

و « الراشد » فقط هو الذي يستطيع ان يقول : « لا » لمطالبة « الطفل » بشئ أكبر أو أحسن أو أكثر ، لكن يشعر أنه على ما يرام أكثر • و « الراشد » فقط هو الذي يستطيع أن يسأل السؤال : « اذا كانت أربعة أزواج من الأحذية تجعلك سعيدا ، فهل عشرة أزواج منها تجعلك أكبر سعادة ؟ القاعدة هي أن كل زيادة في الممتلكات المادية تسبب سعادة أقل بالنسبة للزيادة السابقة عليها • واذا استطاع انسان قياس السعادة كميا فسيجد أن زواجا جديدة من الأحذية يسبب سعادة بالنسبة للصغير أكثر مما تسببه السيارة الجديدة بالنسبة للرجل البالغ • وكذلك فان السيارة الأولى تسبب سعادة أكثر من الثانية ، والثانية أكثر من الثالثة • وقد قال هـ • ل • منكين (٧) : « يتذكر الرجل دائما الحب الأول ، أما ذكريات الحب التالية فتتوه بين حشد الذكريات •

ان « الطفل » داخلنا يحتاج الى المزيد مثلما يحدث في صباح عيد الميلاد : يصرخ الصغير المحاط بالهدايا ، « هل هذه هي كل الهدايا ؟ » لقد سئل ولد صغير في برنامج تليفزيوني للصغار عما حصل عليه من أجل عيد الميلاد - فقال في أسى : « لا أدري ، لقد كان هناك الكثير من الهدايا » •

ويمكن « الراشد » اذا فحص واقع عائلته أن يتبين ما اذا كان احراز

H. L. Mencken, "The Vintage Mencken, gathered by Alistair (٧)
Cooke, (New York, 1956).

أحد الممتلكات المحددة يساوى بمفهوم السعادة - رهن عقار ، أو بطاقة
 تأمين ، أو تحويل النقود عن شيء آخر . ويستطيع « الراشد » أيضا أن
 يشبع حاجة « الطفل » لتكديس الممتلكات بممارسة هواية مثل جمع
 الطوايح ، أو العملات ، أو الكتب النادرة ، أو نماذج معدات السكك
 الحديدية ، أو الزجاجات ، أو الصخور . ويستطيع « الراشد » تقرير ما إذا
 كانت تكلفة هذه المجموعات واقعية ، ولكن متى يكون هذا التكديس
 ضارا ، إذا كان للهواية فهو لون من ألوان المرح واللهم ، أما إذا أدى
 ذلك إلى افلاس الأسرة (مثل تجميع الفيلات ، وصيارت السباق ، ولوحات
 بيكاسو الأصلية) فإن « الراشد » هنا قد يقول « لا » بالنسبة للهوى
 « الطفل » . أما القرارات بخصوص الهوايات والممتلكات ومكان الإقامة
 وما يتحتم شراؤه ، فيجب أن تتم حسب مجموعة من القيم والاعتبارات
 الحقيقية القريفة بالنسبة للزواج . والاتفاق حول هذه القرارات شديد
 الصعوبة إذا كانت أهداف الزواج لم تتحدد بعد . وقد يتعلم الزوجان من
 خلال العلاج أن يلاحظا الفارق بين (الوالد - والراشد - والطفل)
 إلا أنهما لا يزالان في نفس الموقف من الرؤية الاجتماعية ، وإذا لم يرسم
 خطا للسير فانهما وإن تمتعا ببصيرة نفاذة ، يستمران في التراجع يمينا
 ويسارا ، صعودا وهبوطا ، ويظنان يمارسان الألعاب القديمة . وقد
 يتطلب زواجهما شيئا آخر أكثر من الالمام بتلك النظرية حتى يصمد أمام
 أعاصير الحياة الاجتماعية وتياراتها ، إذ يحتاج الزوجان إلى إنشاء وإقامة
 خط سير جديد في اتجاه الأهداف التي يتم التوصل إليها عن طريق
 « الراشد » . وأما أن يبدأ الناس مسارا جديدا ، أو ينحرفوا عن جديده
 مع التيار مهما عظمت معرفتهم بأساليب مكافحته إذا ظلت هذه المعرفة
 نظرية . هنا تصبح لدراسة القيم السلوكية والأخلاقيات والمعتقدات أهمية
 بالنسبة لمسار الزواج . ويجب على كل من الرجل والمرأة القيام ببعض
 التحقيقات الرئيسية حول ما يعتبرانه مهما لرسم مسارهما . ويصور ويل
 ديورانت المشكلة الأخلاقية الأساسية في شكل السؤال القائل : « هل من
 الأفضل أن تكون طيبا أو تكون قويا ؟ » (أ) وهذا السؤال يمكن أن يوجه
 بطرق عديدة في إطار الزواج : هل الأفضل أن تكون رحيما أم غنيا ؟
 وهل من الأفضل أن تقضى الوقت مع الأسرة أو أن تقضيه في الأنشطة
 المدنية ؟ وهل من الأفضل تشجيع صفارك على « قبول الهجوم » أم يردون
 الهجوم بمثله ؟ وهل من الأفضل أن تعيش اليوم مبتدرا أم تلخر كل قرش

فى البنك لأجل الغد ؟ وهل من الأفضل أن تكون معروفًا بأنك تراعى مشاعر الجيران أو أن تكون معروفًا ككائن ؟

وهذه هى الأسئلة التى يمكن أن تقود الى الوقوع فى شبكة لا أمل فى الخروج منها الا اذا قام « الراشد » بتوجيهها ، لأنها حتى ذلك الحين سديدة الصعوبة .

ولا تكفى معرفة الآراء التى يتضمنها « الوالد » فى كل من الشريكين ردا على هذه الأسئلة . ولا تكفى معرفة أن مشاعر « الطفل » تحتاج الى مساهمة كل منهما . واذا كانت معلومات « الوالد » أو « الطفل » غير متوافقة ، فلا بد أن تكون هناك بعض النماذج السلوكية التى يقبلها الطرفان ، والتى تعطى توجيهها لمسار الزواج ، وقيمة لكل القرارات التى يجب اتخاذها . لقد قيل أن « الحب ليس هو تبادل النظرات بين اثنين ، ولكنه نظرة مشتركة من الاثنين الى الخارج وفى نفس الاتجاه » وقد يقود « الوالد » و « الطفل » فى كل شريك الى الخلف فى انفراجات متشعبة . والالتقاء ميسور من خلال « الراشد » فقط ، ولكن لا يستطيع الزوجان أن يرسما هدفهما المشترك بدون الاعتبار السلوكية والأخلاقية . وهذا هو أحد أسئلتى التى أوجهها كثيرا الى الزوجين فى المواقف التى لا مخرج منها عن « ما العمل الآن ؟ » والسؤال هو : « ما هو الشيء الذى تحبان القيام به ؟ » وما هو الحب ؟ وما هى نوعية كلمات مثل « يجب » و « يلزم » .

سندرس هذه الأسئلة بعمق فى الفصل الثانى عشر - وعنوانه : نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) والقيم الأخلاقية .

الفصل التاسع

نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) والأطفال الصغار

(ان هؤلاء الذين لا يتذكرون الماضي ، قد حكم عليهم بان يكرروه -
جورج سانتايانا) •

ان افضل طريقة لمساعدة الصغار على مساعدة الابوين ، فاذا لم يحب
الابوان ما يعله صغارهم ، فلن يكون الصغار فقط هم الذين يجب ان
يتغيروا • واذا كان جوني يمثل مشكلة ، فلن يضى في طريق التحسن
بتحويله من انصائي الى انصائي ، اذا لم يتم عمل شيء بالنسبة للموقف
في البيت • لقد كتب هذا الفصل لمعاونة الابوين على مساعدة الصغار ،
لان الانصائيين لا يستطيعون أداء العمل الذي يصله الابوان •

اذا نسلم بوجود انصائيين عديدين في تربية الصغار ، بما فيهم
الاطباء النفسيون وعلماء علم نفس الطفل الذين يقومون بالاختبار وأداء
العلاج ، ولذلك فان البعض يتراعى له ان احضار التلميذ الصغير الى
الطبيب النفسي للصغار قد يعنى ضمنا « تجديد الطفل » أو ربما « حل
الطفل » • واذا لم يكن الابوان قد تجلدا مما في وقت واحد ، فانتى اعتقد
ان معظم هذه الجهود ليست الا مضیعة للوقت والمال • اننى اعتقد ان معظم
الوالدين يشعرون بطريا بنفس هذا الأسلوب ، ولكن بعض الآباء والأمهات
لا يعرفون ماذا يفعلون خلاف ذلك ، أو أنهم لا يريدون ان يورطوا أنفسهم ،
فيتمسكون بفكرة علاج الصغير ، اذا كانوا يستطيعون تخيل تكاليفها •
ويخجل الكثيرون من الآباء والأمهات الآخرين بسبب النتائج غير المعروفة
التي تترتب على لجوئهم الى طلب المعاونة في تربية الصغار ، وينظرون الى

موقفهم هنا كما لو كانوا أمام معضلة تستعصى على الحل متوجسين متخوفين ربما من الفشل أو عدم التوفيق . انهم ينظرون الى موقفهم هنا كما لو كانوا أمام صندوق باندورا (١) الذى كان من الأفضل أن يترك مغلقا .

انهم يقرأون أحدث الكتب ، ويستشيرون كتاب الأعمدة بالجرائد ، ويلعبون لعبة « ليست فطيرة ؟ » بعد تناول قهوة الصباح ، انهم يتذرعون « بالصبر » بدون تقديم ردود على أمل أن الصغير « يمر بحالة » . ويؤسسون آمالهم على مبدأ غير يقينى وهو أن « الإباحية » (٢) شئ جيد . ولا تأتى الردود التى يبحثون عنها ، ويمانون الامرين من تربية الصغير ويلتمسون شيئا من العزاء فى قولهم : « حسنا ، على الأقل أنا أكبر منه » . وبعض الآباء والأمهات يمارسون هذه الحقيقة المتعلقة بأنهم كبار فى قسوة ، بالتمسك والتعذيب للصغار بحجة تقويمهم . وسرعان ما يأتى الحساب يوما ، خلال فترة المراهقة ، عندما يصبح « أكبر منى » . وينتشر الشقاء فى كل اتجاه بالنسبة للأبوين والأبناء . ان هذا لن يكون . والمقصود بهذا الفصل تحسين صورة تربية الصغار بتطبيق نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ليس فقط على العلاقة بين الأبوين والصغار ، بل أيضا تلك العلاقة بين الصغار وغيرهم من الصغار .

ويعتبر العلاج النفسى للصغار ، تطورا حديثا نسبيا ، فبينما أكدت افكار التحليل النفسى المبكرة أهمية ما حدث للصغير فى بداية حياته العائلية ، نجد أن العمل مع الصغار مباشرة لم يكن جزءا من التطبيق المبكر لهذه الفكرة فى مجال العلاج ، وهناك صعوبة تتمثل فى مشكلة التواصل بالنسبة للشخص الصغير . أما المشكلة الأخرى فهى المعرفة المبكرة بأنه لا يمكن تطبيق ذلك لتحقيق الكثير فى العمل مع الصغير بدون ادخال الكبار الذين يلعبون دورا هاما فى بيئته المحيطة خاصة أبويه .

لقد تأسست أول مستشفى شامل مفهوم لمعالج الصغار فى العشرينيات من هذا القرن العشرين تحت اسم : Child guidance clinic - ومعناه :

(١) كانت باندورا حسب الأسطورة الاغريقية - هى أول امرأة فى الوجود ، ولقد اغراما حسب الاستطلاع بأن فتح الصندوق المتنوع ، وبذلك سمحت بخروج كل شرور العالم التى هربت من الصندوق لكى تصيب الجنس البشرى - للترجم .

(٢) المقصود هنا هو الحرية المطلقة فى ممارسة شئون الحياة دون تدخل من الآخرين ، وهو للمبدأ الذى تستند اليه الديمقراطية الليبرالية - للترجم .

مستشفى ارشباد الصغير . ونطور هذا الى « تجربة مشتركة » لعلاج « الوالد » و « الطفل » . وننحصر في معالجه الصغير بأسلوب أطلق عليه اسم : العلاج النفسى عن طريق اللعب ، ومعالجة الأب بمساعدته عن طريق الاستشارة المعروفة باسم : Case work - أى دراسة حالات المعجز عن التكيف الاجتماعى . وتتركز الطريقة فى إتاحة الفرصة للأبوين والطفل معا للتعبير عن المشاعر بفرض ازالة مصدر قوى من المصادر التى تؤدى الى ظهور السلوك السلبى والمدمر . ويتم تشجيع الصغير على مواجهة من يقلقه وهما الأبوان وذلك عن طريق استخدام اللعب وغيرها من الوسائط الرمزية للاتصال ، مع التخلص من « المشاعر السلبية » المكبوتة ، وعلى ذلك فإنه عندما يلقي التلميذ الصغير بالعروسة التى تمثل الأم فى دورة المياه ، أو يكسر ذراعى العروسة التى تمثل الأخت ، يقوم المعالجون بتدوين ذلك لطرحه فى الجلسة الثانية من المشاورات ، وهى من الأنشطة المهمة التى يقوم بها العاملون فى العيادة . ويتركز هذا الغرض فى أن هذه التعبيرات قد تفسح الطريق لتطوير المشاعر الأكثر ايجابية القائمة على الرؤية الجديدة التى قد يستخلصها الأبوان من عملهما مع الباحث الاجتماعى - بحيث أنه بعد عدد محدد من مقولات « انى أكرهكما » تجيء تباعا مقولات : « انى أحبكما » . ولكن عدم كمال فهم الأبوين للأفعال ، أو المعاملات الذى يترتب عليه ظهور المشاعر غالبا ما يترك الموقف معلقا . وفى الحقيقة أن الموقف يتطور الى الأسوأ لأن الصغير قد قيل له : « ان التعبير عن المشاعر شئ طيب » وبذلك تتحول الأسرة الى ميدان معركة يخوض فيه الصغير حربا شعواء . وتصير الحالة مثل نقط الأنف ، انها تخفف الاحتقان لحظة ، ولكنها لا تساعد على منع الاحتقان فى الغد . ان بعض الناس يمشون فى الحياة معبرين عن مشاعرهم ، ولكن قد يظهر أن نشاطهم يتجه الى الجانب الخطأ فى الأشياء . وليس التعبير عن المشاعر أو استخدام نقط الأنف هو المفيد فى العلاج النفسى ، لأن هناك ما هو أكثر من ذلك . كان التشجيع فى هذه الأساليب المبكرة للعلاج يركز على ما يمكن أن يحققه الصغير وكيف يمكن لسلوكه أن يتغير بالرغم من وجود بعض التأكيد على ضرورة اشتراك الأبوين . ويتركز تشجيعنا فى تحليل المعاملات على ما يستطيع الانسان المتمثل فى الأبوين تحقيقه لكى تتغير طبيعة المعاملات بين الأب والصغير . وعندما يحدث ذلك سيتبعه التغيير فى « الطفل » على وجه السرعة .

ويعرف كل واحد التعقيد المتزايد للبناء الثقافى والاجتماعى الذى نعيش فيه اليوم ، مع الضغوط المدينة التى تتجه الى اضعاف بل تدمير

الأسرة ، مثل البنساء الاجتماعى الابتدائى المتعلق بمقابلة الاحتياجات
العاطفية لدى الصغار . وتحت دافع الشكوك ، وتدفق وسائل الاعلام
والترفيه ، وفيض الحاجات ، يشعر الأم الحديثة بأنها محاصرة وعلى حافة
الاختلال العقلى فى معركتها مع الاحباط . ان كل شئ حولها متضارب ،
وحساسيتها معتمة ، كما لو أنها وجدت جهاز التليفزيون ينتقل من تقارير
الحرب السريعة الى اشراقات الحياة الجديدة مع الأحلام . ان « والدها »
فى صراع مع « والد » زوجها حول أبى نقاط التربية الجيدة للصغير .
وينفوق « والدها » على « طفلها » فى حوار داخلى يجعلها تشعر بالفشل
كأم . ان صغارها يصرخون أحدهم فى الآخر ، وفيها . انها تقرأ للحصول
على معلومات أوفر ، ولكن المعلومات تتضارب . تقول إحدى السلطات
« عاقبه بالضرب » بينما تقول أخرى « لاتعاقبه بالضرب » وتقول ثالثة
« عاقبه بالضرب أحيانا » . وفى نفس الوقت تتور مشاعرها الى الدرجة التى
تريد فيها أن « تطفىء » الحميم المستمر فى داخل الاشرار الصغار . ان
منزلها يفص بالأجهزة التى تصنعها فى كل شئ بمنتهى السهولة ، ولكن
ما تحتاجه بالأكتر هو أداة لاعادة النظام الى الفوضى الموجودة ، بتجديد
أى الأهداف مهم وأنها غير مهم ، وإيجاد اجابات وإقعية للسؤال المتكرر
« كيف أربى صغارى تربية سليمة ؟ » .

وعلى الجدة أن تلاحظ هذا السؤال بحكمة : « لم تواجه مثل هذه
المتاعب كلها فى أيام الماضى المجيدة قبل ظهور كل هذه الكتب التى تدور
حول علم النفس الحديث » . ان الجدة لها وجهة نظرها حول وجود قدر
كبير من الخير فى الأيام الماضية . وقد لاحظ جيسيل والى أن :

فى الأزمنة القديمة جدا ، امتد عالم الطبيعة والعلاقات الإنسانية
بطريقة منغلطة الى حد ما ، متمشية مع نفوس الصغار . كان البيت واسعا
والأسرة متمدة الافراد ، ومع ذلك فقد كانت الأسرة عادة تتوقع مساهمة
الكثير من الصغار وكان هناك شخص ما قريبا لرعاية الصغير الذى لم يصل
الى سن المدرسة وقيادته فى عالم المتزايد الاتساع ، فى مراحل متدرجة
خطوة خطوة ، مع التزايد التدريجى فى احتياجاته . وكانت حرية السير
مبلغة حول منزله أو فى الحقل أو الرعى أو بسستان الفاكهة . وكانت
توجد حيوانات فى الحظيرة ، والحوش ، وعشة الدجاج ، والرمعى . وكان
بعض هؤلاء الرفاق صغار العمر مثله ، وكان يستطيع أن يملأ عينيه منهم
ويلبسهم وأحيانا يحتضنهم .

وقد لعب الزمن لعبة التغيير فى هذه البيئة . لقد حرم « صغير
الشقة » ، أو حتى على المجال الأوسع قليلا - « صغير الضاحية » - من

رفاقه السابقين ، من البشر أو ما دون البشر . لما الفضاء الذي كان يعيش فيه ، فقد انحصر في حدود قليل من الحجرات أما الشرفة والحوش ، فربما تحولوا إلى حجرة واحدة بسبائك واحد أو اثنين (٣) .

لقد تباكوا على فقدان الصغير اليوم « للاتصال الفسيح النابض بالحياة النامية ، مع الصغار الآخرين ومع تشكيلة من البالغين » ، ولا يبدو فقد أن هناك فقداناً ملحوظاً لهذه التجارب المبكرة الطيبة ، بل أن هناك أيضاً فيضاً من المعلومات المخيفة الواردة ، ومن الطبيعى القول بأنه كانت هناك دائماً « حروب وأعمال وحشية » ، ولكنها لم تحدث في غرفة المعيشة على شاشة التليفزيون ، فالصغير قبل أن يستطيع أن يتمشى مع الصعوبات الأولية المتعلقة بالتوافق مع الأسرة بوقت طويل ، يكون قد تصرف إلى ما تسميه ابنتي الصغيرة « عالم مجنون » ، يتألف من الاضطرابات العنصرية ، والصغار المساجين المصوبى العينين الذين يجبرون على السير بالسونكي ، والقتل الجماعى ، وقادة العالم يتجادلون حول امكانية ابادة سكان الكرة الأرضية . ويضاف إلى ذلك الصعوبة التي تواجه الصغير في التفرقة ما بين الحقيقة والخيال : هل هذه هي نشرة الأخبار أم أنها فيلم سينمائى ؟ هل هذا هو رئيس الفرمان الفارس أم أنه المحافظ ؟ هل يسبب التلخين السرطان أم أنه لسيم الربيع ؟

أثناء الأزمة الكويتية التي حدثت سنة ١٩٦٢ كانت ابنتي هايدى فى الحضانة حيث كانوا يعلمون الأطفال « تدريبات القنبلة الذرية » فقالت لأمها : « ماما .. دعينا نتحدث عن الحرب والقنبلة وهذه الأمور » فأجابته الأم : « اننى موافقة يا هايدى - فبالذا نقول عنها ؟ » فردت هايدى قائلة : « قولى جميع الكلمات يا أمى . اننى لا أعرف كلمة واحدة من الكلمات التى تتعلق بذلك » .

اذن فهذا هو العالم كما نراه ، ليس بعضاً من المناظر الريفية التى تغطيها الحملان الصغيرة والأزهار الصفراء والحمامة التى يحبها الصغار ، ولكنه عالم يضحج بأصوات الغضب والتصادم - وعلى نفس هذا المستوى من التضخيم نواجه الإغراء ، بصرف النظر عن ذلك كله ، ولا نهتم بالاختلاف بين الحلم والجريمة ، أو الاختلاف بين اغتيال رئيس والوفاء المضحكة لصارع ثيران ذى قبعة سوداء .

Arnold Gessel and Frances Ilg, "Infant and child in the Culture of Today," (New York : Harper, 1943). (٣)

قال ويل روجرز مرة : « ان المدارس لم تعد كما كانت في الماضي ، ولم تكن كذلك أبدا » . ربما لم تكن الأيام الخوالي الطبية « طيبة » ولكن الشر لم يمس الصغار مبكرا وبعث كما يحدث في هذه الأيام . ولا يغير هذا من المشكلة ولكنه يجعلها أكثر الحاحا عن ذي قبل لأن الأبوين لديهما الآن أداة لمساعدة صغارهم على تطوير « الراشد » مبكرا للتمشي مع ظروف العالم كما هي بالفعل .

من أين نبدا :

من الناحية المثالية ، نحب أن نبدا من البداية ، لقد اتضح أحد التطبيقات الفعالة لتحليل المعاملات في برنامج تعليمي للآباء والأمهات الذين ينتظرون الانجاب ، وتم تنفيذ هذا البرنامج في ساكرامنتو سنة ١٩٦٥ على يد الدكتور ايروين ايشهورن وزوجته - وهو طبيب لامراض النساء وأخصائي في التوليد - أما زوجته فهي مدرسة بكلية ساكرامنتوسيتي - ان معظم تدريبات الاستعداد لولادة الصغار تتضمن في العادة - تعليمات لمن سيرزقون بأولاد - خاصة الأمهات - حول ما يتوقعنه خلال فترة الحمل والمخاض وولادة الصغير ، مع معلومات فياضة حول العناية البدنية بالصغير . وغالبا ما كانت تضاف الى هذه الدراسة كتب وأقلام مختلفة ، تصور الحياة المثالية مع الوليد . وتلور بعض المناقشات حول الجوانب السلبية للتجربة ، مثل احتمالات ظهور علامات زرقاء على جلد الأم عقب الوضع ، أو الاجهاد أو المنص ، ولكن نادرا ما كان يجري فحص خاص متعمق حول العلاقة بين الزوج والزوجة ، وهما الأم الجديدة والأب الجديد وهذا الشخص الجديد الجميل والمفرح أحيانا ألا وهو الصغير ، ويجب معظم أطباء التوليد مساعدة الزوجين في هذا الصدد ، ولكن لا يوجد نظام معين يمكن تدريسه بسرعة وفهمه ببساطة وجاهز للاستخدام . وقد صرف عدد كبير من أطباء التوليد ساعات عديدة في مناقشات مشجعة حول المصاعب المحيطة بموقف الأسرة ، مخففين من التوتر بإجابة الأسئلة ، ومحاولة تسكين الخوف بالمساعدة الرقيقة ، واعتمد عدد آخر منهم على الموقف الأبوي الذي يقول بالضرورة : « اتبع تعليماتي ، ونفذ ما أقوله ، وسيكون كل شيء على مايرام » .

وعلى أية حال فانه اذا كانت هناك مشاكل جديدة في العلاقات بين الزوجين فان هذا النوع من الأساليب قد يبعد هذه المشاكل مؤقتا الى قائمة الأولويات حيث ان الصغير بعد كل شيء ، يجب أن يأتي أولا .

ولكن مع عدم توافر الحل ، فإن المشاكل تظل مصدرا للمضايقات والغربة المستمرة للأم والأب كليهما خلال الشهر أو الأعوام الأولى من حياة الصغير ، وهي التي تحدث خلالها الانطباعات الأساسية لدى الصغير .

وبدأ الزوجان « ايشهورن » وهما عضوان في مجلس ادارة معهد تحليل المعاملات ، في التعرف الى تدريس نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لفصل الآباء والأمهات الذين كانوا ينتظرون الانجاب سنة ١٩٦٥ . لقد نظمت لقاءات مسائية لكل من الزوج والزوجة أسبوعيا . وكان الحضور اجباريا ، ولكن معظم الأزواج كانوا يحضرون بانتظام . وبالإضافة الى التعليمات المنتظمة حول الحمل والمخاض والولادة ، كانت تدرس اصول تحليل المعاملات ، تلك التي كانت تدرس بمفاهيم التجربة الحقيقية التي يمر بها الزوجان ، وهي تجربة الحصول على صغير . انها أداة وضعت لتحقيق غرض خاص ، ولكنه غرض وجد الأزواج أنه يمكن استخدامه لحل مشاكل عديدة أخرى في الحياة بعد وصول الصغير . ويبلغ مجموع محاضرات نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لكل زوج حوالي أربع وعشرين ساعة ، ولكن اللغة المستخدمة قدمت الأساس الصالح لاجراء مناقشة أوسع عندما تصل الأم الموشكة على الوضع الى مرحلة اختبارات الولادة . وفي صحبتها زوجها غالبا ، وهو الذي يشعر بجزء من المسؤولية أكثر من أن يكون مجرد متفرج .

لقد اتضح أن فهم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) مبكرا أثناء الحمل قد ساعد الزوجين على فهم مصدر بعض المشاعر الجديدة المعقدة التي ليست ايجابية كلها . ان الأسباب الذين يتضمن « والدهم » تسجيلات عديدة ملحة وغير مميزة حول الاتصال الجنسي والحمل ، يجب ألا يندعشوا عندما تدار هذه التسجيلات خلال هذه التجربة المشحونة بالانفعالات . ان الزوجين الضائعين حتى اذا كانا قد خططا وانتظرا الحمل بشغف ، فانهما سيجدان انهما معرضان لفترات من الاحباط « الذي ليس له تفسير » - ان عقد الزواج وعش الزوجية الرومانتيكي غير كافيين لمحو شريط « الوالد » القديم الذي سجلت به عبارة « أنا حامل » على أنها خبر فظيخ حقا ، ولن تغير أيضا شريط « الوالد » لدى الزوج الذي يظهر بالطريقة القديمة عندما يعرف النبا « لقد جعلتك حاملين » . وهناك مشاعر متوترة أخرى مرتبطة بالحمل ، أشار اليها جيرالد كابلان على أنها « فترة تزايد الحساسية الى درجة التآزم ، وأنها فترة هرامى فيها

للزوجين أنهما يواجهان مشاكل عويصة متزايدة (٢) . وبالإضافة الى التغيرات الخارجية الاقتصادية والاجتماعية توجد تغيرات داخلية كيميائية وعاطفية وهي التي تعطي دورا جديدا بالنسبة للأم خاصة اذا كان هذا هو صغيرهما الأول ، فهناك الوحدة أثناء المخاض ، والوحدة بعد العودة الى البيت مع الصغير ، خاصة اذا كانت زوجة عاملة ، وعليها أن تتحمل المسؤولية الجديدة المتعلقة بتنظيم الوقت . وهناك حقيقة أصيلة بالنسبة للأم التي تستقبل مولودها الأول وهي أنها لن تعود طفلة صغيرة مرة أخرى ، وأنها قد باتت تنتمي الى الجيل الأكبر سنا : انها الآن أم . وهذا هو نفس الشعور الذي يخامرنا بأن الحياة قصيرة ، ومرور الزمن بلا توقف ، وهو الاحساس الذي يجعل الناس ييكون أثناء حفلات الزفاف ، والمناسبات الجليلة تفتح الأبواب للمستقبل ، وفي ذات الوقت توصد أبواب الماضي بلا عودة . وهذه هي مشاعر الأم الشابة أيضا . وأحيانا تصبح هذه المشاعر كثيفة جدا حتى أنها تؤدي الى ما يسمى : **Post-Patrum** أي : اختلال ما بعد الولادة . وفي هذه الحالات وتصبح غير قادرة تماما على العناية بالمولود . وهناك مريضة واحدة ، الكامل « للراشد » . ولا تستطيع الأم التعامل مع احتياجاتها المتزايدة ، وتصبح غير قادرة تماما على العناية بالمولود . وهناك مريضة واحدة ، كنت قد رأيتها أولا في حالة اختلال مزمن بعد ولادة صغيرها الأول . ولكنها باقت قادرة على ترك المستشفى بعد ثلاثة أسابيع بعد التعرف الى نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) . وكانت قادرة على مباشرة العناية بصغيرها ، وصار « راشدما » أكثر قوة ، مع استمرارها في حضور مجموعات العلاج ، وجاء الاختبار الحقيقي لهذه القوة عند حملها للمرة الثانية بعد ذلك بعامين ، اذ اكتسبتها التجربة السابقة احساسا بالخوف والقلق خلال هذا الحمل ، ولكنها كانت قادرة على مناقشة هذا الموقف مع أخصائي التوليد حسب مفاهيم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) . (ان حقيقة وجود طبيين أحدهما أخصائي توليد والآخر أخصائي نفس ، يتكلمان نفس اللغة ، كانت مشجعة في حد ذاتها) . ووضعت صغيرها وظلت تتمتع بروح معنوية عالية خلال فترة « اختلال ما بعد الولادة » (وليس من غير العادي أن تتكرر الإصابة بحالة اختلال ما بعد الولادة - مع كل حمل) .

هذه اذن هي بعض المشاعر التي يمكن فهمها والتغلب عليها من

خلال نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) حيث صاصر الزوج والزوجة قادرين معا على استخدام لفتيهما المكتسبة حديثا . وقد شاركنا سونيا في الاستمتاع بالاثارة التي تولد من نرقب الحدث السعيد . ويشعر ايشهورن أنه اذا استطاع الطبيب استخدام « راشد » الزوج ، فانه يسهل على الزوج أن يصبح أبا ، ان علاقة (والد - طفل) بين بعض أطباء التوليد ومريضاتهم نستبعد الأب بالضرورة ، وتظهر الأم والطبيب مندمجين في نشاط يظهران من خلاله مهارة فنية استثنائية ، بينما يترك الزوج ليتأمل دخان سجاثره المحترقة في غرفة الانتظار . وتسبح معظم المستشفيات الحديثة للزوج بالبقاء مع زوجته ومساعدتها خلال ساعات المخاض . ويقرر ايشهورن أن نظام (الوالد - الطفل) يعمل مبكرا خلال ممارسته . ويصبح الزوج منشغلا بما يستطيع عمله لمساعدة زوجته أثناء المخاض ، كيف يدلك ويخفف الضغط البدني ، كيف يستطيع أن يعنى زوجته من المخاض ، وكيف تستطيع هي في الحقيقة أن تكذب على « راشد » حتى اذا كان « طفلا » هو الذي يسيطر أثناء احساسها بالتعب والخوف . وعندما يمر الزوجان معا بأزمة من هذا النوع ، فان مواجهة أى أزمة أخرى في الحياة يكون لها سابقة « اذا عملنا ذلك فاننا نستطيع أن نعمل أى شئ » وسرعان ما يتحدث هؤلاء الأباء عن « مولودنا » ويشعر كل من الأب والأم بالرضا عن نفسيهما ، وينتقل ذلك الى الصغير . لقد وجد هؤلاء الأزواج المعاونة في أن يعرفوا مبكرا خلال الحمل كما يقول كابلان :

(المرأة الحامل تحتاج الى حب اضافي مثلما تحتاج الى فيتامينات او بروتينات اضافية . ويحدث هذا خاصة في الشهور القليلة الأخيرة من الحمل . وخلال فترة الرضاعة . وغالبا ما تصبح خلال الحمل في حاجة الى المساعدة ، وتميل الى الانطواء ، وكلما كانت أكثر قدرة على تقبل هذه الحالة ، مع تزايد الحب والعناية اللذين تحصل عليهما من الناس المحيطين بها : تتزايد قدرتها على ممارسة امومتها نحو صغيرها . ان التخصصين لا يستطيعون ان يقدموا لها الحب الذي تحتاجه ، ولكنهم يستطيعون تحريك أعضاء أسرتها ، وخاصة زوجها ، لتقديم ذلك الحب . ونجد في الحضارة الغربية أن الزوج والأقارب الآخرين يعيشون غالبا في انسداد الأم المستقبلية والطلوب جهود خاصة تقاومة هذا الموقف) .

ان وجود الزوجين معا أثناء عملية الوضع نفسها هو ذروة المثالية بالنسبة لكليهما ، ولكن حتى اذا كان الزوجان متباعدين أثناء الوضع فان

نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لايساعدهما فقط أثناء وقت الحمل ، بل يسمح أيضا بأقصى الحرية للتخلص من الصراعات ، وهو أمر أساسى لتوفير بيئة مثالية يتمو فيها الوليد خلال سنواته الاولى .

إن الأم الدافئة الحنون هي الأم المتحررة من حوار (الوالد - الطفل) الدخلى الذى يثير فى نفسها موقف (لست على مايرام) ان « راشدها » المتحرر يستطيع أن يسمع الحقائق ، وأن يطرد النصائح والوصفات القديمة ، ويستطيع أن يستجيب لمشاعر الأمومة العفوية التى تثير الرغبة فى حمل الوليد وتدليله ومداعبته دون أن تتوقف الأم لتفكر ما اذا كانت هذه الرغبة سليمة أم لا . وهناك فكرة من أفكار « الوالد » التى يكثر التعبير عنها ، فى مجموعات الأزواج الذين سيزقون بالصغار ألا وهى « عليك ألا تكثر من حمل الصغير حتى لا تفسده » . وإذا أدير هذا الشريط فى كل وقت تذهب فيه الأم الجديدة لمداعبة صغيرها ، فمن الواضح أنه ستحدث مشكلة تصل الى «الوليد» بطريقة ما . ان « الراشد » فى الأم يستطيع فحص هذه الفكرة ويمضى مع تقدير الأم للموقف الذى سيقترب من هذا المعنى « اذا عاملت الصغير فى طفولته على أنه صغير ، فلن تحتاج الى أن تعامله كذلك بقية حياته » . (هذه الاصطلاحات :) افساد الصغير ، أو منعه من عادة تمودها ، قد بدت بالنسبة لى دائما فظة جدا ، وقاسية عند تطبيقها على البشر ، ولابد انها من اختراع زوجة أب شريرة من أولئك المذكورات فى قصص الجنيات - كانت تعيش فى برج مظلم ورطب فى مكان ما على الأرض البور !)

وتستطيع الأم ذات « الراشد » القوى أن تعالج مواقف أمها أو حمايتها (التى غالبا ما تكون من المواقف المشحونة بالتوتر) بطريقة تقلل المعاملات المثقطة المدمرة . انها تستطيع أن تقدر أن الجدة أيضا لديها (والد - وراشد - وطفل) وأن « والدها » و « طفلها » كليهما معرضان للوقوع فى المصيدة ، أو أن « راشدها » قد يقول لحمايتها أن لديها خادمة للعناية بالمنزل وأن الأم تعتنى بالصغير . ويستطيع « راشدها » أن يدع الترابه يتجمع أثناء اهتمامها بالصغير ، حتى اذا كانت عمثها الغنية أجاا ستصل فى هذه الليكة بالذات ومعها هدية ، وباختصار فان الأم والأب الجديدين لديهما الاختيار فيما يتعلق بكيفية المضى فى الإبقاء على هذه الوحدة الجديدة الثمينة - عائلتهما - التى جاء اليها وليد وأب جديد وأم جديدة .

ومن أهم المفاهيم المعاونة فى تربية الأطفال الصغار هو وعى الآباء والأمهات بموقف (أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام) . ان

« الطفل » يبقى طافيا بفضل احساس الام بأنها على مايرام . انه يشعر بموقف (انه ليس على مايرام) ، ولكن طالما كانت هي على مايرام فهناك شيء يستطيع ان يستمسك به . ان قيمة حنان الابوين بالنسبة للصغير تعادل تماما القيمة التي يراها الصغير في ابويه . ومن الواضح انه عندما يقع « طفل » الام في الفخ ، وتصيح داخله في علاقة (طفل - طفل) مع الصغير ، فانه يشعر بان عاله كثيب حقا . انه « طفل » (ليس على مايرام) من جهة . ومن جهة أخرى فهو « طفل » أم (ليست على مايرام) . واذا ساد هذا النوع من المعاملة في حياة الشخص الصغير المبكرة ، فان الطريق سيكون مفتوحا لظهور موقف (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) أو المبالغة في موقف (أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام) . ويجب أن تكون الأم والأب (خاصة الأم لأنها الطرف الأكثر تأثرا في السنوات الأولى) حساسة لموقف « الطفل » الذي يشعر بأنه (ليس على مايرام) الكامن فيها . ونستطيع أن نتوقع انتشار الحقد الناتج عن موقف (ليس على مايرام) ، ويصير أشد طالما أن الابوين خاصة الأم لم تطور الحساسية الضرورية ، والقوى الإدراكية ، والاهتمام بتطبيق أدوات مثل نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) في تربية الصغير . وان كان « الطفل » في الام يتمتع بموقف (لست على مايرام) قوى ، وأنه يتأثر بسهولة بمصاعب الحياة وعقباتها ، أو عدم التوفيق ، مثل السلوك العنيد للصغير الذي لديه هو أيضا « طفل » (ليس على مايرام) ، ويصير الطريق مفتوحا لسيطرة « الطفل » على « الوالد » مما يطلق سيلا من المواقف التي تؤدي الى انتكاس المرء الذي يأخذ في ممارسة أشواط من اللعبة القبيحة . وتكسب الام الجولة الأخيرة لأنها تدرك أنها أقوى وأكبر .

ومن السهل أن نرى أنه من خلال « الراشد » فقط يستطيع الصغير أن يتعلم أساليب أكثر فاعلية للحياة ، ولكن على الصغار أن يسألوا جيدا : كيف يتطور « الراشد » بدون رؤية أحد ؟ ان الصغار يتعلمون بالتقليد ، ومن أفضل الطرق التي يستطيع بها الصغير أن يتطور « راشدا » مع تزايد الدوائر القوية للتحكم هو إتاحة الفرصة له للملاحظة أحد أبويه عندما يستثار في موقف ، ويناضل لتكون له الغلبة بثورة غاضبة ، وليتحكم في « طفله » ويجعل استجابته إستجابة « الراشد » أي استجابة منطقية ورشيقة .

ان توضيح ماهية « الراشد » بتجربة عملية أكثر فاعلية من محاولة تعريفه نظريا . وهذا يثير السؤال عما اذا كان يجب على الابوين أن يعلموا

صغارهما نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) أم لا ؟ وبالنظر إلى تقارير (الوالد - الراشد) الصادرة عن الذين يدرسون النموذج من آباء الصغار ، نجد أن الصغير يستطيع أن يفهم مبادئ نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) في سن مبكر مثير للمعجب وهو من الثالثة أو الرابعة . ويمكن الوصول إلى ذلك عن طريق تعرض الصغير لتحليل المعاملات الخاص بأبويه . وعند انخراط الأبوين في تحليل المعاملة ، وتاديتها باستمتاع واضح ، فإن الصغير يلتقط معنى ما يجري . لقد اندهش آباء أطفال صغار في سن الثالثة أو الرابعة لدى سماع الصغير وهو يلقي بملحوظة يستخدم فيها كلمتي « والد » و « طفل » استخداما سليما .

وعندما يقول صغير في الخامسة (أبى ، لا تستغفد « والدك » كله) ، فإنه يفهمنا أن آباءه ينقسم إلى أجزاء ، وأن لديه « والد » و « طفيل » ، يمكن وقوعهما في الفخ . وعندما يقول الأب لصغير الخامسة ، « إذا استمررت في عمل ذلك ، فإنك ستستثير ، والدي » وليس هذا في صالح أى منا . ويصير الطريق مفتوحا لقبول معاملة (راشد - راشد) بحيث يدرك كل من الصغير وآباءه أن لكل منهما مشاعر وأنه من الممكن استثارتهما . ومعاملة (راشد ، راشد) هذه لا يستطيع أن تتطور إذا زجج الأب قائلا : « أفضل ذلك ثانية ، فاضطر إلى صفك أيها العبيط ! » . وكل ما سيؤدي إليه هذا القول هو إغلاق الكمبيوتر في الصغير . أنه لا يستطيع أن يتدبر مزايا ومساوىء « ما كان يفعله » فيما عدا حقيقة أنه سيئال . صفة وأنه عبيط . وهكذا ينتهي الدرس . ولابد أن الأب قد سمعها بنفس الطريقة عن أبيه ، إلى ما لا نهاية . أننا نحذر الأبوين هنا من أن أى إشارة إلى نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) خاصة (الدعوة إلى الألعاب) عندما يستثار « الطفل » في صغيرهما لأن الصغير سيعتبرها « والدا » ، وهذا يعنى أن الفكرة كلها يمكن أن تنسب إلى « الوالد » مما يضعف من فائدتها كأداة لانتاج معاملات (راشد - راشد) في البيت .

إنك لا تستطيع تدريس نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لصغير غاضب ومشحون بالأدبيني : أما نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) فيمكن الحديث عنه أكاديميا في مناسبات أخرى ، مع إعطاء الصغير المعلومات التي يستطيع أن يصل بها إلى تجربته التي يكتشف من خلالها حقيقة الأمر ويفهمه أى « ماذا ؟ أهذا ما أفعله ! » واستخدام هذه الكلمات في الوقت المناسب يسر للصغار البدء في التعبير عن مشاعرهم بكلمات بدلا من تمثيل الاحباط الذي حدث لهم في شكل سورة غضب لاحتواء الموقف بالأداة الوحيدة التي يملكونها وهي مشاعرهم .

وعندما يتدبر الانسان الغواصم التي تكاد أن تكون منيعة والتي تحول دون تطور « الراشد » في الطفولة ، فلن نجيب من وجود هذا القدر من الحماقات في حياتنا . ان حب الاستطلاع في الصغير ، وحاجته الى المعرفة - يعبران عن « راشد » النامي ويقدمان الحماية والمساندة للوالدين الحساسين والمفكرين . وعلى أية حال فقد يكون من المتعذر على الزوجين أن يمتعا بالقدر الكافي من الحساسية والادراك اذا وجدا صعوبة في تقبل الحاح صغارهما عليهما بالطلبات لأنهما يعطيان الأولوية « للطفل » و « الوالد » الكامن في نفسيهما .

ان خروج « الراشد » من البيانات المختزنة في الذهن يمكن أن يجعل تلك المواقف الإيجابية كالصبر ، والشفقة ، والاحترام ، ومراعاة شعور الآخرين - موضوعا للاختيار . والاختيار هو واحد من أمرين : اما الاستمرار في مساعدة الصغير ، أو قطعه باستخدام أساليب العنف القديمة « الوالدية » التي أفرزتها أجيال لاحصر لها من الآباء والأمهات الذين يرون أن الحق دائما معهم وأن الأبرين لا يخطئان .

إذا كان الفيلسوف معتادا أن يسأل في كل معاملة : « وماذا بعد ؟ » فان الأب قد يجد من المفيد أن يتساءل : « ماذا حدث من قبل ؟ » ماذا كانت المعاملة الأصلية ؟ من قال ذلك ؟ أما استجابات الصغار فليست بعيدة عما يثيرهم . ان التدريس على توجيه الأسئلة الصحيحة ، والانعكاس الى الاجابات ، سيقودنا سريعا الى مصدر الصعوبة . فإذا جاء الصغير الى أمه باكيا ، فانه يتحتم عليها القيام بصالحين : أحدهما هو تهدئة « الطفل » المشوش ، والآخر هو أن تدفع « الراشد » للعمل . انها تستطيع أن تقول : « أستطيع أن أرى البعض قد ألك ، فالضغار دائما يعانون من المتاعب » وفي بعض الأحيان لا يستطيع أن تفعل شيئا سوى الصراخ . هل تستطيع أن تذكر لي ما حدث ؟ .. هل إهانك أحد ؟ وسرعان ما يخبرها بما حدث ، وتستطيع الأم والصغير أن يتحدثا عنها (راشد - راشد) .

وأحيانا نجد الصغار يستغلون بعضهم ، فعلى سبيل المثال نجد أن الأخت الكبرى تحاول على الأخت الصغرى للاستيلاء على بعض النقود فتتعمد ارباكها ، وسرعان ما تعاقب الأخت الكبرى من أجل هذه المعاملة الاستغلالية ، ولكن علينا أن نسأل أنفسنا : « أين تعلمت هذا ؟ » ربما تكون قادرة على الابتكار بالقطرة ، أو قد يكون ذلك نتيجة درس تلقنته عن الأم والأب : كونى ذكية واحصلى على نقود كثيرة ، لأنها أهم من

للناس (حتى الأخوات الصغيرات) • ونحن غالبا ما ننسى كيف ننمكس
نظرتنا الى القيم على تصرفات صغارنا • ويحكى هـ • ألن سميت ، قصة
كتبتها صغيرة فى سن التاسعة : • حدث مرة أن كانت هناك فتاة صغيرة
تدعى كلاريسا نانس ايموجين لاروز • ولم يكن لديها شعر ، كما كانت
أقدامها ضخمة ، ولكنها كانت غنية جدا ، فكان الباقي سهلا •

ويستطيع « الراشد » بجانب سؤاله : « ماذا حدث من قبل ؟ »
أن يسأل أيضا : « ما هو الاعتبار المهم هنا ؟ » ان الوالد هنا فياض فى
المشاعر والتعبير ، ويستطيع أن يورد العديد من الأسباب والمبررات التى
تحمل الانسان أو لا تحمله على العمل ، وهذا الامتنكار لتصرفات
« الطفل » الصغير كما لو كان يتعرض لهجوم بمدفع رشاش فلا يسمع
شيئا بالمرّة • ويستطيع « الراشد » الاختيار ، ويعرض أفضل الجوانب
وليس كل الجوانب •

ان المعاملة التى تتوش الصغير هى تلك التى يعمد فيها الأب الى
الرد على أحد أسئلته بأن يقدم فى ضجر كل الأسباب التى تبرر لماذا
لا يجب أن يفعل شيئا بدلا من أن يذكر السبب الرئيسى ببساطة ، وإذا
لم يكن هذا السبب الرئيسى قويا بما فيه الكفاية بحيث يمكن تقديمه
فى مفردات بسيطة ، فقد يجدر بنا أن نغفله •

تدخل الصغيرة ذات السنوات الست الى المطبخ وخلفها اربعة من
رفاق اللعب ، الوقت هو الخامسة الا ربعا بعد الظهر ، والأم تجهز
العشاء (٥) وتتذوقه أيضا • تقول الصغيرة ذات السنوات الست :
« يا أمى •• ألا يوجد شيء نأكله ؟ » وتجيب الأم من خلال فمها الممتلئ :
« لا •• سيكون ذلك وقت العشاء ، أنت تأكلين حلوى كثيرة ، وهذا
يضر أسنانك • ستملئين معدتك (والأم الآن تملأ معدتها) • اذا أكلت
الآن فانك لن تأكلى عشاءك ، (والأم تأكل الآن) • اذهبى خارجا
والعشى • انك توشخين المطبخ دائما • لماذا لا تضعين الأشياء بعيدا ؟ »
ان هذه فرصة عظيمة « لوالد » الأم لكى يمتدب الصغيرة بسلسلة كاملة
من التوبيعات « بالاضافة الى • » يزمجر الصغار ويخرجون ، ويعودون
خلال عشرة دقائق الى المزيد من « التسلية واللعب » •

كان السبب الحقيقى لضيق الأم هو : « لماذا يجب أن تدخل معك

(٥) لى القارى يذكر لهم فى الغرب يتناولون أربع وجبات ، وتطلق كلمة العشاء
dinner على الوجبة الثالثة - للتبريم •

دائما كل أولاد الجيران ؟ اننى متضايقه من اعطاء كل كمية الجيلاتى لاولاد الجيران ، ولا يتبقى لنا شيء . وفى هذه اللحظة الخاصة يمكن السبب الحقيقى ، وهو سبب سارى المفعول ، ولكن نظرا لعدم قدرة الأم على الافصاح عنه بصورة طبيعية ، حملت ابنتها سيلما من المعلومات الثقافه ، وبدا من تطوير هذا النوع من المعاملة ينكمش الصغير ويبدأ فى تعلم الأساليب الثقافه أو (المعوجه) لكسر التقاليد . وإذا كان الأدب قد منع أمها من اظهار السبب الحقيقى ، فانها ستكون أفضل لو قالت ببساطة : « لا . سنتحدث عن ذلك فيما بعد » . ثم تستطيع أن تكشف السبب الحقيقى لابنتها فيما بعد فى غياب الصغار الآخرين . أو تخرع أكلة يمكن أن يتناول منها ، الصغار الآخرون دون أن تضطر الى استنفاد الأكلة « المرتفعة التكلفة » ألا وهى أكلة الجيلاتى .

وكما حدث ، فانها حملت المعاملة تناقضات تؤدي الى اثاره اسئلة فى ذهن الصغيرة : « كيف يتسنى أن تأكل أنت ، ولا نستطيع نحن أن نأكل ؟ وما هو الخطأ فى ملء المدة ؟ انك تملئين معدتك ، وأنت توسخين المطبخ أيضا . انك تأكلين . كم ثمن « الحلوى الكثيرة » ؟ ان فى ذلك قسوة ان لم يكن الموقف مهيجا للصغير بصورة تماثل ما يمكن أن يحدث للشخص البالغ عندما يسأل رئيسه علاوة ، فاذا به يجبره على سماع موعظة مبهلة .

ان الرجل الناجح يعتمد الى اثبات أى نقطة يريد اثباتها بأوضح دليل ، ولا يشوه قضيته بالخروج عن الموضوع . وتنطبق نفس هذه القاعدة على الأبوين . . انهم يتجشون فى النظام اذا التزموا بأحسن الأسباب . وهذا يعطى « راشد » الصغير شيئا صلبا يستطيع أن « يصنقه » ، ولا يصير الكومبيوتر الخاص به مكتظا بالمعلومات غير المنطقية . وتكون لديه الفرصة أيضا للخروج من المعاملة مرفوع الرأس بدلا من الاحساس الطاغى بأنه ليس على ما يرام . وعليك أن تحجم عن وعظ الموظف العامل لديك لأنك تحترم « راشده » وإذا أردت « للراشد » فى صغيرك أن يمدو فعليك أن تحترمه أيضا .

الطفل فى سن المدرسة : -

عندما يبدأ صغير الخامسة فى الخطو لهذا اليوم الذى يحتفل فيه أبواه بدخوله الحضانه ، فانه يأخذ معه حوالى خمسة وعشرين ألف ساعة من تسجيلات الشرائط المزدوجة . يمثل أحد نظاميها « الوالد » بينما يمثل

النظام الآخر « الطفل » ، ولديه أيضا حاسب عظيم يستطيع أن يستبعد الاستجابات ويقدم أفكارا لامعة بالآلاف ، اذا لم ينغمس تماما في حل مشاكل (لست على ما يرام) . ان الولد الصغير المشرق هو ذلك الذي نال قدرا كبيرا من الحنان ، وهو الذي تعلم أن يستخدم ويثق في « راشده » والذي يعرف أن « والده » (على ما يرام) ، وسيظل كذلك حتى عندما يشعر بموقف (ليس على ما يرام) . سيكون قد تعلم فن « الراشد » في الحلول الوسط (بالرغم من توقع حدوث ارتداد) ، ولديه الثقة التي تنمو من السيطرة الناجحة على المشكلات، وسيشعر بالرضا عن نفسه . ومن الناحية الأخرى فهناك الخجل ، والصغير المنسحب الذي تدور تسجيلاته ذات الخمسة وعشرين ألف ساعة في تنافر ناتج عن التوجيهات الحادة والانتقادات اللاذعة والايقاع المنخفض والمنتظم لاحساس المرء بأنه ليس على ما يرام ، ولئن كان لديه حاسب عظيم الا أنه لم يستعمله كثيرا . لقد علق لويجي بونبسيير في كتاب صغير مشهور عن عزف البيانو - علق على كيفية استخدامنا القصيل للجهاز الطبيعي العظيم المتمثل في الجسم الانساني - قائلا : « ان ذلك يشبه اكمل أجهزة القياس التي صممت ونفذت لكي يستخدمها أكفأ الفنيين ، واذا بنا نستخدمها الى أقل المهندسين خبرة . ولذلك فانه سيسلك في النهاية من قصورها » (١) .

واذا لم يستطع الصغير أن يستخدم هذا الحاسب ، فمن المحتمل أن يكون ذلك في الغالب : اما لأنه لم يشاهد واحدا يستخدم من قبل ، أو أنه لم يجد من يساعده في تعلم كيفية استعماله . واذا كان ضعيفا في المدرسة ، فانه سيعبر عن شكواه من قصوره بقوله : « أنا غبي » . وسيكون قول والده : « انه لا يصل بكامل طاقته » . وتتركز المشكلة الأساسية في شدة موقف (أنا لست على ما يرام وأنت على ما يرام) . ان المدرسة لو لم يكن بها مدرسون أكفاء ، فسيزداد الطالب المجد علما ويزداد الطالب المهمل جهلا . اما الصغير الذي يعاني من مشكلة في المدرسة - فاما أن يكون قوضي السلوك ، أو شارد الفكر ، أو قليل الانجاز - وفيه نتوقع أن نجد موقف (أنا لست على ما يرام ، وأنت على ما يرام) يشغل باله باستمرار ، ان المدرسة تمثل موقفا تنافسيا يحفل بالعديد من التهديدات الايجابية للصغير مع القليل من الفرص (عند البداية) التي يتمكن فيها الصغير من تحقيق بعض الانجازات الرمزية التي تخفف من حدة شعوره بأنه ليس على ما يرام . ويمكن لسنوات الدراسة

L. Bonpensiere, "New Pathways to Piano Technique", (New York, Philosophical library, 1953). (١)

الميكورة أن تكون بداية لنوع من معاملات الاختبار المتكررة التي تؤكد موقفه (أنا لست على ما يرام) بما يصاحبه من مشاعر عزم الجنوى واليأس .

ويتمثل المظهر الحقيقي العاجل لهذا الموقف في أن الحياة كلها منافسة ، ابتداء من الحياة في الأسرة ، وامتدادا بفترة الدراسة كلها وعالم الكبار في المجتمع . وخلال الحياة تستطيع المشاعر والأساليب الخاصة بالتكيف مع موقف (لست على ما يرام) التي يؤسسها الولد الصغير في نطاق الأسرة والمدرسة أن تستمر خلال سنوات الرجولة ، وتنكر عليه الانجازات والتعويضات التي نشأت مع الاحساس الحقيقي بالحرية لتقوده الى مصيره الخاص به .

وتتركز نصيحتي لأبوي الصغير الذي يواجه صعوبة بالمدرسة في تعلم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) للتعامل مع الصعوبة الماثلة بجدية ، والبدء في تولي مسئولية التعامل مع صغيرهما بأسلوب معاملة (راشد - راشد) مع طلب مساعدة الطبيب النفسي عند الضرورة . ويجب أن يتذكر دائما التأثير المبدي لحالة (لست على ما يرام) . والقاعدة هي : عندما تكون في شك ، قدم الحنان . وهذا كفيل بتهذئة الصغير الخائف والمنفعل ، بينما يتعامل « الراشد » مع حقائق الموقف . وهذه الحقائق في الغالب غير واضحة بالنسبة للصغير . ويقول الدكتور وارن برنتيث أستاذ التعليم بكلية مدينة ساكرامنتو ، وعضو مجلس معهد تحليل المعاملات ، أن التلميذ الذي يأتي الى المنزل بالشهادة وعليها الملاحظة القائلة « حاول أن تبذل جهدا أكبر » يفسر الملاحظة على أنها صادرة عن موقف (أنت لست على ما يرام) الأبوي غير المميز ، بينما ما يحتاج لمعرفته هو « جرب ما هو أصعب » . أما عبارة « بطيء جدا » فأنها تثير السؤال القائل : « كم هي سرعة الاتجاه نحو الرأي الصائب ؟ » يقول برنتيث أن الطفل يحتاج الى المساعدة لتحديد المناطق التي هو ناجح فيها أو يمكن أن ينجح فيها ، ولا يتم هذا عن طريق اختيار تحريري ، حيث أن هذا الأسلوب يثير الشريط القديم القائل : « أنا لا أستطيع أن أعملها ، فلماذا أحاول ؟ » ويتم انجاز ذلك بالاستماع والحديث مع الصغير . ويقول أنه إذا كانت هناك مشكلة تواجه الصغير في المدرسة فمن غير المجدي القول بأن البقاء أكثر في مدرسة صيفية ، أو في أيام العطلات سيساعده إذا لم تفصل المشكلة المحددة وتتم مواجهتها . يقول « الوالد » : « أعمل أكثر من هذا » ويسأل « الراشد » : « ماذا أعمل أكثر ؟ » (٦) نشرت جريدة

كانساس سيتى ستار خبرا يتعلق بموظف عمومي أعلن عن تردد الكثير من الأحداث على حانات البيرة ، وعقبت الصحيفة قائلة : انه يقول ان الصغار يغشون الحانات ، ولكنه كمادته يغفل الاشارة الى كيفية التزام الطريق القويم .

بعد أن أقيمت كلمة عن تحليل المعاملات على فريق من الدارسين ، قيل لي : « المفروض أن ندرس ذلك في المدارس ؟ » ووافقت بالتأكيد ، كما يوافق كذلك العديد من الآباء . وقد وجهت السؤال القائل : « هل يجب تعليم تحليل المعاملات في المدارس ؟ » الى ستة وستين من الآباء والأمهات الذين أكملوا دراسة سلسلة محاضرات في تحليل المعاملات ، استغرقت ثمانية أسابيع . وردا على السؤال أجاب ٩٤٪ من الآباء بالإيجاب بالنسبة للمدارس العليا ، بينما أجاب ٨٥٪ بالإيجاب بالنسبة للمدارس الاعدادية والابتدائية .

ان التعليم هو اعظم علاج لأمراض البشرية ، تلك الأمراض المتأصلة في السلوك . ولذلك يستطيع « التعليق المتعلق بالسلوك » من خلال نظام سهل الفهم مثل نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) أن يكون الشيء الأعظم أهمية الذي نستطيع أن نعمله لحل المشاكل التي تحاصرنا وتهدد بتدميرنا . ان المهمة المطلوبة تستعصى على الفهم ، لكن علينا بطريقة ما - أن نوقف مسيرة الأجيال الحالية المندفعة نحو الجنون أو غيره من أشكال تدمير الذات التي تعود في أصلها الى الطفولة .

علاج ما قبل المراهقة :

ينظر بعض الآباء الى فترة ما قبل المراهقة على انها فترة الدفاع المستميت التي تسبق ظهور هورمونات المراهقة وتقاليعها ، التي تسبب التعقيد في العلاقة الصعبة بين الصغار وآبائهم . وهذا هو الوقت الذي يتعرض فيه الصغار أقصى التعرض للأفكار الجديدة عن العالم المحيط بهم ، في المدرسة وفي الاتصالات الاجتماعية . انه الوقت الذي ينفذ فيه الصغار غالبيتهم المبكرة بحركات جديدة مبتكرة ، تدفع بعض الآباء الى الارتباك ، والبعض الآخر الى الطبيب . وعلينا أن نتذكر أن الصغير يحتاج الى الأمان الناتج عن الانتماء ، والثبات ، والحنان ، والتقدير ، والتوافق ، والمساندة .

لقد وجد بعض الصغار أن أنجح طريقة لتحقيق هذا الأمان هي الامتنال ، والتعاون والابتكار إذا سمح الأبوان ، وسيستمر الآخرون الذين لم يتعلموا الحصول على الحنان بهذه الطريقة في استخدام أساليب التعامل المبكرة الخاصة بالسنة الثالثة من العمر ، مثل التمثيل ، والاختيار ، والتنافس ، والمراوغة ، والاختلاس ، والاغراء . ويمكن لهذه الأسباب أن تعمل على بث الفوضى في الأسرة خاصة عندما يستخدم صغرى ما قبل المراهقة تفكيره الحاد للوصول الى الكمال .

لقد بدأت في سنة ١٩٦٤ مع مجموعة من هم في سن ما قبل المراهقة ، الصغار الذين تتراوح أعمارهم ما بين تسع سنوات ، الى اثنتي عشرة سنة . وكان أفراد المجموعة يتقابلون كل أسبوع مرة . وكانت مجموعة من آبائهم تتقابل مرة كل أسبوعين مساء . واستمرت هاتان المجموعتان في الحضور على مدى العام الدراسي . وعند نهاية العام دعى كل صغرى مع أبويه للحضور لاستعراض النتائج . وكانت النتائج باهرة ، ذلك أنه حتى الشكل البدني للصغار كان قد تغير .

جسد العديد من الصغار احساسهم بأنهم ليسوا على مايرام في تعبيرات وجوههم واياءاتهم ، وكان هناك تحسن ملحوظ في المجموعتين . وأفاد الجميع بحدوث تحسن في الاتصال . وشعر الصغرى بقدرته على الحديث عن مشاعره ، وتوضيح وجهة نظره بدون إثارة عاصفة من الأب ، أو موقف عابس . واكتشف الآباء قدرتهم على وضع مطالب واقعية ، وفرض الحدود المعقولة ، بدون استثارة أنواع سلبية من السلوك يحاصرهم بها الصغار . وتجاوز صغار سن ما قبل المراهقة مع آبائهم باستخدام مفهوم « العقد » الذي ينص على ما يتوقعه كل طرف من الآخر ، ومناقشة التوقعات واستعادتها من وقت لآخر على مستوى (الراشد - راشد) . وحيث أن العقد كان واضحا فإنه تضمن ما يجوز عمله ومالا يجوز مع نتائج الخروج على العقد . وتحسنت العلاقة بين الأب والأبن بصورة ملحوظة . ويعتبر العقد واحدا من أحسن الأدوات التي أعرفها لتأكيد الثبات في الاتجاه والنظام ، وذلك لأنه عقد بمعرفة « الراشد » ، ويمكن فحصه من وقت لآخر بمعرفة « الراشد » مع الاستفادة القصوى من المحافظة عليه مجددا ومرنا بما فيه الكفاية لمواجهة الحقائق المتغيرة . ويعامل العديد من الآباء الصغار الذين في سن ما قبل المراهقة بنفس الطريقة التي عاملوهم بها عندما كان عمرهم أربع سنوات ، وذلك في الغالب بسبب أنهم لا يقدررون مدى تغير الصغرى من عام لآخر ،

وازدیاد قدرته على استخدام « راشد » . وبعد كل شيء فان تعلم الصغير التحكم الداخلى الحقيقى أمر يعود الى « الراشد » . ان ادراك الصغير أن لديه « راشد » وأنه لم يعد مجرد « ولد صغير أحمق » يستبعد قدرا كبيرا من المتاعب والاحتكاكات من حياة الأسرة .

وتعلم مرضى الذين فى سن ما قبل المراهقة نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) بسهولة ، ووجوه ممتعا ومفيدا . ومما ساعد على ذلك تشجيع آبائهم الذين اهتموا بتلك التجربة . وسرعان ما تطور فهمهم لتحليل المعاملات . وبينما أصبح الحوار الداخلى والخارجى بين (الوالد والطفل) أقل حدة ، تحرر « الراشد » ليتولى مهمته الخاصة باكتشاف شئون الحياة . وهذا هو الوقت الذى يشرده فيه فكر الأولاد والبنات حول ما يريدون أن يكونوا عليه . وعندما يبدأون فى وضع مثل سامية ، ويشعرون بتقارب جديد فى العلاقات مع أصدقائهم يكون هذا هو الوقت الذى يبدأون فيه توجيه الأسئلة الصعبة حول الصواب والخطأ . انه الوقت الذى يعطى فيه توم سويرز وهكليرى فينز « وعدا بالدم » (*) ويريدان من الحياة الأكثر والأكثر . وهذا هو الوقت الذى يصبح فيه الصغير حساسا بالنسبة لتنوع الحياة التى يحياها أبواه . ويظهر خلال سنوات ما قبل المراهقة أنه لا يكفى أن تكون مجرد أب طيب ، كما لو أن تلك كانت هى الوظيفة الوحيدة للوصول الى سن الرجولة ، ولكن المطلوب أن تكون شخصا طيبا له اهتمامات واسعة وخلقة فى كل مناحى الحياة ، وليس مجرد شخص قلق وانطوائى يدور اهتمامه حول « صغيرى ، وأسرتى ، واذا ما كنت أبا طيبا من عمه » .

ويتحدث آلان واطس القس الأنجليكانى المتخصص فى الفلسفة الشرقية عن موقف الانهزامية فى الأب الذى يجلس فى المنزل ويتسائل فى حيرة عما اذا كان يوفر للصغار خير رعاية لأنه يظن أن كل ما عليه تقديمه فى الحياة هو صغير حسن التربية . ويقول القس أيضا : « ان المشكلة هى أننا جعلنا الأب والأم فى عائلات كثيرة جدا يحسبان بالذنب فيما يتعلق بمدى صحة الأسلوب الذى يتبعانه فى تربية صغارهما . انهما يظنان أن السبب الوحيد الذى يدفعهما للاخلاص فى القيام بأعمالهما المحترمة هو الحصول على نتيجة طيبة فى الصغير . ان

(*) إشارة الى بطل رواية « توم سويرز » لمارك توين ، وهما طفلان يعقد ميثاق صداقة بينهما بالدم - للترجم .

ذلك يشبه محاولة أن تكون سعيدا مجرد أن تكون سعيدا . وإن السعادة ناتج ثانوى . وكذلك الطفل الدمت الأخلاق (V) . ولو كان الشيء الوحيد الذى يجب على الصغير أن ينظر اليه عندما يكبر هو أن يكون أباً أو أما عليه أو عليها أن يستنى بصغير غر (مثله) ، فلماذا يهتم بأن يصبح رجلاً أو (امرأة) صالحاً ؟ هنا يجدر بالأبوين أن يتساءلا : « كيف نتصرف كاشخاص أمام صغارنا ؟ » بدلا من : « الى أى نوع من الآباء أنتمى أنا ؟ » أريده أن يكون سعيدا ، فهل هناك بهجة فى بيتنا ؟ وأريده أن يكون مبتكرا ، فهل أنفعل أنا ازاء الأشياء الجديدة ؟ وأريده أن يتعلم شيئا ، فكلم كتاباً قرأت أنا فى الشهر الماضى ؟ أو العام الماضى ؟ أو الأعوام الماضية ؟ وأريد أن يكون له أصدقاء ، فالى أى مدى أنا ودود ؟ وأريد أن يكون لديه مثل عليا ، فهل عندى أنا مثل عليا ؟ وهل هى مهمة بما فيه الكفاية حتى لعبى عنها فيما أفعل ؟ هل حديثه أبدا عن آرائى ومعتقداتى ؟ وأريده أن يكون كريما ، فهل أنا أشفق على أى فرد خارج أسرتى ؟ إن الناس يهتمون ليس بما يريدونه ولكن بما هم عليه . والناس أيضا لا يربون الصغار الذين يريدونهم ، ولكن الصغار هم الذين يكررون ما عليه آباؤهم . ومع « انسحاب » الآباء يستطيع الصغار أن يبدأوا فى رؤية الطريق الذى يبعدهم عن الخضوع لموقف (أنا لست على ما يرام) . إن الصغير يبدأ فى اكتساب التجربة باحتكاكه مع العالم الخارجى والناس حيث يمارس الحياة وحيث يبدأ « الراشد » فى اكتساب المزيد من القوة ، وتولد التجربة مشاعر (أنا على ما يرام) التى تميل على مواجهة الاحساس بأنه ليس على ما يرام ، وتمحو احساسه باليأس .

الطفل المتبنى :

إن فترة ما قبل المراهقة صعبة ، خاصة بالنسبة للصغار الذين يناضلون ضد الاحمال الزائدة . وهذا هو على سبيل المثال - الوقت الذى يبدأ فيه الصغير المتبنى فجأة فى التمرد المؤسف على أبويه ، رغم تأكيد أبويه له مرارا أنهم قد اختاروه ولم يفرض عليهم فرضا ، ولذا فهو يفضل الأبناء الآخرين . ومنذ وقت ليس بالقصير بدأت مؤسسات التبني تدعو الآباء المتبنين الى مصارحة الصغير مبكرا بحقيقة وضعه على قدر الاستطاعة ، قبل أن يصير « راشدا » كقوا للمعاملة . وكل ما يحصل عليه من ذلك

A. Watta, "A Redbook Dialogue", Redbook, Vol. 1, 127, No. 1 (V)
"May 1966".

هو الشعور بأنه مختلف ، اذ أن الصغير فى سن الثالثة أو الرابعة ليس بقادر على فهم معنى التبني ، وكل ما يحتاجه هو احساسه بالانتماء لشخص ما ، لأبويه . ان العناصر الدقيقة للميلاد البيولوجى لا تعنى شيئا بالنسبة له فى هذه السن ، ولكن بعض الآباء البدلاء يحددون صفاتهم فى هذا الموضوع انطلاقا من حقيقة أنهم اختاروه من بين الآخرين مما يفرض على الصغير التزاما لا يستطيع أن يردده ، ونعنى بهذا أنه يتساءل : كيف يمكن أن أكون طيبا بما فيه الكفاية بالنسبة لكما مثلما كنتما بالنسبة لى عندما اخترتاني ؟ « انه احساس بالخجل يرادو الصغير يشبه ذلك الاحساس الذى نراه عندما يشعر انسان بالحاجة لأن يقول : « أشكرك لشخص آخر لمجرد أنه يعامله كبشر ، ومثل أن يتقدم عجوز بالشكر لشاب لأنه يرحب به (*) ويستطيع احساس الطفل المتبنى بالاختلاف ، أن يعلو بموقف « أنا لست على ما يرام » حتى يصبح صرخة مدوية وينقلب الى يأس ملغم بالاضطراب . أما موقفى بهذا الصدد فانه يتلخص فى أن مناقشة التبني يجب تأخيرها حتى اللحظة التى يصبح فيها لدى الصغير « راشد » قوى بما فيه الكفاية ، وربما يحدث ذلك فى سن السادسة أو السابعة .

وهنا قد يشور الأبوان ويؤكد ان الحاجة الى « الأمانة المطلقة مع الصغير » . وربما ينطبق هنا مبدأ مهم أكثر من الأمانة المجردة وهو الاعتماد الحقيقى بالصغير ، الذى من المحتمل ألا يستطيع تصنيف كل المعلومات المعقدة المتعلقة بهذه المعاملة . اننا نتقدم ونحصى الصفات من الأشياء الأخرى التى يكونون غير قادرين على فهمها بسبب صغر السن ، فلماذا لا نتقدم هنا ونحيمهم من « حقيقة » لا يستطيعون فهمها ؟ ولكن قد يعترض الأبوان لأنه سيسمح الحقيقة من صفات الجيران ! حقيقة ، انه سيفعل ، أما كيف تسجل هذه المعلومات عند الشخص الصغير فان ذلك يعتمد الى حد كبير على : كيف يكون رد الفعل لدى أبويه ، اذا دخل صغير فى الرابعة وذكر أن الأولاد الآخرين يقولون أنه متبنى و « ما معنى كلمة : متبنى - هذه ؟ » تستطيع الأم تحويل ذلك لشيء غير مهم نسبيا فتؤكد للصغير مثلا « أنت تنتمى إلينا » وأعتقد بشرف أنه من الأفضل أن يقال للصغير : « نعم أنت جئت من بطن ماما » حتى ولو بشبهة الكذب ، أفضل من

(*) المؤلف يميز هنا من موقف كبار السن فى المجتمعات الأوربية حيث يعاملون فى الغالب من أعمال القصاب واستغفالهم بهم ، وهذا الأمر للأسف بدأ يظهر مؤخرا فى مجتمعاتنا الشرقية وان كانت روح الدين لدى بعض السباب تختلف من وثالة لدى الشيوخ - الترجم .

الدخول في تفاصيل كثيرة عن النمو في بطن أم أخرى . وإذا جعلنا الشخص الصغير يشعر بأنه ينتمي حقيقة لأبويه الجديدين ، فسيكون لديه فيما بعد « راشد » قوى بما فيه الكفاية - ليعرف لماذا كذبا عليه : انهما بصرف النظر عن محبتهم له ، أرادا أن يجنباه عبء الحقيقة المربكة والمثقلة .

علينا أن نفحص الحقائق المجردة لدينا . هل الشرف التام هو الالتزام الأفضل دائما ؟ وعلى أية حال يبدو أنه كما يشير تروبلاد : « نحن دائما مهتمين بالتبسيط المخل عندما نشدد فقط على مبدأ واحد من عدة مبادئ وثيقة الصلة » (A) .

وهو يرى في المثال التالي أن الاهتمام برفاحية شخص أو أشخاص أمر أهم وأثن من التزام الشرف المحض :

إذا تدبرنا عواقب قول الصديق في كل موقف ، فما قولك في هذا الموقف : افترض أنك في بلد شموي ، وضج فيه رجل ذو مبادئ سامية وشجاعة في السجن . وجدت أن رايته يهرب في شوارع معين ، وسرعان ما رأيت بعد ذلك أن حراس السجن يبحثون عنه ، وأنت متأكد منطقيا أنه إذا أعيد إلى السجن بعد القبض عليه ، فسوف يعذب . فإذا سئلت عما إذا كنت قد رأيت يجرى في الشارع فإن إجابتك المحتملة ستكون : نعم أو لا . إذن فما هو واجبك الأخلاقي في هذا الموقف الخاص ؟

إنه موقف يجب أن تتخذ فيه قراراتنا بوضوح - عن طريق موازنة الصعوبات النسبية - وهذا هو ما يجب أن يصمله الأبوان عند مواجهة مشكلة ماذا يجب أن يقال للصغير المتبنى ؟ من الصعب أن تصارحه ، ومن الصعب ألا تقول له وهو سيعرف حتما ، ولكن الأبوان يستطيعان تعديل القول بطريقة تحببه من التورط في الاحساس بأنه ليس على ما يرام عن طريق اختيار الوقت ، والوسيلة ، والتفاصيل ، وقد يكون من السهل بالنسبة للصغير عندما يكون قد طور « راشده » أن يقبل القول : « لقد كذبنا لأننا أحببناك » . أفضل من الاعلان في سن مبكر أنه مختلف عن أي شخص آخر من حيث عمق النظرة والأهمية . ليس في الاستطاعة تحديد ما يقال ، ولكن من المستطاع مساعدة الأبوين في التعرف على احساس الصغير بأنه ليس على ما يرام ، والتأثيرات المختلفة لنموذج (الوالد - الراشد - الطفل) الخاص بهما . وبهذه المعروفة يستطيع

Elton Trueblood, "General Philosophy," (New York : Harper (A) and Row, 1963).

الأبوان الاستمرار في « عزفها سماعيا » في السياق التالي ، مرة أخرى ،
كما جدها تروباد في نفس الكتاب قائلا :

إن الأفضل هو أي موقف واقعي يتمشى مع « الأقل ضررا » . وهنا
ضرر معين في كل الأكاذيب ، لأنها تنحو نحو كسر قاعدة الثقة ، وهناك
ضرر في إعادة مظلوم إلى السجن . وعلى الرجل الصالح أن يزن هذه المعاني
كأفضل ما يستطيع ، وواجبه هو الالتزام بالأقل ضررا ، لأن الاختيار
الوحيد أسوأ . وحتى في مثل هذا الموقف فإننا نرغب في تفادي الاختيار
القاسي ، ولكننا لا نستطيع ، لأننا سنواجه بما أسماه وليم جيمس :
اختيارا إجباريا ، والفشل في اتخاذ قرار هو قرار في حد ذاته . ربما كان
قرارا يتجه نحو أسوأ الاختيارات المتاحة ، ومن الواضح أن الرجل الذي
يرفض اتخاذ القرار لا يتحرر من المسؤولية بل أنه يستعق اللوم . اننا
مسئولون عن الضرر الذي نسمح بحدوثه كمسؤوليتنا عن الشر الذي
نرتكبه .

ولذلك علينا أن نلمس طريقنا على أساس ما نعرفه . إن معرفة
موقف الصغير تمثل بناء من المعرفة يساعد الأبوين في اتخاذ تلك القرارات
التي ستفيض حنانا وتهديء من احساسه بأنه ليس على ما يرام وتؤكد على
حقيقة (أنت تنتمي إلينا) ومثل هذا الفهم سيساعد أيضا الأبوين
القائمين بالتبني على أن يكونا حساسين بالنسبة لصغيرهما الذي يشعر
بأنه ليس على ما يرام . والمديد من الذين لا يستطيعون الانجاب يشعرون
بموقف لست على ما يرام لدرجة أنهم يطلبون في الحاح أن يتبنوا صغيرا
ويؤكدون أن هذا الصغير لن يجلب العار للأسرة ... الخ .

إن عبء الاحساس بأن المرء ليس على ما يرام أشد وطأة بالنسبة
للصغير المتبني . ولكن ، كما هو الحال مع كل صغير ، علينا أن نبدأ
من حيث نقف . اننا لا نستطيع العودة إلى الوراء وإعادة بناء الظروف
لتشكيل حالة لم تكن موجودة . وتكمن فائدة نموذج (الوالد - الراشد -
الطفل) في بث النظام في فوضى المشاعر إذ أنه يفصل ما بين « الوالد » ،
« الراشد » ، « والطفل » ، وبذلك يجعل الاختيار ممكنا . وقد أتاحت
لي الفرصة من خلال عملي لسنوات طويلة كمستشار « لشعبة الطفل » ،
بهيئة ولاية ساكرامنتو للخطمة الاجتماعية للعمل مع عدد كبير من الصغار
المتبنين وآبائهم البدلاء . ووجدت أننا لو استطعنا أن نطور لدى كل من
الأبوين والصغار ، حساسية نحو تأثيرات « الوالد » ، « الطفل » في
كل منهم ، لاستطعنا أن نبدأ في استنباط أفضل الطرق لمساعدة هؤلاء
الصغار للتغلب على تسجيلات الاحساس بأنهم ليسوا على ما يرام ،

القوية والهدامة والتي تكونت خلال شهورهم وسنواتهم المبكرة التي قد تؤدي الى اصابتهم بالصدمات النفسية .

أما صفار المطلقين فهم ضحايا عاصفة أخرى : عاصفة الخوف ، والاحباط ، والانفعال التي فرقت الأسرة . وفي أفضل الحالات نجد ان الطلاق هو موقف (أنا لست على ما يرام) الذي يصيب « الطفل » الذي يشعر بأنه (ليس على ما يرام) الكامن في سائر الأطراف المعنية . وعادة ما يفتقر هؤلاء الأطراف الى « راشد » قوى . وهذه هي المشكلة الأساسية . ان الأم والأب محاصرين كلية بالمؤثرات الضارة في معاملات متقاطعة بحيث يترك الصفار في حيرة خلال معاملاتهم الخاصة . وبالرغم من أن الأبوين قد يكونا مهتمين بمعالجة الأمر ، الا أنهما غالباً لا يستطيعان تقديم المساعدة الكافية لتمكين الصفار من الحياة في خضم الأمر المزقة دون التعرض للمخاوف والإهانات التي تسببها موقف (أنا لست على ما يرام) بشدة . وفي هذه الحالة ، كما يحدث في كل الحالات التي يعيش فيها الصفار خلال فترات الضغط الشديد ، توجد امكانية تخليص أنفسهم من قبضة الماضي اذا ساعدناهم على معرفة أن لديهم « راشد » يستطيع مساعدتهم للعثور على حقيقتهم وطريقهم خارج غابة المشاعر التي يعيشون فيها .

الطفل وسوء المعاملة : -

حينما يتعرض الصغير لمعاملة سيئة فاننا قد نصنع منه عدوا للبشر . وهذا هو الصغير الذي يتكرر ضربه بطريقة وحشية تؤدي الى تمزيق جلده ، وتكسير عظامه . ما الذي سجل في « الطفل » ؟ وما الذي سجل في « الوالد » لدى هذا الصغير وهو يتعرض للضرب ؟

لقد سجلت في « الطفل » مشاعر الغزع والخوف والكرهية المفجعة ، والصغير يناضل ويخبط في هذا الكابوس الذي يثور داخله (ضع نفسك في مكانه) . لو كنت كبيراً مثلك كنت قتلتك ! وهنا يحدث التحول الى الموقف المعقد (أنا على ما يرام ، وأنت لست على ما يرام) أي أن « الوالد » يسجل رخصة تخول له ارتكاب القسوة ، ان لم يكن الاذن بالقتل ، بل وأدق تفاصيل أسلوب ارتكاب الجريمة .

وخلال مسار الحياة فيما بعد ، قد يفسح هذا الشخص الطريق لهذه التسجيلات القديمة تحت الضغط الشديد ، ان عنده الرغبة في القتل « الطفل » ، والاذن بالقتل « الوالد » . وهكذا يقدم على القتل ! .

لقد سنت العديد من الولايات الأمريكية قوانين لحماية الصغار ، تفرض على الأطباء الذين يتشككون في حدوث معاملة وحشية تكون قد أدت الى حدوث الاصابات التي يعالجونها ، أن يبلغوا شكوكهم تلك الى السلطات . والسؤال هو : « ماذا يحدث بعد ذلك ؟ » أقول أن فرصة العلاج ستكون ضئيلة اذا لم يتلق الصغير ، في فترة ما قبل المراهقة ، علاجاً مكثفاً حتى يستطيع أن يفهم مصدر مشاعره . الميلالة للعنف ، ويفهم بعد ذلك أنه بالرغم من ماضيه ، الا أن أمامه أن يختار مستقبله . أما المجتمع الذي يقدم للصغير المحطم أقل من هذا ، فإنه يلعب بالنار .

ويوجد بالطبع درجات من سوء المعاملة ، وأعتقد أن العنف الجسدي واستخدامه مع الصغار ينتج مشاعر تدعوهم لاستخدامه . والأمر المسجل هو : « عندما تفشل كل الوسائل ، اضرب ! ان حكم الاستئناف النهائي هو العنف ، وأنا لا أرى ضرورة لعقاب الأطفال بالضرب الخفيف الا مع استثناء واحد : عندما يكون الطفل أصغر من أن يفهم الخطر ، عندئذ يصبح الضرب هو الأسلوب الوحيد لمنع من النزول الى الشارع . وهو فعال جداً في مثل هذا الموقف اذا لم يستخدم يومياً بالنسبة للانتهاكات غير الخطيرة مثل سكب اللبن ، أو ضرب الأخت . اننا لا نستطيع أن نعلم الصغار نبذ العنف بالعنف . وعلى أية حال فإن الآباء بشر وليسوا ملائكة ولذا فقد يندفع الوالدان في عقاب الصغار ، ولكن مشاعر الأب والصغير يمكن تحليلها من خلال نموذج (الوالد والراشد والطفل) وبذلك يمكن أن يخرج الأبوان بشيء بناء من الواقعة : كيف تمنعها من الحدوث ثانية على سبيل المثال . ومن المهم للأبوين أن ينظروا الى العقوبة البدنية على أنها نابعة من « الطفل » الكامن فيهما ، وليست صفة ايجابية تندرج تحت عنوان : التأديب والتهذيب . ويقول برونو بتلهاييم عن ذلك :

« دعنا نتوقف لحظة ، ونتمعن في كلمة - تأديب - وهي مرادفة لكلمة : نظام discipline . اذا عدت الى قاموس Webster ، ستجد أن هذه الكلمة مشتقة من كلمة : تلميذ disciple ، والتلميذ ليس شخصاً تضربه على رأسه . انه شخص يتلمذ نفسه على أستاذ ويتعلم عنه صنعته ليعمل في نفس المهنة . وهذا هو مفهوم النظام . ولذلك فانك اذا أوضحت لصغارك : عندما تغضب - اضرب ، وهذه طريقة جديدة للحصول على الأشياء - فانهم يسجلون ذلك . ثم تشكو من العنف المنتشر في مدننا » . (٩) .

تدريس نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) للمعوقين :

عندما نعرف أن جميع الصغار يناضلون تحت وطأة الاحساس بأن المرء ليس على ما يرام ، فإننا نبدأ في تقدير قسوة الحمل الذي يحمله الصغير المعوق . انه لا يشعر فقط بأنه ليس على ما يرام ، ولكنه في الحقيقة أقل مواعمة من ناحية الموهبة الذهنية بالنسبة للصغار الآخرين ، ويصحب تخلفه الذهني في الغالب نقائص بدنية أخرى وعاهات ظاهرة ، تستدعي من الآخرين استجابات تكشف عن ضعف تقديره لنفسه . أما بالنسبة للمنافسة مع الصغار الآخرين ، فإن موقفه يتأكد دائما ، ويضاعف من مشاكله تصارع المشاعر الشائرة في داخله . انه في الحقيقة ، يجد صعوبة في استخدام حاسبه لأنه يتأثر الى حد بعيد بالتأثير الهدام المستمر لموقف (أنا لست على ما يرام) .

أما عجزه عن تثبيت نفسه في مجتمع يخضع للمقارنة والمنافسة فإنها تخلق أحيانا متاعب تتطلب رعاية في معهد خاص تخفت فيه حدة هذه المنافسة ، الا أن اضطرابه الانفعالي يظل يعذبه هو والذين حوله . وتعتبر فاعلية العلاج بالتحليل النفسي مع المعوق موضوعا مثيرا للجدل الكثير . ولا يوجد في مادة الطب النفسي الا القليل عن علاج المعوقين . أما أسلوب العلاج الجماعي فلم تجر عليه حتى الآن سوى القليل من التجارب . وتتضمن الأساليب التقليدية المستخدمة في معظم المعاهد التي يقيم فيها المعوقون ، أسلوب الحضانة الأبوي ، وتنظيم الوقت ، وتجنب المنافسة الزائدة عن الحد ، وفرصة للنجاح النسبي في الأعمال التي يقدو المعوق على أدائها . وهذه النوعية من الأساليب أثبتت نجاحا معقولا في تقديم حياة آمنة ، وأحيانا سعيدة بالنسبة للمعوقين . وعلى أية حال فقد جرى تنسيق هذه الأساليب في الغالب انطلاقا من معاملات (الوالد - الطفل) التي لها تأثير في معاونة الصغير على تنمية التحكم الداخلي بتقوية « راشده » رغم أن هذا التأثير محدود . وكانت المشكلة الدائمة بالنسبة للمشرفين على السكن تتمثل في التعامل مع المواقف الانفعالية وهي مهمة تستنفد الكثير من الوقت .

لقد جرى تنفيذ برنامج جديد لتعليم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) للمعوقين في ساكرامنتو وذلك خلال شهر يناير ١٩٦٦ على يد د. ديس ماركس - وهو عضو مجلس ادارة معهد تحليل المعاملات ، كما أنه أخصائي ومدير مستشفى لوريل هيلز ، الذي أقيم فيه مؤخرا مركز يشمل مائة سرير للمعوقين . أحس ماركس بأن نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) كان نظاما من السهل فهمه للدرجة أنه يمكن تدريسه

للمقيمين في المراكز الذي أنشأه . وتتراوح الأعمار ما بين ستة شهور - إلى سبعة وأربعين عاما . وهي تمثل المحور العمري الكامل للاعاقبة .

وتتراوح درجة ذكاء هؤلاء الذين يحضرون مجموعات (الوالد - الراشد - الطفل) ما بين ٣٠ - ٧٠ ، وثلاث هؤلاء من المصابين بمعوقات بدنية جسيمة ، بينما أصيب الكثيرون منهم باضطرابات عصبية . وقد وضع ثلثهم في أماكن منفصلة ، أما الثلثان الآخران فقد كانا تحت إشراف جمعيات عامة مثل : هيئات الرعاية الاجتماعية ، وأحيانا هيئة مراقبة المحكوم عليهم . وهم يحضرون من الدور الخاصة ، والملاجئ ، وأحيانا المستشفيات الحكومية ، أو إصلاحيات الأحداث . أما بخصوص العمر الزمني ، فإن معظمهم من المراهقين ، وصغار البالغين .

إن وجود الصغار المعوقين الذين لا حول لهم ، يجعل من الضروري استبعاد الصغار الذين لا يستطيعون التحكم في سلوكهم العدواني . وكذلك فإن الطبيعة المفتوحة للعلاج (لا أبواب مغلقة) تستدعي استبعاد الصغار ذوي المشاعر المدمرة أو شديدة العداء للمجتمع ، أو هؤلاء الذين يمتزجون الهروب . وعلى أية حال فإن التخطيط يتيح حرية ملحوظة ، ويمكننا من التعامل مع الصغار المفرط النشاط والمشاغبين . ولذلك فإن أكثر المشاكل الحادة تتمثل في مشكلتين هما تهديد الصغير للآخر الميال للقتال ، وكيفية منع الصغير من الهروب . ويقرر ماركس أنه قد حدث نجاح ملحوظ في هذين الموقفين بالذات - من خلال استخدام تحليل المعاملات .

وتقابل مجموعة الصغار الثلاثين (نستخدم هنا اصطلاح الصغار للإشارة إلى مدى العمر الكلي نظرا لعدم وجود اصطلاح أفضل) ، مرة كل أسبوع في حجرة ممشية واسعة في الوسط . ويجلسون في دائرة واسعة بحيث يظهر ماركس والسبورة لكل فرد من المجموعة . مع العلم بأننا (نحن هنا لتعلم نموذج : الوالد - الراشد - الطفل) - الذي سيساعدنا على فهم كيف يعمل الناس لكي نستطيع مقايضة احساسنا بالتصاسة والغضب ، بوقت عامر بالسعادة والنشاط . وتتعرف المجموعة أولا إلى مبادئ نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) : تتميز هذه العناصر الثلاثة للشخصية ، المثلة في الدوائر الثلاثة (الوالد - الراشد - الطفل) . ويساعد ماركس الصغار على تمييز : « أي العناصر هو الذي يتحدث » . عندما يقول أحد الأعضاء عبارة . وعلى سبيل المثال فإنه يسأل المجموعة : « الآن . من الذي يتحدث ؟ » (هل هو « والد » جون أم « راشده » أم « طفله » ؟) وبهذه الطريقة يتعلمون أيضا تحديد الكلمات . « إذا نظرت إلى قطعة من الفاكهة الفاسدة - فتقول : « انها رديئة » والمتحدث .

هنا هو « الراشد » . وإذا نظرت الى صورة يرسمها شخص ولم تعجبك الصورة - فتقول : « انها رديئة » والمتحدث هنا هو « الوالد » . ان الموقف حرج وأنت تطلق حكما . وإذا جئت عدوا الى حجرة اللعب وعينك مغرورقتان بالدموع وأنت تصيح : « اننى أرى كل الناس أشرارا » فالمتحدث هنا هو « الطفل » . وبهذه الطريقة يتعلم الصغار سريعا تحديد الكلمات والأفعال . انهم يجدونها مجزية وتجربة تساعد على معرفة أن لديهم « راشد » أو حاسب .

ان كلمة « حاسب » كلمة أخرى يرتاح اليها الصغار . وعندما يفهمون أن « راشدهم » شئ شبيه بالحاسب الالىكترونى يصبح من اليسر الحديث عن التخلف العقل بصورة قد لا تحتاج لنا فى ظل معظم الثقافات الاجتماعية . وهذه هي الطريقة التى يقدم بها ماركس هذا الموضوع الى المجموعة .

بعض الناس لديه حاسب يساوى مليوناً من الدولارات ، والبعض الآخر يساوى حاسبه عشرة آلاف دولار - ولكننا لن نقلق لهذا الأمر - وكل ما علينا هو أن نكتشف أفضل طريقة لاستخدام الحاسب الذى لدينا . ورغم كل ذلك لن نحتاج الى حاسب يساوى مليون دولار لكى تعامل الناس بلطف ، أو نؤدى عملا طيبا .

ويفسر البرنامج كله العبارة الكثيرة التكرار « أنا على ما يرام وأنت على ما يرام » والصغار يكررونها فى تألف عند بداية ونهاية كل فترة ، وتصيح فى حياتهم اليومية مفتاحا يلقى المشاعر السلبية ويفتح « راشدهم » . انهم يتلقون المساعدة ليفهموا أن المقارنة هى من شأن « الطفل » الكامن فيهم . ويشرح ماركس ذلك قائلا : -

يريد « الطفل » أن يقول : « ما لدى أفضل » و « لدى حاسب أفضل مما لديك » . وهذه هى إحدى الوسائل التى يشعر الصغار بالتحسن من خلالها . ان « الطفل » دائم القلق حول من هو الأكثر وسامة . ولكن « الراشد » يستطيع رؤية أنه : اذا كانت الوسامة هى أهم شئ فى الحياة ، فحينئذ سيكون هناك عدد محدود من الناس السعداء فى العالم ، أى أن أحسن رسل ، أو أحسن عالم فى الرياضيات ، أو أحسن موسيقار . أما الباقون فيسيكونون غير سعداء لانهم ليسوا فى نفس مستوى الوسامة . وتلتقط المجموعة هنا المفهوم وتقدره .

أما بخصوص مشكلة التحكم فى السلوك العدوانى ، فان ماركس يقرر أن الصغير الشديد الازعاج والميال للقتال ، يمكن تهدئته فى خلال

دقيقتين أو ثلاثة . ويوضح أن العمل التحضيري قد أجرى على هذه المجموعة ، وفسرت أساليب التحكم على أنها تنتمي إلى ثلاثة أنواع : « الوالد » - « الراشد » - « الطفل » . ويبدأ بأن يستثير أحد الصغار ويتظاهر بأنه سيضربه ويقول : « ثم أجلب ذراعه وأمسك به » ثم يسأل المجموعة : « كيف أتحكم في جو ؟ » ويوافقون على أن هذا تحكم من « الراشد » لأنه يوقفه عن الضرب . ثم يتظاهر ماركس بأنه يضرب الولد ، وسرعان ما يعرفون ذلك بأنه تحكم من « الطفل » . ثم يتظاهر ماركس بأنه سيحملة على ركبتيه ويضربه على مؤخرته ، وسرعان ما يفسر ذلك بأنه تحكم من « الوالد » . أما طريقة استخدام هذا المفهوم في التحكم في المشاعر فقد سردها ماركس كما يل : -

دخلت في أحد الأيام حجرة كان بها ثلاثة أشخاص يمسون صغيراً كان في حالة هياج شديد ، وينتفضي من الغضب ، ويناضل لكي يضرب كل واحد من حوله . كان ولداً في درجة ذكاء تساوى خمسين . وكان جذاباً ومبهجاً بوجه عام ، فسرت إليه واحطته بذراعي بشدة لوقفه . كان يرتعش ويصرخ : « دعني وحدي ، دعني وحدي » . وبعد حوالي عشرين ثانية قلت : « الآن ياتوم ، كيف أتحكم فيك ؟ هل هذا التحكم من « الوالد » ، أم « الراشد » ، أم « الطفل » ؟ فصاح : « من الوالد » .

قلت : « غير حقيقي ياتوم . اننى لست أعاقبك والعقاب تحكم من « الوالد » - ولست أشاجر معك ، فماذا يكون ذلك ؟ » فاجاب توم : « برأشذك » . قلت : « موافق . هذا صحيح ياتوم . والآن سنوضح لهؤلاء الناس كيف نعمل ذلك . عليك أن تأخذ يدي الآن وسنقول ما نقوله دائماً . فتناول يدي وغمغم قائلاً : « أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام » ودخلنا معاً إلى غرفة التلفزيون حيث اقترحت عليه أن ينضم إلى الصغار الذين كانوا هناك يشاهدون أحد البرامج .

وقد استغرق الموقف كله منذ الالتقاء المرتعش ، المشحون بالأدرايين ، والمغمم بالغضب - حتى الدخول معاً إلى غرفة التلفزيون ، ثلاث دقائق بالتمام . وتمثل المفتاح في الخلق « الطفل » وتشغيل « الراشد » . وتم ذلك باستخدام السؤال البسيط : « كيف أتحكم فيك ؟ » ولم تكن هناك طريقة للتعامل مع هذه الكتلة الغاضبة المتأججة بالانفعالات والتي تسمى « الطفل » . ومن المؤكد أنه لم تكن توجد في هذه اللحظة طريقة للتوصل إلى معرفة ما يضايقه . وكان هدفي في تلك اللحظة هو ببساطة تعديل سلوكه وتجاوز الموقف إذ لم يكن من الممكن قول أو سماع شيء معقول عندما كان هذا الصغير واقفاً تحت سيطرة « طفله » .

وكان من الممكن للأسلوب التقليدي في معالجة هذا الموقف أن يستغرق وقتاً أطول ، فضلاً عن شعوره بأنه « ولد سيء » نظراً لاحتساس « الطفل » بأنه ليس على ما يرام فضلاً عن شعوره في تلك اللحظة بأنه أسوأ من المعتاد ، وكما رأينا فقد يث المعالج شيئاً من الاحتساس بالمشاعر الإيجابية والثقة في شكل « الراشد » ، والقدرة على التحكم في الذات والعودة إلى ممارسة النشاط الجماعي .

ويستجيب الصغار بسهولة لأسلوب تشجيع « الراشد » وإغلاق مفتاح « الطفل » الخائف أو « الوالد » المدعي (كما يحدث لجهاز التلفزيون) .

ويقدم ماركس مثالا آخر يتعلق بمعالجة موقف الهروب . انها فتاة خجولة في سن الثامنة عشرة ، درجة ذكائها ثمانية وستون . تحدث بصوت رقيق ، وهي في العادة لا تقول الكثير . وفي أحد الأيام تمشي ماركس بجوار حجرتها ووجد أنها قد حزمت كل متاعها استعداداً للرحيل . ولما رآته ، قالت من خلال الدموع التي انسابت على وجهها : « لا أحتاج إلى هذا المكان أكثر من ذلك . انني راحلة ! » .

إن التدخل العادي قد ينكر عليها مشاعرها بعبارة مثل : « بالطبع أنت لست راحلة . اذهبي الآن إلى الغداء مع الصغار الآخرين ، لن نذهب إلى أي مكان . وبالإضافة إلى ذلك ، أين وسيلة المواصلات التي ستنقلين بها ؟ » .

ومثل هذا القول قد يجعل « طفلها » أكثر تصميمًا ، وأكثر عنادًا ، وأكثر غضبًا . انه لا توجد وسيلة « للمجادلة العقلية مع « الطفل » المنفعل عندما يكون هو المتحكم . وبدلاً من ذلك جلس ماركس على سرير البنت ، وقال :

« هل أنت متأكدة ، ياكارولين أنك لا تشعرين بالرضا اليوم ؟ لابد أن شخصاً ما قد أوقع « طفلك » في الفخ » .

فاجابت بسرعة : « نعم » .

فقال ماركس : « حسناً ، ماذا حدث ؟ »

فقالت كارولين : « لن يسمحوا لي بشراء أحد كتب الجيب » .

فقال ماركس : « أنت تعلمين أنني أحب « طفلك » (الشقي) ، ولكنني الآن أريد أن أتحدث إلى « راشدك » . ولذلك سأقول لك ماذا . . . اقبضي على يدي ، وسنقول : « أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام » ومهما كان ما عمله ، فإنه كان هو المفتاح الذي تشكل خلال أسابيع الدراسات

منذ بداية العام . ثم أصبح ماركس قادرا على الحديث الى « راشدا » . واستطاع « راشدا » معرفة أنه لا يوجد أحد هناك يستطيع أن يخرج في ذلك اليوم ليشتري لها كتاب الجيب الذي أرادته ، وربما أمكن غدا أو بعد غد . وكان ذلك الأمر بسيطا حيث عاد « راشدا » للسيطرة ، التي كانت مستحيلة عندما كان « طفلا » هو المسيطر . ووضعت حقائبها وذهبت للغداء . واستغرقت العملية كلها أربع دقائق . وعلق ماركس قائلا : -

« لقد حققنا ما أردناه في هاتين الحالتين كليهما » . لقد أخضعنا الموقف الانفعالي ، وأثرينا علاقتنا ، وأخاطرنا بالقول بأنه لو توفر لهؤلاء الصغار قدر كاف من الملاحظات ، فإنهم في خلال بضعة شهور ، وربما عام يستطيعون أن يتعلموا بقدر كاف - التحكم في الذات ، وتصنيف المعلومات ، ليتمكنوا من الاحساس والتصرف الحسن .

وقد نقول في اختصار أن حل مشاكل جميع الصغار ، بصرف النظر عن موقفهم ، هو نفس الحل الذي يطبق على مشاكل الكبار . علينا أن نبدأ انطلاقا من حقيقة أننا لا نستطيع تغيير الماضي . علينا أن نبدأ من حيث نقف . اننا نستطيع فقط أن نفصل الماضي عن الحاضر ، باستخدام « الراشد » الذي يستطيع أن يتعلم تحديد تسجيلات « الطفل » مع محاولته القديمة ، وتسجيلات « الوالد » مع الاعادة المقلقة لحقيقة الماضي . وسيجد الابوان اللذان تعلمنا أن يفصلا ذلك من خلال فهمهما وتطبيقهما لنموذج (الوالد - الراشد - الطفل) أنهما قادران على مساعدة صغارهما على التفرقة ما بين الحياة كما رأوها أو تعلموها (والد) ، وبين الحياة كما أحسوا بها (الطفل) ، والحياة كما هي في الحقيقة ، والحياة كما يمكن أن تكون (راشد) . وسيكتشفون أن نفس هذا الاجراء سيكون له أعظم أهمية خلال فترة التنوير القادمة وهي سنوات المراهقة ، التي سنخصصها في الفصل القادم .

الفصل العاشر

نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) والمراهقون

(اذا أردت أن تتحدث معي فعليك أن تحدد معاني مصطلحاتك -

فولتير)

في أحد الأيام ذكر أحد أفراد مجموعاتي من المراهقين وكان عمره ستة عشر عاماً - الواقعة التالية : « كنت أقف في ركن من الطريق ، وكانت الإشارة حمراء • فقال « والدي » : لا تعبر • بينما قال « طفل » : امض في أي اتجاه ، وبينما كنت أناقش ما يجب أن أفعله ، تغيرت الإشارة الى اللون الأخضر » •

إن سنوات المراهقة تضي على هذا السؤال • ويواجه المراهقون لقرارات ضخمة وصغيرة في آن واحد ، ولكنهم في الغالب ، ينتظرون الظروف التي تتيح لهم اتخاذ القرارات ، لأنهم في الحقيقة ليسوا أحراراً في اتخاذ قراراتهم بأنفسهم • إن عقولهم تقرب من التضج ، وأجسادهم ناضجة ، بينما هم غير مستقلين قانونياً واقتصادياً • وغالباً ما تنقطع محاولاتهم للتحرد في العمل لدى معرفة أنهم لا يستطيعون بأية حال اتخاذ قراراتهم بأنفسهم • إذن فما فائدة اتخاذ قرارات صائبة ؟ أنهم يشعرون كما لو كان تيار الحياة يجرفهم خلال سنوات المراهقة ، و ينتظرون أن تتحول الإشارة الى الضوء الأخضر • بالطبع فإن « الراشد » لا ينمو تحت هذه

الظروف • وتأتي الصدمة عندما يتحررون قانونيا فيجدون أنهم لا يعرفون
ماذا يفعلون • ويقضى العديد منهم الوقت على أمل حدوث شيء ، أو حضور
شخص ، أو يتغيرم شخص ما بطريقة ما •

وعندما هذا الحد يكون قد انقضى ربع عمرهم • وتراجع معاملات
المراهقين في الغالب الى الأنماط القديمة التي تمثل (طفل - والد) بسبب
الضغوط الخارجية والداخلية • وخلال فترة المراهقة يمد تشييل الشريط
الخاص بمشاعر (الطفل) وبينما يزداد افراز الهرمونات ، وينفصل
المراهق عن أبويه بصفتها المصدر الرئيس للحنان ، وينضم الى أقرانه
التياسا لحنان من نوع آخر ، تدور شرائط (أنا لست على مايرام) بايقاع
متزايد ، ولكن أساليب الموازنة التي تعلمها في الطفولة للتقليل من سيطرة
موقف (أنا لست على مايرام) يمكن الآن أن تكون خطيرة • فأسلوب التدلل
الذي تصطنعه الفتاة الصغيرة يجب أن يوضع تحت السيطرة لحراستها
من التطورات الجديدة الخارجية والداخلية ، أما العناد المائل في لعبة
« ما لدى أفضل » عند الولد الصغير ، فيجب أن يتطور الى قواعد السلوك
والأدب وهو يخوض التجربة المؤلة التي يتعلم فيها كيف يضبط نفسه
ويكبح جماح ذاته • كذلك يجب إعادة تعليم وتعديل مفهوم الاتصال •
ان المراهق يندفع الى المسرح وفي يده نص جديد ، لم يرق بقراءته ، ولذلك
فان السطور غير واضسحة في البداية ، مما يجعله مثل طائرة تنطلق
بأقصى سرعتها بين طبقات السحاب المتراكمة ، وتحت الطائرة توجد سحب
الرغبات الجنسية الفوارة ، والنضال النائر من أجل الاستقلال الذاتي ،
وهي سحب أخلة في الارتفاع ، بينما تحوم وتهبط فوق الطائرة سحب
القلق والرفض الصادرة عن « الوالد » • انه يشعر بالأشياء تطبق عليه
ويبحث عن مخرج •

وتبدو الصعوبة الرئيسية في أنه هو وأبواه في الغالب ، يظنون
يعملون حسب شروط عقد معاملة (والد - طفل) ، وبينما يرى نفسه
ناضجا ، فانه لا يزال يشعر شعور الطفل • وربما يقترح الأبوان ما يعتقدان
أنه مسسار منطقي تمساما للعمل ، ولكن رفضه لوصايتها قد يثيرها
ويشعرها بالاضطراب والاحباط مما يثير « طفلها » • وتنبج المشكلة
في كثير من الأحيان من أن المراهق يخلط بين أبويه الخارجيين و « الوالد »
الكامن فيه • انه لايقدر أن يسمح الأب والأم أثناء سنوات المراهقة لأن
الشرائط القديمة تعيد رواية الأب والأم المسجلة في سن الثالثة ،
بما تتضمنه من الصفعات ، والنظرات المريبة ، وكلمات « لا » التي ترتفع
كالرعد خلال تلك السنوات المبكرة • ويصدم الحافز الخارجي « الوالد »

و « الراشد » و « الطفل » في المراهق في آن واحد . والسؤال هو : أي من هذه العناصر الثلاثة سيقوم بالعاملة ؟ كان « الطفل » هو الذي يستثار دائما خلال الطفولة ، رغم أن « الراشد » كان يتولى العديد من المعاملات ، ويختلف كم هذه المعاملات باختلاف الشخصية . ان من السهل استشارة « الطفل » الكامن في المراهق خلال هذه الفترة من الحياة المشحونة بالمشاعر . وبينما كان من الممكن سرعة تبرير تصرفات الصغير باعتبارها حماقات طفولية ، الا أن نفس هذه التصرفات تأخذ مظهرا مروعاً في عيون الأبرين ، فإغلاق الباب بشدة من قبل صغير في الخامسة ، يتحول الى وقاحة مفزعة في عيون أبويه حينما يصدر منه وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وطوله يناهز طول أبيه ، أما مع الإصبع الذي قد يتجاوزان عنه مع ابنتهما الصغيرة ، يصبح عادة قبيحة بشعة حينما يصدر من ابنتهما المراهقة ، أما الخيال الخصب والبراعة في نسج القصص فيتحول في سن المراهقة الى وصية « الكذب » . ولا تغفّر التسجيلات القديمة ، فالكثير من الأساليب التي كان « الطفل » يلجأ إليها للتعامل مع المواقف أثناء الطفولة ، تستمر في سنوات المراهقة ، ويروى برتراند راسل :

لقد حرمت على ممارسة الكثير من الأشياء ، الا أنني اكتسبت عادة الغشاع ، تلك التي حاولت عليها حتى سن العاشرة والعشرين . وبت اعتقد أنه من الأفضل الا أفضي لأحد بما أقوم به من أعمال مهما كانت ، حتى بات هذا الاعتقاد عادة لصيقة . ولم أتغلب مطلقاً على طابع إخفاء ما أقوم بفراذه عند دخول أحد الى الغرفة . ولم أستطع التغلب على هذا الطابع الا بقوة الإرادة (١) .

وقوة الإرادة هنا هي « الراشد » . ان « الراشد » يستطيع تحديد التسجيلات القديمة ، كما يستطيع أيضاً معرفة أخطاء ونقائص إعادة الاستماع إليها في فترة المراهقة . إذن فالحاجة الرئيسية هي ضرورة أن يكون « الراشد » مسيطراً على هذا الجسم الذي يخصه لكي يستطيع حقائق الوقت الحاضر أن تكتسب الأسبقية بالنسبة لحقائق الماضي . ان الشيء الذي يشكل المحور الأساسي في العلاج هو تحرير « الراشد » في كل من المراهق وأبويه لكي يمكن عمل عقد (راشد - راشد) ، وبدون الراشد المتحرر تصبح الحياة عقلة مزدوجة غير محتملة

B. Russell ; "The Autobiography of Bertrand Russell", (Boston : (١) Little Brown, 1967).

للطرفين كنيهما . ان مشكلة المراهق تنحصر في وجود « والد » مشاغب في داخله ، بينما هو مجبر على الحياة في داخل البيئة التي يتطور فيها هذا « الوالد » حيث أن هذا « الوالد » الذي في الداخل ، يلقي التنعيم من الأبوين . وبينما يصبح الأبوان مهتدين وخائفين ، فانهما يجدان نفسيهما يدوران أكثر وأكثر حول « والدهما » طلبا للحلول عن طريق الأجداد ، تلك التي يمكن أن تكون غير كافية مثل محاولة تشغيل الطائفة النفاثة بالتبني بدلا من البنزين . ويصل التهديد في كل من الأبوين الى درجة عزل « الراشد » في كليهما . ويتصرف المراهق حسب مشاعر « الطفل » . أما الأبوان المتخوفان من ترك مشاعرهما للعمل ، فانهما يحولان المعاملة الى « الوالد » (الجدة والجد) . ولا يستطيع الابن مشاركة أبويه في الواقع دون عقد (راشد - راشد) ، ومن ثم يتوقف الاتصال بدونه . لقد أعجبت كثيرا بالاحتفال اليهودي المسمى بارميتسفا Barmitzva ، وهو طقس رمزي وعمومي لعقد جديد ، أو إعلان عن توقعات الأبوين من ابنتهما ، وأنه عند نهاية العام الثالث عشر من عمر الصغير اليهودي يصبح رجلا يتحمل المسؤولية والواجبات الدينية وهو لايقوم بذلك دون استعداد . ويعتبر هذا الاحتفال تحقيقا لهدف تم اعداده منذ فترة طويلة ، وهو اعداد الصغير لقبول تحمل المسؤولية بالتدريب والنظام الصارم حسب القانون اليهودي . واعتقد أن مثل هذا الاحتفال يؤثر تأثيرا ايجابيا على شخصية المراهق . انني أعرف أسرة غير يهودية عقدت احتفالا مشابها ، بمنزلها - في عيد الميلاد الرابع عشر لابنتها ، حيث قيل له انه صار الآن مسئولا عن كافة قراراته الأخلاقية . وقد تقبل هذه المسؤولية بجدية : وبالرغم من أنه أبدى بعض الاهتمام حول النتائج ، الا أن هذا يعتبر في صالحه لأن هذا الشاب تم اعداده لتحمل هذه المسؤولية ، ولقي المساعدة في اتخاذ القرارات الأخلاقية منذ طفولته المبكرة ، ولاحظ أبويه وهما يتخذان قرارات صعبة حول القيم الأخلاقية لديهما .

وغالبا ما نسال المراهقين : « ماذا ستصبح ؟ » ومن الصعب أن نخرج باجابة تنطوي على فكر خلاق ، اذا انشغل وقت الحاسب دائما بالتفكير في الماضي ، مثلما تقول ميراكوماروفسكي :

من الناس من يسير في حياته كما لو كان يركب حافلة وجهت مقاعدها الى الخلف بما في ذلك مقعد السائق ، ويشبه ذلك موقف الطالب

الذى يحشو رأسه بالمعلومات الأكاديمية ، وعليه بالرغم من تطوره العاطفى
أن ينظر الى الخلف وليس الى الامام (٢) .

وإذا كان ذلك الماضى مفهوما ، وتم تصنيفه ، فإن الحاسب لن يكون
مشغولا دائما بالتفكير فى الأحداث السابقة ، بل سيكون حرا فى الانتظار
والتمشى مع مواجهة الواقع . وحينئذ يستطيع المراهق أن يركب حافلة
تتجه مقاعدها الى الامام ، وبهذه الطريقة يستطيع الحصول على اختيار
سارى المفعول ، وحر . ويستطيع أن يرى الى أين يمضى ، ويتخذ قرارات
صعبة حول المكان الذى يريد الذهاب اليه ، بدلا من قبول طريق حتى
لم يخرجه بنفسه .

وقد تعاملت أثناء عملى مع مراهقين عديدين ، كانوا يتقابلون
أسبوعيا . وكانت هناك أيضا فرصة الالتقاء بالآباء فى المساء . لقد كانت
المشكلة الرئيسية هى الاتصال ، إذ أدت المعاملات المتقاطعة المتكررة الى
اقتصار الحديث على عبارات نمطية مثل « هات الزبدة » ، و « اننى أحتاج
عشرة دولارات لنهاية الأسبوع » . والخطوة الأولى فى العلاج هى تعليم
كل من المراهقين وأبويهم لغة ومفاهيم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل)
وهذه أداة تصنيف كافية تستخرج الموضوع من بين كتلة المشاعر المضطربة
والأوامر المانعة التى تنتمى الى « الوالد » ، والتى توجد فى كل من المراهق
وأبويه . أن الأبوين خليط من الخوف ، والاثام ، وعدم اليقين ، والتفكير
الذى يعتقد فى صحة الأمر لمجرد رغبة للراء فى أن يكون ذلك صحيحا .
وكذلك يتكون المراهقون من نفس هذا الخليط . وهكذا نجد أن هناك قدرا
كبيرا من الجوانب المشتركة بين الأطراف ، خاصة فيما يتعلق بنموذج
(الوالد - الراشد - الطفل) . أما أكثر اكتشافات المراهق حيادية فهو
اكتشاف أن أبويه لدهما « طفل » مشحون بالتسجيلات المؤلمة مثل
« طفله » هو . وبهذه اللغة الجديدة يبدأ بحر الاضطرابات فى السكون .
وقد قال أحد مرضاى من المراهقين : « انه لعظيم حقا أن تكون قادرا على
الحديث عن الأفكار فى البيت ، وليس مجرد الناس والأشياء » . وقال
آخر : « ان أعظم شيء حقيقى متعلق بنموذج : « الوالد » - « الراشد » -
« الطفل » ، هو أنه يخرج علاقتنا من نطاق (أنا - أنت) ويقسمها الى

M. komarovsky, "Social Role and the Search for Identity". (٢)

محاضرة أقيمت فى ندوة عن : السيل البيولوجى يتحدى النساء
The Challenge to women-Biological Avalanche
عقدت بكلية طب جامعة كاليفورنيا -

سان فرانسيسكو ، يناير ١٩٦٥ .

سنة أشخاص . ويتراءى لبعض الأفراد في معظم العائلات أنهم سجناء وأن الآخرين هم السجانون ، يقول الصغير : « أنت لا تستطيع أن تهجر أبويك لأنك لن تجد مكانا آخر تذهب إليه . » وتقول الأم : « كنت سأحب ابنتي لو كانت جارتى ، ولكننى لا أستطيع أن أعيش معها فى نفس المنزل . » ويمكن الحديث حول هذا الأمر من خلال نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) بوصفه مشكلة مشتركة ، ويمكن أن تنتج الجهود المشتركة ليس فقط لتحويل الأسرة الى جماعة يستطيع كل فرد فيها أن ينعم بالحياة بين بقية أفرادها ، بل أيضا تحويلها الى أسرة مبهجة ومثيرة .

وعلى أى حال ، فانه ليس من السهل ، تغيير أسرة من أرض المعركة الى الهدوء العائلى .

وبعض المراقبين لا يتخلون بسهولة عن لعبتهم المفضلة : « انها غلظتهم » حتى اذا عرفوا انها مجرد لعبة يلعبونها وليست حقيقة . ويميل الأبناء أيضا الى لعبة : « انظر كم حاولت بشدة » ، عندما يصير الموقف فى البيت صاخبا وعدوانيا الى حد بعيد ، تصبح الطريقة الفعالة لفض الاشتباك هى إدخال المراهق مستشفى للعلاج لفترة قصيرة ، كاسبوع مثلا . وهذا لن يؤكد حقيقة أن بعض الأشياء فى البيت خطأ ، بل يخرج المراهق أيضا من المنزل الذى يسيطر عليه « الطفل » ، ويضعه فى بيئة مساعدة حيث يستطيع تشغيل « راشده » ثم يبدأ فى التعلم . وفى نفس الوقت يتعلم أبواه نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ويطلب اليهم حضور مجموعات الآباء والأمهات . وعندما يخرج المراهق من المستشفى يلتحق بمجموعات المرضى الخارجيين الذين يترددون على المستشفى للاستشارة والكشف والمعالجة ، وذلك بغرض استكمال العلاج .

ومن سوء الحظ أن العلاج أحيانا يبدأ بداية سيئة ، عندما يجبر المراهق على الحضور للعلاج . قال أحد الأولاد : « لقد دفعت بين هذه المجموعة ما استشار « الطفل » الكامن فى ، فلم يخبرنى أحد أننى سأحضر هنا حتى صباح أول يوم حضرت فيه . لقد أدخلنا هنا لأننا سيئون ، ولكن منذ بدأ تعلمنا نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ونحن نشعر بالتحسن ، ولكننا عندما نعود الى المنزل نتعرض للسخرية أو للزعاج . » وعندما أحاول تفسير الأشياء يقاطعنى أبى قائلا :

« دعك من هذا الكلام الفارغ عن (الوالد والراشد والطفل) وافعل ما أقوله لك . والحقيقة أننى قد أشعر بالتحسن لو استطعت أن

أرى أبوى مهتمين مثل يتعلم ما نتعلمه حتى يقلعا عن أسلوبهما العتيق .
لم يلتحق الأبناء بمجموعة الآباء في البداية ، ولكنهما أقتنا بذلك مؤخرًا
وتعجبا لكيفية سرعة تحسن العلاقات في البيت .

إننا قد نستمد بعض الأفكار الرائعة من مجموعات المراهقين ، التي
تتراى لى أحيانا فى شكل ثمانية أو عشرة حاسيات منحصصة لتصنيف
المعلومات فى المجموعة بهدف انتزاع المعانى الجديدة . وعلى سبيل المثال
قال أحد المراهقين فى إحدى الدورات : « أظن أن (الوالد) أكثر اهتماما
بمؤسسته منه بالشخصية ككل و « الراشد » فقط هو الذى يستطيع
أن يفهم أن « طفل » لديه أيضا مشاعر مهمة . « وفى موقف آخر قال أحد
المراهقين : « أظن أن الجزء المفكر فىنا هو الذى يأتى متأخرا ، وأن الجزء
الذى يشعر منا كان موجودا أولا . إن القول « أشعر » أكثر إحاطة من
القول « أفكر » وكلمة « أفكر » تستطيع أن تتخلل عنها ، ولكن كلمة
« أشعر » تحتوى وجودى . « وقال مراهق آخر :

« يستطيع (راشدى) فقط أن يحترم أبى وأمى . أما « طفل »
فهو نكد مشاكس . « إن الكثيرين من الآباء يخشون أن يثقوا فى « الراشد »
فى أبنائهم عند اتخاذ القرارات الصعبة . وقد قال أبو إحدى المراهقات ما يلى :
« عندما كانت طفلة فى الخامسة ، وكانت تلعب بالموسى ، كنت أخذه
منها . والآن ها أنت تراها تلعب بنوع آخر من الأمواس ، وكل ما أقوله
هو : استمرى فى اللعب بها . وجوهر الاختلاف هنا هو أنها وهى فى
سن الخامسة لم يكن لديها معلومات كافية لكى تفهم تماما النتيجة المميتة
المحتملة لجرح نفسها بالموسى ، أما فى سن الرابعة عشرة ، فإن المراهقة
لديها ، أو تستطيع أن يكون لديها المعلومات الكافية لفهم كافة أنواع
العواقب - وهذا هو ما يحدث لو كان الأبناء قد عكفا على مدى الأعوام ،
على تلقينها القيم والحقائق وإقدار الناس وقدرها هى .

إن الثقة فى « الراشد » هى الطريقة الوحيدة البناة لمواجهة الأقوال
التي يفاجئ بها المراهق أسرته عند عودته الى المنزل ، فإذا عادت الفتاة
المراهقة الى البيت وقالت فى اكتئاب : « أنا حامل » فمن المحتمل أن تفجر
براكين اللهب فى البيت ، سينور « الوالد » فى الأبوين ويبدى سخطه ،
وسيبكى ويحزن « طفلها » (فشل آخر) ويفضض (كيف تفعلين هذا ؟)
ويشعر بالذنب (حيث أن « الوالد » الداخلى يعذب « الطفل » بإحساس
أنه ليس على مايرام) . ما الذى سيقابل اعتراف الفتاة داخل الأبوين ؟
إذا اكتفى « الوالد » و « الطفل » بالحزن والأسى ، فيمكننا القول بأن

« الراشد » يفل المآء اى يفكر فيما ينبغى عليه أن يعمل . ان « الراشد » يستطيع تحديد أن أجزاء « الوالد » و « الطفل » يمكن اظهارهما كمعلومات بناءة ، وفى ذات الوقت يساعدان الفتاة على معالجة هذا الموقف الصعب . ومن أشد الأمور فاعلية فى تسليم القوة الداخلية للفتاة أن ترى أبويها وهما يدخلان المعركة ضد مشاعرهما اليائسة ، ويصلان على استمرار سيطرة « الراشد » على تفكيرهما ، بحيث يوجههما الى النهج السليم القائم على أساس الواقع وما يكتناه لابنتهما من حب واعزاز . انها ستكون فى حاجة لقدر كبير من هذا النوع من ضبط النفس خلال الشهور القادمة . و « الراشد » يستطيع أن يتعامل مع كافة الحقائق : مشاعر الأبوين والفتاة ، والألم الناتج عن الحوار الداخلى فى كليهما ، وطغيان موقف « لست على مايرام » الذى يتردد فى كليهما . والعار الذى لحق الأسرة والذى لابد أن يعاني منه كلاهما ، وصعوبة عمل ما يجب عمله ، والقرار مع أو ضد الزواج ، والقرار مع أو ضد التبني - وباختصار ، مواجهة النتائج .

وقد تكون الصدمة النفسية أشد عند الكثير من العائلات عندما تعلن الابنة : « سأخرج الليلة مع جون . انه زنجى . » ان المجتمع لايرحب بالحمل قبل الزواج ، ولكنه ينظر شلدا الى الزواج بين الأجناس المختلفة . وقده يزيد بعض الآباء من حدة هذه المشكلة بأسلوبهم : « أمضى الى الجحيم ! اننى اذا سمعت أنك حتى تتحدثين مع هذا الولد فسأكسر رأسك الأحمر » ، بالطبع ، فان هذا الرأس يشتمل على معرفة أن جون رئيس الفصل وأنه ينحدر من أسرة طيبة وسيدخل الكلية ، وهو فى الحقيقة شخص مثالى بالرغم من أنه أسود . ويضاف الى المشكلة حقيقة أنهما قد درست عن المساواة فى المدرسة العليا ، كما أن المدرسة تعمل على اثناء التمييز العنصرى وادانة التطرف الفكرى . ان استخدام « الوالد » الكامن فى « الأبوين » للتعامل مع هذه المشكلة قد فاقم من اتساع الهوة الفاصلة بين الفكر والواقع . وهناك طريقة أخرى للتعامل ونعنى بها « الراشد » الذى يرى الحقيقة ليس باعتبارها شيئا ضارا بصالحه ، بل كجزء ضرورى لتقييم ما يجب عمله . ان العلاقة بين جنسين على مستوى « الراشد » ، بالراشد » ، تتطلب شخصا يتمتع بدرجة فائقة من الادراك والأمانة . والحقيقة هى أن المجتمع لم يقرأ بعد ، وكذلك الأقارب أيضا . ولا يعترف بذلك أيضا معظم رجال الكهنوت الكنسى بالرغم من تعارض ذلك مع تصريحاتهم الرسمية . ولكن هذا قد يتغير فى المستقبل . والسؤال هنا هو : « هل لدى هذين الاثنين (راشد) قوى بما فيه الكفاية لبناء علاقة

كريمة في ظل هذه الأحوال ؟ ، ان البعض لديه ، فهل لهذين الانين
« راشد » بهذه القوة ؟ ان الرؤية الواقعية للعواقب هي الوسيطة الوحيدة
للتعامل مع هذا الموقف . وهناك مخاطرة ، ولكن هناك أيضا احتمال وجود
« راشد » قوى يجهز نفسه للاستقلال الكامل .

ويعتبر موضوع ممارسة الجنس قبل الزواج منالا على ضعف بعض
القرارات الابوية وعدم موابتها للظروف ففي الماضي كان يكفي رفع الاعلام
الحمراء التي تحذر من العمل قبل الزواج وتخويف الأبناء من الأمراض
التناسلية لكبح جماحهم ، ولكن هذين التهديدين قد انهارا نتيجة لاكتشافات
العلم ، ولكن لاتزال الأسر تغطي أن يلحقها العار من جراء ذلك رغم أن
هذا الخوف لم يعد بنفس القوة التي كان عليها في الماضي ، لان ممارسة
الجنس بلا زواج نراها منتشرة هذه الأيام ، بل وتلقى موقفا ايجابيا بين
العديد من مجموعات الآباء والأمهات المتناظرة . وكذلك فانها تلقي التشجيع
من مجلة بلای بوى Play boy ، ومن الاعلانات ، والافلام . والحقيقة
أن ذلك التشجيع موجود في عالم الكبار (٣) . ويمكن أن تكون وجهة نظر
المراهق مختلفة ، لانه يسأل السؤال : « ما اثر ذلك على الأشخاص ؟ »
ويعبر نيافة الأب الورد فورست ا . الدرس عن هذه الورطة في المحاضرة
التي القاها في مؤتمر الأسرة للكنيسة المشيخية الذي عقد في زفيروينت
Zephyr Point بولاية نيفادا يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٦ فيقول :

يرى العديد من الشباب انه : اذا اتفق الثنان على ممارسة الجنس
مع اتفاقهما على أن هذه الممارسة ليس لها صفة الدوام ، مع عدم الاساءة
الى أحد ، فليس إذن من ضرر في ممارسته !! ان الضرر يتمثل في أن
شيئا له قيمة وهو الجنس قد انضوت قيمته ، فاصبح شيئا عرضيا
ولا يستحق كل ما يترتب عليه . وصار الهدف هو الدخول في التجربة
بسلام . ان خطيئة ممارسة الجنس قبل الزواج لا تعني منح شيء ، بل
تعني أن ما تم منحه لم يكن كافيا .

وليسيت هناك أفكار مطلقة عدا الشر الناجم عن استئخدام
الأشخاص كما لو كانوا أشياء ، حتى لو كان أحد هؤلاء الأشخاص هو
الفاعل ذاته . واذا حدث على المدى الطويل أن أنتجت العلاقة المابرة فقدان

(٣) الأوضاع الخاصة بالممارسة الجنسية قبل الزواج وما يرتبط بها من نتائج مؤسفة -
في الغرب بوجه عام والحمد لله أن بلادنا الحرة والعريضة على الالتزام بالبطة وتطبيق
تعاليم الأديان التي تحرم الزنا وكافة العلاقات التي تدرج تحتها - خالية من هذه الأوضاع
للخجلة والمنافية للأخلاق القويمة - المترجم .

احترام الذات ، وتقوية موقف (أنا لست على مايرام) ، فان ممارسة الجنس خارج الزواج لا تقدم سوى تنفيس للنوتر الذى فى الجسد ، ولكنها عندما يكون هناك كثيرون يتقاسمون عواطف الشخص ؟ وكذلك فان منهما . فكيف يستطيع الانسيان أن يحترم هذه العلاقة بطريقة غير محدودة عندما يكون هناك كثيرون يتقاسمون عواطف الشخص ؟ وكذلك فان هناك فتيات كثيرات قررن أن هذه التجربة لم تكن سارة ، وأنهن كن غير قادرات على الوصول الى ذروة اللذة . وقد قالت إحدى الفتيات :

« من المفروض أن تكون هذه العملية ممتعة ، ولكننى لم أشعر بذلك » . وقد مثل أحد الشبان عباً اذا كانت الفتاة المصاحبة له قد شعرت بهذا الشبح ، فقال : - « أواه .. لم أسألها فى ذلك ، فليست علاقتنا وثيقة الى هذا الحد » .

ان ممارسة الجنس بدون الألفة الشخصية لا ينتج عنها سوى فقدان احترام الذات . ويصدق هذا على الزواج أيضا .

وهناك كتاب عظيم تعرض بالفحص لكافة الحقائق المتعلقة بالجنس بالنسبة للمراهقين ، وكذلك آبائهم ، وهو كتاب الأسقف جيمس بايك ، وعنوانه : المراهقون والجنس Teenagers & sex - ويدور حول أن الانغماس فى الجنس يحمل فى طياته مسئولية أخلاقية فيقول :

« اننا لا نتعامل مع المبادئ والقوانين ، ولكن مع التأثيرات المباشرة التى تكون للقرار الفرد بالنسبة للآخرين ، سواء بالاحسان أو الاسائة . وكما أشار الفيلسوف وعالم اللاهوت مارتن بوير ، فان : علاقتنا بالله ليست بمفهوم العلاقة بينى وبينه (أنا - هو) بل بمفهوم العلاقة بينى وبينك (أنا - أنت) ولذلك فان أى علاقة بين شخصين يجب أن تكون علاقة (أنا - أنت) ويمثل ذلك معياراً أخلاقياً أساسياً يتركز فى عدم معاملة الأشخاص كالأشياء » (٤) .

ومهما كان القرار فى كل حالة على حدة فان الهدف يتركز فى أن القرار يجب أن يتخذ من موقع المسئولية - ويستمر الأسقف بايك قائلاً :

« ان اللهم ليس هو ما سيفعله أولادنا أو يقلعوا عن فعله ، بل انه مفهوم الجنس ذاته باعتباره طقساً له دلالة روحية ، وعلامة ظاهرة ،

J. Pike, "Teenagers and sex, (Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1965) (٤)

مرئية للنعمة الروحية الداخلية • ولا يعبر الفعل الجسدى عن الانساج
الروحى والعاطفى للرجل والمرأة فقط ، بل أنه أيضا وسيلة يقوى بها
هذا الانساج • انه عمل رفيع ، وأية موانع تحظره سواء من الجانب المتزمت
او الجانب الوجودى ، يجب أن تنبنى على الأساس المنطقى الذى يقر بأنه
عمل طيب ، وصالح للدرجة أنه لا يجب إخضاعه لظروف معينة • وإذا قام
التحظر على أساس حقيقة أن الممارسة الجنسية شيء صالح ، وليس على
أساس أنها شر ، فإن الشباب سيقفون على الزواج من موقف أكثر
صحة ، وتزداد فرصتهم لتحقيق الإشباع الجسدى عن طريق هذا
الزواج » •

وستظل المشكلة هي : كيف يمكن لأفكار مثل هذه أن تكرر
موضوعا لمحادثة بين مراهق ، وشخص ناضج ، إذا قام بين الاثنين حاجز
من الصمت والحرج وفقدان الثقة أو السخط ، لأن المراهق يعتقد مبدأ
رفض الحديث الى الأم أو الأب (لماذا يتحدث على ذلك ! اننى أعرف
ما سألقاه من توبيخ !) وتصور المحادثة التالية التى دارت بينى وبين
فتاة مراهقة فى سن الخامسة عشرة ، طريقة استخدام نموذج (الوالد -
الراشد - الطفل) للحديث عن المشاكل المعقدة المتعلقة بالعلاقات التى
تواجه المراهقين بما فيها الجنس • وعندما حدثت هذه المقابلة كانت هذه
الفتاة قد شوهدت أربع مرات فى دورات العلاج الفردى وثمانى مرات
فى مجموعات للعلاج • واليك ما دار فى واحد من اللقاءات الفردية
معه • ويرمز الحرف « د » للدكتور ، كما يرمز الحرف « س » لأسـم
سالى وهو الاسم الرمزى للفتاة وليس اسمها الحقيقى :

س : هل تعرف أنك تشبه الأطباء النفسيين حق التشبه ؟ بالطبع أنت
تعرف ذلك ، لأن هيتك تمثل الهيئة النموذجية للأطباء النفسيين •

د : لماذا لاتحدثين عن نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ؟

س : لا أستطيع اليوم • لا أستطيع استخدامه • ولست استخدمه الآن •
اننى أتعامل مع كل شيء تعاملًا خاطئًا •

د : أتعرفين معنى ما تقولينه ؟

س : لا •

د : أنك تقولين لهذا الرجل الذى يقوم بدور الطبيب النفسى : « أتحدثك
أن تغيرنى » • أليس هذا هو ما تقولينه ؟

س : متى قلت لك ذلك ؟

د : حسنا ، ان هذا هو ما تقصدينه ضمنا . اننى اسألك ، لماذا
لا تستخدمين نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لديك ، فتقولين :
« اننى لا أستخدমে ، ولن أستخدमे ، وأتأكد أن تجعلنى
أستخدमे » .

س : لم أقل أن ذلك سيستمر دائما . قلت عن اليوم فقط اننى
لا أستخدमे ، ولا أحس بالرغبة فى استخدامه . اننى متوترة ،
وهذا هو كل ما فى الأمر . اننى أعانى من التوتر منذ يومين .

د : اذن فأنت تريدین تمثيل التوتر اليوم ؟

س : لا ، لا أريد أن أمثل شيئا . اننى أريد مهدئا أقوى .

د : أتريدین مهدئا أقوى ؟

س : لم لا ؟ اننى أحتاج مهدئا أقوى . وكان الواجب يقتضينى ألا أحضر
اليوم ، وأنت تعرف اننى لم أرغب فى الحضور .

د : أنت تريدین مهدئا أقوى لأنك كسولة جدا لدرجة عدم الرغبة فى
استخدام نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لديك .

س : كنت أستخدमे ، وحاولت ، ولكننى متوعدة المزاج ، وأنا .

د : اذن فما هو الجديد ؟

س : اذن ما هو الجديد ؟ (تضحك) لم يكن ذلك لطيفا منك . ولكننى
أقصد اننى متوعدة المزاج جدا ، ولم أكن كذلك عندما خرجت من
المستشفى .

د : هل هذا هو الاختيار الوحيد بالنسبة لك - أن تكونى متوعدة
المزاج ؟

س : لا ، ليس كذلك ، وأنا أحاول ألا أكون كذلك ، ولكننى أكون كذلك
أحيانا .

د : لقد ثرت ثورة عارمة ؟

س : ليست الى هذا الحد . ولكن الغضب تملكنى . وعندما أكتب
مشاعرى بداخلى ، يتملكنى الاضطراب . هل تفهم ؟ . اننى أكره

هذا ، وآكره كل الناس اليوم . سأتوقف عن العلاج النفسى .
والآن ألا أبلو فى عينيك صورة نموذجية للمريضة النفسية .

د : (يابتسامة) اننى سعيد لأنك تبتسمين .

س : أواه ، اننى أبتسم حيال الموقف . اننى .. انه يجعلنى متوترة
الأعصاب ، ولكن هل تعرف ماذا أفعل ؟

د : ماذا ؟

س : اذا ابتسمت ، فاننى بعد ذلك أضحك ، ثم أصبح منزعجة ، و ..

د : هل تستطيعين أن تذكرى لى ماذا يزججك ؟

س : لا !

د : هل أنت على وشك البكاء ؟

س : أرجو ألا يحدث ذلك . لا . اننى على مايرام . اننى منزعجة اليوم .
أعرف ذلك - اننى آكره أن أكون كذلك . اننى لا أرى فائدة من
هذا ، لماذا لا نوقف علاجى النفسى ، وسأأخذ أقراص الدواء ،
ما الذى بى أكثر من نوبات الصداخ والغضب الذى يتمكنى فى
نوبات متتالية - ما هى مشكلتى ؟

د : انك لا تريدن النمو .

س : هذا هو ما قلت لى مرة ، قلت اننى لا أريد أن أكبر ، وهذا
غير صحيح .

د : أنا لا أدرى ما تعنيه كلمة « الكبير » ، اننى قلت : « النمو » ،
كما تعلمين ، افتحى عقلك لقبول بعض الافكار الجديدة .

س : لأية افكار ؟

د : نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) .

س : لقد فتحت عقلى لذلك عندما كنت فى المستشفى . وعلت الى المنزل
وأنا أشعر بأننى سليمة .

د : لماذا لا تستخدمين « راشدك » اليوم ؟

س : لا أدرى .

د : كل ما تستطيعين الحديث عنه هو : اننى متوترة ، لا أستطيع .
كان يجب ألا أحضر هنا اليوم ، أنت طبيب نفسى متقدم فى السن ،
وأنا مريضة .

س : حسنا ، هذا هو حالتنا اليوم .

د : حسنا ، ان هذا قول صائب ، وقد جساء عن طريق « الراشد » :
« هذا هو حالتنا اليوم » .

س : لا أستطيع أن أطبق نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) كل يوم .
د : حسنا ، لن تكون هذه فكرة سيئة . أنا أطبقه كل يوم .

س : هنيئا لك ، لو استطعت أن تنفذه ، أما أنا فلا أستطيع أداءه
صحيحا الآن .

د : أواه . . . لم لا ؟

س : لأننى -

د : ان « طفلك » يجب أن يتولى الزمام .

س : حسنا ، اننى أشعر من حين لآخر انه يسيطر على ، ولكننى
لم استخدم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) طوال حياتى ،
أو حتى لمدة عام أو شهر . اننى لا أعرف .

د : وماذا عن حياتك مع أبيك ؟

س : كنت طيبة مع أبوى .

د : كيف حال أمك .

س : طيبة ، لقد بنتا أكثر قربا مما كنا فى الماضى . لقد كنت مغرمة
بهما كليهما ، وكنت أحاول أن أكون بنتا من النوع الذى يحبانه
الآن ، لا أدري ، اننى أطور عقدة ذنب تجاه - اننى أشعر بأننى
كنت سيئة جدا ، وكل شيء .

د : حسنا ، دعينا نخصص حوالى ستين ثانية لذلك ، لأننى لا أستطيع
أن أرى فى ذلك جملوى - أعنى التفكير فى مدى السوء الذى
نتحدثين عنه .

س : اذا ظلمت تمارس معى هذا الاسلوب من العلاج النفسى ، فساظل
أحبل نفسى الى أيد الدهر .

د : وهل فى ذلك ضمير ؟

س : نعم .

د : لا . اذا كان ذلك سيقدم بعض الاجابات .

س : لا ، ليس كذلك دائما ، لى صديق حميم وهو دائما فى وعيه .
أظن ، أنه لن يذهب الى طبيب نفسى ، لقد عرفته منذ سنوات ،
وهو يعيش فى عزلة عن الواقع ، ان حالته تدعو للرثاء ، وهو
يعالج نفسه طول الوقت ، يقرأ كتباً .

د : هل هو مراقق .

س : نعم .

د : حسنا ، أن تعالجي نفسك دون أدوات ، هذا شيء ، ولكن لديك نموذج
(الوالد - الراشد - الطفل) لمعالجة نفسك ، وهذا النموذج
يعطيك الاجابات التى تحتاجين اليها .

س : حسنا ، سأظل (على ما يرام) سأذكر لك شيئا . اننى لا أعرف
ما اذا كنت أريد أن أستخدم « راشدى » طوال الوقت أم لا .
اننى أحيانا لا أريد ذلك . انه نوع من القتال . انه يكاد أن يكون
كاملا فهو يتعامل مع كل شيء بالأسلوب السليم وفى الوقت
المناسب . ولكنه يتراعى لى فى بعض الأحيان بأنه غير انسانى .

د : أعرف ما تقصدينه . بالطبع فأننا قلنا من قبل أن « طفلك » هو
الذى يجعلك سعيدة ومبتهجة مع الآخرين ، ولذلك فلسنا نريد أن
نقدف « الطفل » خارجا . ولكن دعينا نقول أن نموذج (الوالد -
الراشد - الطفل) موجود ، أقصد أن يكون « الوالد » و « الراشد »
و « الطفل » حاضرين دائما . حقيقة أن « الطفل » قد يزاحم
« الراشد » وتتولى العواطف الزمام ، ولكننى أعتقد أن المطلوب
هو أن نستخدم « الراشد » دائما حتى اذا كان « الطفل » يؤدي
دوره . واذا أراد « الطفل » أداء دوره ، اتركى « الراشد » يستمر
لتأكيد أن كل شيء يبقى سليما ، لأن الفتيات يقعن فى المتاعب ،
حينما يؤدي « الطفل » دوره لأنه يؤدي ألعابا خطيرة ، ليس هذا
صحيحا ؟

س : نعم ، أنت تقصد أنه يشبه المشكلة العويصة ، أو ما شابه ذلك .

د : حسنا .

التوافق النفسى - ٢٠٩

س : ألا يعرف متى يتوقف ؟

د : نعم . انه غير قادر على هذا ، وعندما لا يكون « الراشد » قادرا على أن يقول : لا « للطفل » فان أيا منا يلقى المتاعب .

س : وهل ينطبق هذا على كل شيء ؟

د : هذا صحيح ، كل شيء . قد يرغب « الطفل » في أن يأخذ شيئاً لا يخصه ، أو قد يرغب في استغلال شخص آخر . وقد يرغب « الطفل » في التلاعب بشخص آخر .

س : آه ، توقف عن الحديث بهذه الطريقة .

د : لقد رأيت أطفالا صغارا يتلاعبون بالكبار .

س : أنا أتلاعب - هذا خطأ تماما !

د : حسنا ، اننى لا أعرف ما اذا كانت الكلمة المقصودة خطأ أم لا ، ولكنك اذا كنت تتلاعبين بالآخرين وأصابعهم ذلك بالاحباط ، أو جعلهم يشعرون بالضيق ، أو أزعجهم ، فانا أنصحك حينذاك بأن تكفى عن هذا . أو اذا سمحت لنفسى بأن أصبح العوبة ، فأننى سأزعج ، وإذا تلاعبت بالآخرين ولم أعرف ذلك ولكنهم تبهوا لذلك ، فأننى سأزعج . أترين ذلك ؟ اذن فمتى تعلمنا أن نتلاعب بالآخرين ، أو أن نسمح للآخرين بأن يتلاعبوا بنا ؟ لقد كان ذلك فى سن الثالثة أو الثانية .

س : حسنا ، كيف يكون ذلك ؟ أعنى كيف يستمر ذلك ، لقد كنت أتلاعب بأبى ومازلت أفعل ذلك بدرجة ما . اننى لا أعرف ، وربما كنت أنت تسميه تلاعبا أو سيطرة على الناس ، ولكننى أنا أستطيع - لماذا ؟ نعم ، اننى أستطيع . وهو قد سمح لنفسه بأن يكون منقادا - لأننى لم أكن أعرف ماذا أفعل . ربما تلاعبت به ، وربما لم أتلاعب .

د : حسنا ، ان ما يدور بينك وبين أبيك ربما كان فيه شيء من التلاعب ، ولكنك تعرفين أن سعادة الأب بابتنته المراهقة ، تدخل كجزء منها . انه يستمتع بأن يراك سعيدة ، ويستمتع بأن يراك تعملين أشياء ، كما يستمتع باعطائك أشياء ، فهذا جزء منه كأب لفتاة مراهقة سعيدة ، ولكنك تستطيعين أن تستغلى كرمه ، كما تعلمين ، أن تستغلى مشاعره ، وهذا ليس مقبولا بالنسبة لك أو له لأنه يقودك الى نوع من المشاحنات الطويلة التى لا تنقطع .

س : أنا فعلت ذلك .

د : ماذا فعلت ؟

س : استغفرت . واستغفرت مشاعره ، توقعت أن أحصل على كل ما أريده ، توقعت كل - حسنا ، كنت أحسب أنني سأنال قسطا من مشاعره ، وكانت مشاعره نحوى فياضة . ولكننى لم أكن أسمح له بأن يلمسنى طالما لم أكن معتدلة المزاج . كنت أنفقت منه ، كما كنت قاسية فى بعض الأحيان . وكان ذلك يحدث حتى فى المستشفى . وفى إحدى الليالى قلت شيئا مريعا عندما كان آتيا بى الى المستشفى وهو يهم بالنزول فى المصعد ، وأراد أن يضمنى الى صدره على ما أظن ، فتحركت بعيدا عنه وطلبت منه ألا يفعل ذلك ، ثم ضحكت وقلت : « ان هذا يصيبك بالاحباط . ليس كذلك ؟ » كما لو كنت أحاول حقيقة أن أجرح مشاعره . فقال : - « نعم » ووافقنى على ذلك مما جعلنى أشعر بالأسى .

د : إذن فهل ضممته أنت الى صدرك ؟

س : لا .

د : هذا أمر مؤسف ، لأن « راشدك » كان سيترك « طفلك » يحتضنه ، لأن « الراشد » يحترم مشاعر الآخرين .

س : ومع ذلك فقد تجاهلت هذا . اذا أراد أن يحتضننى كنت أتركه يحتضننى ، وحينما كنت عازفة عن اظهار مشاعر الود والحنان ، كنت أكتفى بالسماح له باحتضانى لا أكثر ولا أقل . ولكننى كنت أبدى له حبا وحنانا .

د : ألا تريد أن تبادلوه المناق ؟

س : حسنا ، الآن سأذهب وأقبله على خده أو أى شيء مثل ذلك ، وسأظهر له بعض المحبة ، وسأكون لطيفة جدا . وقد فعلت ذلك بالنسبة لأمى أيضا . لقد فعلت ذلك عندما لأعبر لهما عن محبتى ، حسنا ، لم يكن ذلك مجرد تمثيل لأننى أعني أننى شعرت -

د : كما ترى ، ان المشكلة هنا تتعلق بالمحبة ، أى بالجنس الآخر ، وتتلخص فى أن « الطفل » خائف من الجنس سواء كان شعورا ، أو ما يظنه الآخرون . ان « والدك » الداخلى يراقب « طفلك » .

و « طفلك » خائف من الجنس يسبب « الوالد » الداخلى . ولكن
« راشدك » يستطيع أن يقول : « أظري » ان هذا صحيح تماما ،
ومناسب لك تماما أن تمنحى أباك المحبة ، فى شكل احتضان
بدنى ، اذا استطعت أن تفعل ذلك فسيكون شكلا من أشكال
سيطرة « الراشد » على « الطفل » .

س : لقد قمت بذلك .

د : حسنا .

س : كنت أقوم بذلك خير قيام .

د : ولكنك كنت تعرفين أنها مشكلة بالنسبة للمراهقين .

س : حسنا ، لم أكن أعرف ذلك .

د : وهذه هى الحقيقة .

س : هل هى كذلك ؟

د : توجد هنا كلمة ضخمة هى ما نسميه : المحظور .

س : لا أعرف لماذا .

د : لا . لقد امتد ذلك على مدى الأجيال . المحظور ! انه لا يرى ضيرا فى
الحب مع اقترانه بالجنس اذا لم يكن هناك روابط الدم . ان ذلك
محظور عظيم . ولكن علينا أن نبط اللثام عن تلك المعلومة المسجلة
فى الذهن . اننى أجد نفسى قادرا على مساعدة أى مراهق على أن يكون
طبيعيا ومحبا ومتوافقا مع والديه ، اذا استطعت مساعدتهما على
إخراج البيانات المختزنة فى « راشدهما » وأنت لاتستطيعين أن
تحبى الجنس الآخر . انتهى لذلك . انك تبدين عاجزة عن التمييز
والاختيار ، ولكن ما أن يعرف الانسان تلك البيانات ، ويفطن الى
معناها ، يصبح فى وسعه أن يتعامل من منطلق الود والمحبة على
مستوى « الراشد » وعلى مستوى « الطفل » ويمتلى « الراشد »
الحناءة « بالوالد » . ولن يكون « الطفل » خائفا من « الوالد » لأن
« الراشد » يصنف المعلومات باعتبار ما هو حقيقى ، ومعلومات
« الوالد » تعود الى تاريخ معين ، كما تعرفين - فى أى سن ؟

س : الثالثة .

د : هذا صحيح وهو يختلف تماما عما هو حقيقى اليوم . والى جانب ذلك ، كما نعرف كلانا ، فان لديك ابا وسيمى ، وعندما اراكما معا ، وأراه ينتظر اليك ، أدرك أنه يعتبرك بهجة حياته .

س : أنا لست كذلك . اننى صبيته . ان ذلك يثير المشاعر أحيانا .

د : حسنا ، لماذا أنت صبيته ؟

س : لأننى سببت له مثل هذا الشقاء ، اننى أشعر بالأسف .

د : حسنا ، لابد أنك تعبينه جدا حتى أنك - كما قلت لى مرة - تملين هذه الأشياء لى تحافظى على وجود مسافة ، بحيث لا تقتربان من بعضكما البعض .

س : نعم اننى أحبه هو - هذا لسوء الحظ - لا الرجال الآخرين ، ولكنى سأغلب على ذلك . . . حقيقة أننى سأحاول . . ان لدى مجموعة كبيرة من الأصدقاء الشبان ، وهناك شىء فيهم أكرهه . انهم يفكرون كثيرا فى الجنس ، وفى العادة فان الكثيرين منهم عندما ينظرون لى ، يبدو أنهم يريدون منى شيئا ، و -

د : ما شعورك ازاء ذلك ؟

س : ليس شعورا طيبا ، لا أدرى ، أنا لا أحب أن يلمسنى أحد ، اذا لم أرغب أنا فى ذلك . والأولاد يحبون أن يلمسوا البنات وهذا يضايقنى . لقد واجهت أوقاتا صعبة كنت أقول فيها : لا . أستطيع أن أقول : لا . ولكننى أحس بالرعب ، وعموما فانهم يتفهمون الموقف ، أما اذا لم يفهم أحدهم ، فاننى أثور ثورة عارمة ، ولذلك فاننى أخذه حذرى .

د : حسنا ، دعينا نرى . يوجد دائما ثلاثة مجموعات من المعلومات . بالخجل ، أو « التزمى حدود الأدب » ، أو « الأفضل لك أن تلتزمى بالخجل » ، أو « التزمى حدود الأدب » ، أو « الأفضل لك أن تلتزمى الجزء من الحقيقة التى يديرها « الراشد » يتركز فى : « ماذا تعنى هذا الموقف . أما « الراشد » فسيأخذ فى الاعتبار أن « الطفل » يريد أن يلعب و « الوالد » لا يريد أن يوافق ، و « الوالد » عنده قائمة طويلة من النماذج القياسية التى تظهر فى الصورة ، ولكن الجزء من الحقيقة التى يديرها « الراشد » يتركز فى : « ماذا تعنى المعاملة بالنسبة لك فى حقيقة الأمر ؟ » وعلى صييل المثال : ماذا

تستخلصين منها ؟ ما هي الأخطار ؟ ما نسبة المخاطرة ؟ ما هي النتائج ؟ وهل تتذكرين أن الفتيات اللاتي كن يعانين من المضايقات - في المجموعة - لم تكن أى منهن تحسب حسابا للعواقب ؟ طبعاً ، فنحن نعرف أن « الراشد » هو الذى يتعامل مع العواقب التى لا يحسب لها « الطفل » حساباً . إن « الطفل » يريد فقط أن يلعب . وكم واحدة من تلك المراهقات اللاتي كن يعانين من المضايقات قد تدبرت العواقب بعناية قبل اتخاذ القرار ؟ حسناً ، سأقول لك كم كان عندهن - صفر . وهناك أخريات كان لديهن « راشد » جيداً ، وكان عندهن قليلاً . لقد رأيتهم بين الأخريات ، لأن الكثيرات منهن كن يدرسن هنا مع المجموعة لتطوير « الراشد » .

س : لذلك ، أنه من الصعب أن أتعلم ، ولكن هذه قيم أخلاقية تحصل عليها من أبويك فى العادة ، مثلما هو الحال معى . انكم تتعلمون من بعضكم البعض ، أما المراهقون فانهم يتحدثون فيما بينهم .

د : حسناً ، هذه قيم أخلاقية ، ولكنها حقيقة ، أو أنها قيم تنتمى الى « الراشد » تدور حول « لاتجعلنا نصاب بضرر » ، أو اذا كنت أهم شخص فى العالم ، عليك أن تعتبر نفسك كذلك بشكل ما ، فانت لاتود أن تؤذى هذا الشخص أو أن تزج به فى مواقف تؤذيه . أنت تعرفين ما أرمي إليه .

س : هل تعرف ماذا أفعل ؟

د : ماذا ؟

س : أحب أن أغيب الآخرين ، والواقع أن الأولاد قد أسموني « المعاندة » وليس هذا بالشئ اللطيف .

د : حسناً ، ماذا يقصدون ؟ هل يقصدون أنك تدفعينهم الى مطاردتك ؟

س : نوعاً ما . بلهجة ، أو نظرة ، أو حتى مجرد وجودى هناك بل وعندما أقوم بأى شئ ، أحياناً أفعل ذلك دون قصد ، وأحياناً أكون متعمدة .

د : حسناً ، هناك طريقتان للنظر الى ذلك . احدهما هي أنك مرحلة وجذابة ولطيفة المعشر ، وهذا شئ طيب ، أما الشئ الآخر فهو أنك الجميلة الغاوية . . .

س : الشريرة . . . وأحياناً أفعل ذلك .

د : حسنا ، أتعرفين أين تعلمت فن الاغراء ! ان الاغراء لعبة تتعلمها الفتيات الصغيرات مبكرا جدا لأنها تجلب لهن الحلوى ، ولذلك فهن يتعلمن الاغراء مبكرا -

س : متى ؟

د : ينظر الأب الى محبوبته الصغيرة التي تتدلل عليه ، ويخرج الأب قطعة من الحلوى ، ويخرج لعبة ، وهكذا تنال أجرا مقابل تدللها .

س : (ضاحكة) ربما يكون هذا هو المكان الذي تعلمت فيه . اذن فالخطا منا هو خطأ أبى .

د : ليس فى ذلك خطا . ان فى ذلك متعة للأب والابنة .

س : نعم ، ولكنك لاتفعل ذلك مع الآخرين .

د : حسنا ، انه نوع من التسلية ، اليس كذلك ؟

س : أوه ، نعم .

د : انه نوع من التسلية اذا كان « الراشد » متوافقا مع « الطفل » عندما يلعب « الطفل » لعبة مثل لعبة الاغراء ، او لعبة الاغاطة ، او أى اسم تحبين اطلاقه عليها ، لأن « الراشد » سيتعامل مع المعاملة عندما يحين دورها .

س : لم يكن الأمر قاصرا على الأولاد ، بل الرجال . اذا نظر رجل نحوى فائى أشعر بالزهو أحيانا ، اذا لم تكن نظرته قدرة ، والواقع أننى دائما أريدهم أن ينظروا ، ولكنهم عندما ينظرون الى نصف الوقت أو أكثر من النصف ، فائى فى الواقع ، كما تعلم ، لا أشعر بالاهانة بل يساورنى شيء من الخوف ، ولا يملكنى الخوف عادة ، ولكننى لا أنظر اليه مرتين .

د : هذا هو ما يقوله ، وما تقولينه : انه يقول : « أنظرى ، أود أن أستفلك » وأنت تقولين : « أعرف أنك تريد ذلك ، ولكنك ستنال جزاءك » . وهنا نعود مرة أخرى الى التلاعب ، كما تعرفين . أنت تحبين أن تلعبى لعبة الاغراء أو الاغاطة لأنها تروق لك . وهنا نعود مرة أخرى الى دراسة فائدة المعاملات المربحة . قولين أن ذلك يرفع من روحك المعنوية . حسنا ، انك فى الحقيقة لاتحتاجين الى ذلك . ان كل امرأة تلعب هذه اللعبة التى تبني صورة الأنتى وترفع الزوج

المعنوية لها ، ولكن الشخص الذى يقدم لك هذه المتعة يريد شيئا فى المقابل ، وأنت تعرفين . وهذا هو ما يجهز « الراشد » نفسه للتعامل معه ، وهذا هو الموضوع - ان بعض هؤلاء الأفراد لديهم ما يمنحونه . ان الثراء يبدو عليهم . انه موقف صعب ، فالشباب قد يكون من نوع جناب طويل القامة ، ووسيم ، وعريض المنكبين ، ومتعالي ، ولكن كل ما عليك أن تفعله هو ، كما يجرى فى محادثتنا هنا ، أن تخرجى البيانات المختزنة الى النور ، ولك الخيار طالما أنك ستتعاملين معها من خلال « الراشد » وليس عليك أن توغلى فى ممارسة هذه اللعبة ، مثل بعض الفتيات ، لأن ذلك هو اختيارهن الوحيد . ان لديك « راشد » جيد ، ولذلك لديك اختيار الاستمرار فى اللعبة الى حد معين ، ثم تقولين ، حسنا ، لقد سمعت بمعرفتك وبعد ذلك ليكن ما يكون ...

ص : أوه - ان هذا يروعنى . اننى لا أستطيع أن أسمح بحلوث ذلك ، الا اذا حدث بالقوة ، لأنه يروعنى . أنا لا أريد شيئا من ذلك .

د . ماذا يخيفك ؟

س : لا أدري . ولكنه يروعنى .

د : ربما أنت بحاجة للمشعور بالخوف حتى لا يخسرج « طفلك » عن سيطرتك ، ولكن طالما أنك تبينين الثقة فى « راشدك » وأن لديك « راشدا » جيدا ، فقد نجحت ، لأن « راشدك » يستطيع التعامل مع كل معاملة ، حتى اذا كان « الطفل » مستمتعا بالمعاملة فان « الراشد » يطلق الاشارات ، وهذا هو ما سينقذك .

س : ارى ان وقتى قد انتهى ، مباراك عندما تبدأ المجموعة الثانية - الى اللقاء .

د : اتفقنا ، وتذكري (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) - تنتهى المقابلة .

فى خلال سنوات المراهقة الحافلة بالمتاعب ، نخال ان السبب عازف عن سماع نصائح آبائهم الملهوفين ، والواقع أنهم راغبون فى سماع عبارات الحب والاهتمام من الأب والأم ، وفى تجربة ذلك الحب والاهتمام . وقد لمست هذا بطريقة مذهلة مع ابنتى جريتن ذات الخمسة أعوام . عندما وصلت أمها ، كانت جريتن تحاول السير على الحافة الضيقة

لسور حوض الزهور لتختبر قدرتها على حفظ التوازن ، فقالت الأم :
« انتبهى والاستسقطين بين هذه الزهور » ، فقالت جريشس : « هل تهتمين
بالزهور ، أم تهتمين بى ؟ » .

ان « الطفل » الكامن فى المراهق ، يسأل نفس السؤال . ولكنه
لا يذكره فى كلمات كثيرة . ان الأبوين اللذين يفتنان لهذا التساؤل ،
الذى لا يعبر عنه المراهق بالكلام ، والذى يجيبان عنه بأفعال تعبر
عما يكتنانه من حب ورعاية واهتمام واحترام ، يؤكدان فى ذات الابن دائما
« أنه هو الذى يهتمان به » ، وصيجنى الأبوان من ذلك الكثير من المرات
والمفاجآت المفرحة التى قد لا يحسبان لها حساباً فى فترة مراعاة الأبناء .

الفصل الحادى عشر

متى يكون العلاج ضروريا ؟

(اننا لانفكر الا عندما نواجه مشكلة - جون ديوى)

• اذا اتوى كاحل شخص ، فانه يمكن أن يخرج فى سيره ، وسرعان ما تتحسن حالة الكاحل ، ولكنه يظل يستعمله بشكل محدود عندما يخرج فى سيره ، واذا كسرت ساقه فانه يحتاج الى خضادة تسندها ، بينما تأخذ العظمة فى الالتئام ، والمشكلة الاولى هي لاعتلال الضحة ، أما المشكلة الأخرى فهي العرج • وربما تكون الرعاية الطبية مفيدة فى الحالة الاولى بينما هي ضرورية فى الحالة الثانية •

وبنفس الطريقة نستطيع أن نرى ضرورة العلاج للمشاكل العاطفية • ان « راشد » الشخص قد يلحق به الضرر بسبب التسجيلات القديمة من الماضى ، ولكنه يستطيع أن يقفز فوق المصاعب أو خلال المشاكل بدون علاج لأن العلاج يمكن أن يخففها ، ولكن « راشد » لدى بعض الناس يصاب بالضرر الى الحد الذى يعجزهم عن العمل • انهم يرجون بسبب الفشل المتكرر ، أو تشل حركتهم بسبب الشعور بالذنب • وهناك فى الغالب أعراض بدنية ، فلا تستطيع الأمهات تادية وظيفتهن كأمهات ، ولا يستطيع العمال أداء أعمالهم ، ويترك الصغار المدرسة ، أو يصبح سلوك بعض الناس فى غير محله الى حد الخروج على القانون • والعلاج ضرورى بالنسبة لهؤلاء الناس لأن كلا منهم يستطيع الاستفادة منه • ويستطيع كل الناس أن يصيروا محللين للمعاملات ، والعلاج ببساطة

يجعل بالتقدم . أما العلاج بأسلوب تحليل المعاملات فيعتبر تجسربة تعليمية ضرورية من خلال ما يكتشفه الفرد حول تصنيف المعلومات التي تدخل في قراراته . وليس هناك سحر فيما يطبقه الاختصاصي الخبير ، لأن الطبيب النفسي يستخدم الكلمات لنقل ما يعرفه ويستخدمه في معاملاته الى الشخص الذي يأتي طلبا للعلاج ، ولذلك فهو يستطيع أن يعرف ويستخدم نفس الأسلوب . وقد قال أحد أصدقائي من أطباء التحليل النفسي : « انني أعرف واحدا من أحسن محلي المعاملات ، وهو سائق سيارة نقل » .

والهدف هنا ينحصر في تحويل كل شخص تحت العلاج - الى اختصاصي في تحليل معاملاته الذاتية .

وتتباين أشكال العلاج النفسي ، كما أن صورته مختلفة في أذهان الناس . ولهذا السبب فإن قرار الذهاب الى محلل نفسي بصفة عامة ، لا يتخذ بدون قدر كبير من الحوار الداخلي . ويشعر الكثير من المرضى بالتماسة عند طرح فكرة كشف حقيقة أنفسهم على شخص ما ، حتى لو كان هذا الشخص اختصاصيا أو مرشدا محترفا ، مثل المحلل النفسي ، وعندما يفتح المريض الباب الى المكتب لأول مرة ، فإنه غالبا ما يشعر بالوحدة ، والخوف والتجمل - أمام احتمال الفشل . وحتى اذا قاد « الراشد » الشخص الى مكتب المحلل النفسي ، فإن « الطفل » سرعان ما يتولى الزمام ، ويتم تطوير معاملة (والد - طفل) . ويمبر « طفل » المريض عن المشاعر ، ويتوقع العلاقة مع « والد » المحلل النفسي خلال معاملات الساعة الأولى . ويطلق المحللون النفسيون على هذه الحالة اسم : « النقل - أي أن المريض في موقف يعمل على نقل المشاعر والسلوك المرتبط بها من الماضي ، عندما كان المريض صغيرا ، الى الحاضر ، الذي فيه يستجيب « الطفل » في المريض ، كما كان يفعل قبلا بالنسبة لسلطة « الوالد » . وليست هذه « المعاملة » أو الموقف بالشئ القليل النادر في حياتنا ، بل أننا نمر بها مرات ومرات ، وهناك عناصر منها ، مثلما يحدث على سبيل المثال عندما يوقف رجل المرور قائد سيارة . ويتأكد المحلل النفسي أن المريض قد تحسن عندما ينجح في منع هذا النوع من المعاملات ، من نقل أو تحويل المشاعر عن الطفولة . وعند هذه النقطة من التحليل لا يكون المريض مرغما على أن يختار ما سيكتشفه عن نفسه للمحلل .

وبكلمات أخرى ، نقول أنه ليس على المريض أن يخشى « والد » المحلل . ويطلق على هذا الموقف في التحليل النفسي اسم :
انتصار المقاومة أو مقاومة الخوف overcoming resistance

ونحن نتجنب أثناء تحليل المعاملات ، الكثير من الآثار المعوقة لعملية النقل ، والمقاومة الناتجة عن شكل ومضمون نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ذي المشاركة المتبادلة . وسرعان ما يجد المريض أنه يتعامل على قدم المساواة مع انسان آخر أتى لمساعدته ، وهو انسان مهتم بتطوير معرفة المريض لذاته سريعا حتى يستطيع أن يصبح المحلل النفسى المفضل لديه بأسرع ما يمكن . وإذا تملكك المريض مشاعر النقل والمقاومة ، فان تلك المشاعر ستعالج مباشرة خلال الساعة الأولى بعد أن يتعرف الى « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » .

وقد تطورت الساعة الأولى - من خلال ممارستى - الى نموذج ثابت ، حيث يخصص النصف الأول الصعب من هذه الساعة لسماع حكاية المريض عن مشكلته ، بينما يخصص النصف الثانى لتعريفه بأسس نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) وبعد أن يفهم المريض معنى النموذج ، تدور مناقشة مشكلته باستخدام اللغة التى تعلها لترو . وهذه المعاملة كفيلة باستحضار « الراشد » ويكون المريض متشوقا لسماع الاكثر . ولا يستسلم « الطفل » المتضايق بسهولة . وقد يقاوم أو يعاود اظهار (المقاومة) فى جلسات علاج فردية متتامة ، أو فى مجموعة علاجية ، ويحدث تفسير علاقة (راشد - راشد) فى كل مرة يظهر فيها « الطفل » بالكشف عن طبيعة المعاملة المتأصلة فى « الطفل » والحصل السبب لمشاكل معاملات الفرد فى الحياة .

ويعتبر تحليل المعاملات فى المرحلة التمهيدية ، وسيلة ضرورية للتعليم والتعلم بفرض غرس معان محددة كأساس للاستكشاف المتبادل لكيفية ظهور (الوالد والراشد والطفل) فى معاملات اليوم .

واعتقد أن عملية ارساء أصول لغة ذات معان محددة فى المرحلة التمهيدية للعلاج ، هى مهمة يتفرد بها هذا الاسلوب فى العلاج ، وهى مسئولة عن التعبيرات التى تجسده احساس المريض بالتحسن مثل قوله : « اشعر بتحسن كبير » ، أو « هذا يمنحنى الأمل » ، وهى أقوال نستمع اليها غالبا عند نهاية الساعة الأولى .

وتتضمن الساعة الأولى أيضا مناقشة « عقد العلاج » ونحن نستخدم كلمة « عقد » للدلالة على التوقعات المتبادلة (اننى هنا لكى أعلمك شيئا ، وأنت هنا لتتعلم شيئا) . وهذا لايعنى أن الشفاء مضمون ، ولكنها تعطى ببساطة وعدا بما سيفعله الطبيب النفسى المعالج وبما سيفعله المريض نفسه . وإذا حاد أى منهما عن الاتفاق الأصلى ، يكون من السهل إعادة

النظر في العقد • وتصور هذه المحاولة ميسورة باستخدام اللغة الجديدة ،
التي تشق طريقها نحو الخصوصية • ويوافق المريض على تعلم لغة تحليل
المعاملات ، واستخدامها في فحص معاملاته اليومية ، ويهدف العلاج الى
شفاء المرض الحالي ، أما طريقة العلاج فتتركز في تحرير « الراشد »
لكي يمارس الفرد حرية الاختيار ، وخلق اختيارات جديدة ، أرفع وأبعد
عن تأثيرات الماضي المحدودة •

تشخيص المرض :

يسأل المريض أحيانا خلال مسار الساعة الأولى من العلاج - قائلا :
« ما هو تشخيص حالتي ؟ » في صـوت متهدج ، مرتعش النبرات ،
كما لو كان استجدا • ويثير هذا معاملة (والد - طفل) فاتجنبها بسؤال
مثل : « هل تحتاج الى تشخيص ؟ » أو « ماذا سيفعل التشخيص »
بالنسبة لك ؟ » وفي اعتقادي أن أشخاصا كثيرين قد أضيقوا من أسلوب
العلاج بسبب خطأ التشخيص النفسي • ويوافق كارل ميننجر على ذلك
قائلا : « لا يأتي المرضى اليـنا لكي يـصفوا بـسمة المرض ، ولكنهم يأتون
ليتلقوا المساعدة ، ويستطيع الناس أن يشفوا من أعراض المرض العقلي ،
ولكنهم لا يشفون من صدمة وصفهم بهذه الصفة » •

ويعتبر التشخيص في التقليد الطبي ، طريقة كافية لاقامة الاتصال
من ناحية الأطباء • ان معرفة التشخيص تساعدهم على معرفة ما يجب أن
يفعلوه • ان اصطلاحات مثل : التهاب مزمن في الزائدة الدودية ،
أو التهاب الكيس الزلالي ، أو سرطان في أنسجة الرئة ، أو انسداد عضلة
القلب - تبين حالة معينة وتستدعي علاجاً معيناً ، أما في العلاج النفسي
فسنجد أن أسلوب التشخيص التقليدي يفشل فشلا ذريعا في تحقيق
الفرض الأصلي منه وهو تحقيق الاتصال بين المريض والطبيب • وقد وردت
صفحات عديدة عن التشخيص في (دليل جمعية الطب النفسي الأمريكية)
وفيما عدا بعض الاستثناءات ، فإن المعلومات التي يقدمها كل تشخيص
غامضة ، مثل اصطلاحات الأنا الأعلى والأنا والهـو • ان القول بأن المريض
مصاب بانفصام مزيف ، أو قهر عقلي ، أو اعتماد سلبي ، أو قلق عصبي ،
أو وقوع تحت تأثير الماضي ، هذه التشخيصات النفسية لن تفيد المريض
بل ستجعله يعتقد أن العلاج سيستغرق وقتا طويلا • ان القول بأن المريض
يعانى من الانفصام لا يفيد كثيرا لأننا نفتقر الى تعريف واضح للانفصام •
وقد يجده المريض بعض الراحة عندما يعرف أن عنده مثل هذا المرض •

الغريب ، والصعب . ويتفق القليل من الأطباء النفسيين على طريقة علاج الانقسام أو متى يجب استعمال الملاحظة ، إذن فإن الاصطلاحات التشخيصية من النوعية التي ذكرناها ليس لها معنى ، ونساعد فقط على اكساب جهود علماء النفس سمعة طيبة ، وتحقيق متطلبات قسم الملفات بالمستشفى . إن كل كلمة تقبل في تحقيق الاتصال غير مقيدة ويجب نبذها . وفي التحليل النهائي ونقول أن ما نعرفه هو الذي يبين الاختلاف . أما الكلمات التي تطمس الحقيقة فيجب نبذها واستبدال تلك الكلمات البسيطة والدقيقة والمباشرة التي تعبر عنها علما بأن معرفتنا للطريقة التي ركبنا بها ، كقيلة بتحرير نفوسنا وكبير قيودنا .

أما لغة تحليل المعاملات ، وملاحظة الوحدة المتفق عليها (المعاملة) والتعريفات المحددة « للوالد » و « الراشد » و « الطفل » ، فإنها جميعها تتيح أسلوب اتصال جديد وغنى بالمعاني ودارج - ليس فقط بين الأطباء الذين يستخدمونه ، ولكن أيضا بين الأطباء والمرضى .

إن الشخص الواقع تحت سيطرة « الوالد » مع « راشد » موصد ، يعرف أين تكمن مشكلته ، ويستطيع أن يتحرر من الماضي بدون الرجوع إلى حقيقة أنه يعاني من حالة القهر العقل ، والوقوع تحت تأثير الماضي . وعندما يصير عضو بالمجموعة على معرفة بتشخيص مرضه فيتساءل : « من أنا ؟ أخبروني بأي حال من الأحوال من أكون ؟ » فأنني في العادة أجيب بصيغة يستطيع أن يفهمها وببنية على أساس معرفتي به تلك التي اكتسبتها من مراقبته في مجموعته . ومثل هذه الصيغة يجب أن تكون كما يلي : (إن لديك قدرا كبيرا من الأحساس بأنك لست على مايرام في طفلك » مع قدر متوسط من افساد « راشدك » مما يجعلك تضيء في بعض الأحيان على غير هدى ، وتعطي « لوالدك » المتأرجح فرصة ليضرب « طفلك » لما هو مصدر احساسك بالذنب ؟) .

إن اهتمام المريض بأعراض مرضه ، يمكن أن يسبب نفس الضرر الذي يناله من احساسه بالحاجة إلى تشخيص لمرضه . وقد فشلنا في الحصول على سند يدعم فكرة أن المناقشة التكررة للأعراض المرضية ، مثل الهبوط ، والصداع ، والأرق ، أو آلام البطن ، تنفع في تخفيف الأعراض . ولكننا أثبتنا أن التقليل من حدة الصراع الداخلي يمكن أن يصنع العجائب بالنسبة لآلام البطن . وكذلك فإن التشخيص ولعراض المرض ينتميان إلى دائرة الألعاب التي يولع البشر للأصيف ، بممارستها ، أو بالاحساس بالتفوق على الآخرين مثل « مالمدي أفضل » أو « لا أحد يعرف كم أعاني » .

وماذا عانى ، • وإذا عانى شخص من مشاكل في حياته بصرف النظر عن ماهية هذه المشاكل ، وطلب المساعدة في حلها ، فمن المستطاع تعليمه تحليل المعاملات لفحص معاملاته الحالية في الحياة ، والتي يستطيع نتيجة لها أن يكشف التأثيرات القادمة من الماضي البعيد والتي تعود إليها متاعبه •

وفي العادة فإنه يجرى خلال الساعة الأولى توجيه السؤال التالي : « كم من الوقت سيستغرقه ذلك ؟ » وقد كانت الاجابة عن هذا النوع من الأسئلة متحفظة ، على الأقل في كثير من ممارسات العلاج النفسي ، ان لم يكن فيها كلها • أما مغزى السؤال فهو الاشارة الى أن العلاج سيستغرق دهورا • وقد أوضح بيبروم د • فرانك أن توقعات المرضى عن فترة العلاج تمثل عوامل أساسية في تحديد طول المدة التي يستغرقها تحقيق نتائج نفسية مشابهة • وهو يستشهد بمجموعتين من المرضى « كانوا يعانون من أمراض سيكوسوماتية » في نفس الوقت ولكن أحدهما استغرق ستة أسابيع ، بينما استغرقت الأخرى عاما كاملا للشفاء ، وكان الاختلاف هنا راجعا الى توقعاتهما فيما يتعلق بطول المدة التي يحتاجها كل فريق • وأظن أن المفتاح الى التوقع هو فهم نتائج العلاج النفسي التي يتم التوصل إليها ...

وقد حددنا هدفنا من العلاج باستخدام اللغة الجديدة التي نعلمها للمريض قبل علاجهم ، وعلى ذلك فإن المريض يعرف الدور الذي يؤديه • وأنا أحب أن أعود مرضاي على التفكير في نطاق الحدود التي يفرضها عليهم واقع الزمن والمادة بوصفها تحديات لا مفرقات • وحينما أبرم اتفاقا مع أحد المرضى أقول له عادة : « دعنا نرتب لك الحضور مع مجموعة الساعة الثانية يوم الثلاثاء لحضور عشر جلسات ، وسنرى ما نستطيع أن نعمله لك خلال هذه الفترة » •

أما اذا أراد المريض أن يستمر بهذه السلسلة فائنا نستطيع ترتيب عشر جلسات أخرى • وهو يعلم أنه يستطيع العودة • أما متوسط طول الوقت في أي مجموعة من الذين يتدربون معي ، فإنه يستغرق عشرين ساعة • وبالطبع توجد اختلافات ، تبدأ بالاختلافات الفردية • اننا نختلف في (الوالد والراشد والطفل) كما نختلف في مصاعب أوضاعنا المعيشية : مشاكلنا الزوجية ، والعمل غير المناسب ، وعدم وجود مجال لتمضية وقت الفراغ • الخ لقد كان هناك مرضى حققوا تفوقا في خلال ثلاث أو أربع جلسات ، وهذا يعني أنهم كانوا قادرين على أن يحرروا

ما يكفي من « راشدهم » بحيث استطاعوا أن يبدلوا في التفرقة بدقة ما بين « وانداهم » و « طلقهم » وما بين الاثنين والحقيقة - أي العالم الخارجي .

ومن بين الدلائل الأولى على هذه التفرقة قول المريض : « ان طفلي الذي ليس على مايرام ، كان ... » أو « يكون ... » ان استعمال هذا الاصطلاح يبين تحقيق فصل مفهوم ومحدد وحقيقي - « لطفل » المريض عن « راشده » وهذا يعني أنه قد تكاملت في شخصيته كافة الجوانب العقلية والداخلية والخارجية .

لماذا يستخدم العلاج الجماعي :

ان علاج الأفراد في جماعات هو أسلوب الاختيار بالنسبة لتحليل المعاملات . هل هذا أسلوب طيب أم ردي ؟ هل علاج الأفراد في جماعات يمثل « أسلوبا اقتصاديا في العلاج ؟ » ان رد فعل التبرين بالنسبة لكلمة «مجموعة» يشبه رد فعلهم ازاء الاصطلاح الذي استخدمه فرانكلين روزفلت « الرجل العادي » (*) من يريد أن يكون « عاديا » ؟ من يريد تدوير ذاته في اطار عضوية جماعة ؟ ماذا يدور في العلاج الجماعي ؟ ماذا يدور في العلاج الجماعي باستخدام أسلوب تحليل المعاملات ؟ ان الانطباع العادي هو أن الناس من خلال العلاج الجماعي بأسلوب تحليل المعاملات يعبرون عن المشاعر « يخرجونها من داخلهم » ويقولون للآخرين ما يظنونه عنهم ، وعن « أي شيء » يخطر في بالهم . وفي الحقيقة فان الكتابات الجديدة عن العلاج الجماعي قد شجعت وجهة النظر هذه . وقد ذكر من ٢٠٠٠ سلافسون أحد رواد تطوير أساليب العلاج الجماعي - في كتابه : The practice of Group Therapy أي : ممارسة العلاج الجماعي - ما يلي :

ان القيمة الرئيسية العادية للمجموعة تتمثل في أنها تسمح باستخراج الدوافع الغريزية التي تتزايد سرعتها بسبب التأثير المساند للعوامل الأخرى ، فهناك حرص أقل وانطلاق أكبر في المجموعة التي يلقى من خلالها المرء في رفيقه سنداً ، كما يتبادل الؤف من تعرية النفس ، ونتيجة لذلك فان المرضى يكشفون عن مشاكلهم بسهولة ، مما يجعل العلاج النفسي ، وتنكش الدفاعات . وفي اطار هذه البيئة السميحة ، واقتناء الآخرين - تبدأ الضغوط التي تفرضاها النفس لعمانتها في التلاشي ، وبالرغم من أن المجموعات تتخلف من دفاعات « الراشد » كذلك ، فان هذا

(*) أي يعبر عن الازدراء - للترجم .

يصنق أيضا على الأطفال والمراهقين . أن حرية التصرف والحديث تؤدي إلى الرضا ، وهي في نفس الوقت تجعل المرضى يتقبلون مع مشاكلهم وجهها لوجه في مرحلة مبكرة من العلاج . وكذلك تقلل الدفاعات التي يحاول بها المرء حماية كبريائه الشخصي . أن المناخ الودود للمجموعة ، والقبول المتبادل يجعلان الفرد في غير حاجة لموقف الدفاع ، فالجميع لديهم نفس المشاكل ولا يتوقع أحد ردود فعل سلبية . أن الوضع قد تأكد ولم يعد هناك خوف من الانتقام أو الإقلاق من القيمة (١) .

وخلال ممارستي للعلاج ، لم أستطع أبدا أن أقر العبارة السابقة . أن السماح للصغير بالتعبير عن دوافعه الغريزية ، وإداء الألعاب كيفما اتفق من خلال مجموعة العلاج ، ليس الاضاعة لوقت المجموعة وعدوانا على حقوق وأهداف كل عضو في المجموعة . وإذا سمح للصغير بالاستمرار ، فإنه سيخرب « المقد العلاجي » لتحليل المعاملات . وحتى يكون كل عضو على الأقل قد بدأ في تحرير « راشده » سعيا للخلاص ، فإن العائد المتوقع من « كرسى الاعتراف » سيكون ضئيلا - أن كان هناك ثمة عائد - في علاج أي من أفراد المجموعة . ولا يسجل إلا بالمحافظة على وضع « الراشد » في موقع المسئولية . و « الراشد » فقط هو الذي يستطيع أن يكشف « الطفل » أو « الوالد » . أن الكشف عن المشاكل يمثل دعوة للمشاركة في الألعاب « لماذا لا تفعل » نعم ولكن . أن التعبير عن المشاعر و « الحديث من خلالها » قد ينتج الرضا بالنسبة « للوالد » و « الطفل » ، كما يحدث في الحياة اليومية ، ولكن من خلال مجموعات العلاج تتداخل هذه المعاملة مع اكتساب احساس المرء بأنه على مايرام ، والمفاهيم الضرورية للوصول إلى « الراشد » المتحرر .

لا يوجد سحر في كلمة « مجموعة » ، لأن تحليل المعاملات في مرحلته المبدئية ليس الا تجربة تعليم وتعلم . وأسلوب المجموعة له مميزات عديدة واضحة تجعله يتفوق على الأسلوب التقليدي للعلاج الفردي (طبيب + مريض) . وكل ما يقال في المجموعة يراه ويسمعه كل عضو فيها - تستوى في ذلك كافة الأمثلة والأجوبة والمعاملات . ويحتاج المريض إلى التعرف على الطرق المتعددة الخفية التي يكشف بها « الوالد » عن نفسه في المعاملات ، فلا بد من تعريفها وتعلمها . ولا بد من معرفة كل من التهديدات الداخلية والخارجية التي تهدد « الطفل » أولا بشكل عام ،

S. R. Slavson. "The Practice of Group Therapy", (New York : International University Press, 1947). (١)

يتبعها التطرق الى الخصائص الفريدة والمحددة « للطفل » ، فى كل فرد من افراد المجموعه . وهناك يواجه المريض الالام والواقع الذى يعيش فيه بأسلوب يختلف عن الحديث المتقنى والمتسامح الذى يدور همسا بين المعالج والمريض فى أسلوب العلاج الفردى . لما فى علاج المجموعات فان الناس تظهر فى الوسط الطبيعى مندمجة مع غيرها بدلا من انفصال كل شخص على حدة ذلك الانفصال الذى لن ينعكس على الخارج أبدا . وتتركز الفائدة الأساسية من علاج الناس فى مجموعات باستخدام أسلوب تحليل المعاملات فى أنهم يتحركون أسرع نحو الشفاء ، والعودة الى الحياة ، والبده فى الرؤية ، والاحساس بما هو حقيقى ، أو « النمو » . ومهما كان هدف الفرد من العلاج فلا بد من الكشف عنه عند نهاية الساعه الثيرة من خلال المجموعه ، وقد قال واحد فى احدى المجموعات : « اننى أشعر كما لو أن طولى عشرة أمتار » .

وقبل فحص هذه الفائدة الأولية ، قد يكون من الأفضل الاشارة الى الاجابة التى يقدمها العلاج الجماعى عن التكلفة المرتفعة المعروفة للعلاج الفردى ، والتفاوت بين عدد الأشخاص المحتاجين للمساعدة والعند المتاح ممن يقدمون هذه المساعدة اننا نعيش فى عصر الاحساس بالتكلفة والوقت ، كما أننا نشعر دائما بضرورة مديد العون لهؤلاء الذين يعانون وهم كثيرون . وعلينا ونحن نبحث عن الحل أن نفحص واحدا من أهم الانتقادات الموجهة للعلاج بالتحليل النفسى : انه ارتفاع التكلفة ، والوقت الطويل الذى يتطلبه حتى تتحقق النتائج التى قد تكون غير مؤكدة . ولا نستطيع أن نتجاهل هذا الانتقاد بسهولة ونقول ان الذين يتمسكون بوجهة النظر هذه عاجزون عن تقييم الأولويات الحقيقية ، مثل ذلك الذى يعانى من مشكلة ولا يجد لها حلا الا فى اقتناء سيارة حديثة الطراز بدلا من البحث عن يساعده فى ايجاد حل حقيقى للمشكلة .

ويوجد اليوم العديد من الأفراد الذين على الرغم من قبولهم الكامل لفكرة أن « الصحة النفسية مهمة » ، الا أنهم لا يزالون عاجزين عن تحمل نفقات العلاج الطويل المدى بالتحليل النفسى مع ارتفاع تكاليف المعيشة التى وصلت الى أقصاها ، ومن هؤلاء الكثير من أبناء الطبقة الوسطى وجميع المجموعات ذات الدخل المحدود . فهل تقتصر الصحة العقلية على الأغنياء ؟ وهل العلاج بالتحليل النفسى ، هو كما سمعت زميلا من المحللين النفسيين ، نوع من الرفاهية ؟ وهل فى الامكان مساعده عدد أكبر من الناس عن طريق العلاج الجماعى ؟ وهل يمكن اعتبار الرعاية النفسية جزءا من العلاج مثل الجراحة الطارئة ؟ ان الدكتور ليونارد شازمان وهو

طبيب بالمركز الطبي لجامعة كاليفورنيا - قد اكمل فى سنة ١٩٦٦ دراسة ميدانية لخمسة عشر مركزا طبيا على مدى نمائة أعوام ، غاص خلالها بين المحللين النفسيين والأطعم العاملة معهم . ومن خلال الدراسة التى نشرها سنة ١٩٦٦ بمجلة *Chronic* ، لاحظ أن :

الاسلوب العلاجي القديم القائم على النظام الفردي (طبيب + مريض)
يخدم الإثراء ، مع استجاءل العامل للطبعت الصغيرة ، وهذا الاسلوب لم يعد الآن كافيا حيث يحتاج السندن الذين يتزايد عددهم اليوم - الى خدمات نفسية أكثر ، كذلك فإن الطبيب النفسى الذى يستخدم اسلوب التحليل النفسى يلتزم بمكتبه ويقدم الخدمة الشخصية الى عدد محدود من المترددين ، وعليه أن يتعامل مع الناس الأكثر ثراء لتغطية تكاليف أعبائه . ويتم تفصيل الخدمة حسب حالة العميل من حيث كمائها ، أو ودائتها ، او بين هذا وذاك ، كما أن الطبيب يقدمها فى شيء من الكبرياء والتأنق . ولكن من يشتري الحلل الجاهزة ؟ من الذى يأكل دائما فى المطاعم الشهيرة التى تقدم الطعام ومعه النبيذ على ضوء الشموع ؟ من الذى يقود السيارات المصنوعة حسب الطلب ؟

ومن الممكن لعلاج الأفراد من خلال المجموعات أن يقلل من تكلفة العلاج الى الدرجة التى يمكن عندها قبول العلاج لدى القائمين به ، ومن خبرتى أيضا أقول أن العلاج الجماعى باستخدام تحليل المعاملات ، قد قلل من طول فترة العلاج التى ترتب عليها أيضا خفض التكلفة بالنسبة للمريض . ويتركز العامل الثالث فى أن « عقد » العلاج ، والجراءات المستخدمة ، أصبح محدودا جدا لدرجة اعتقادى بأن هذا الشكل من أشكال العلاج سيدخل نظام التأمين على نطاق واسع وإذا استطعنا التأمين على تعليم أولادنا ، فمن الممكن أن نؤمن أيضا على نوع خاص من التأمين المتعلق بالسلوك .

وعلى أية حال فهناك ما هو أهم من هذه الاعتبارات ، وأعني به حقيقة واعتمادا على خبرتى - أن بعض الأفراد تتحسن حالتهم أسرع من خلال مجموعات العلاج باستخدام تحليل المعاملات ، أكثر مما يحدث باستخدام علاقة الاسلوب الفردي التقليدى (طبيب + مريض) . وأقصده بالتحسن هنا تحقيق الأهداف المنصوص عليها فى عقد الساعة الأولى ، والتي من بينها هدف تخفيف حدة الأعراض الحالية (منها على سبيل المثال : انحلال الزواج ، والإرهاق ، والصداع ، والفشل فى العمل .. الخ) والهدف الآخر هو تعلم استخدام نموذج (الوالد - الراشده - الطفل) بدقة .

ونقاء . ومن بين المعاييس التي تبين شفاء المريض ، مقدرته على
 دبر ما حدث في ان معامه بطريقه معهزمه لبعيه افراد المجموعه ، واذا دبر
 لي شخص انه حسي فسر طويته في العرج وانه « ان معيدا » ولكنه
 لم يستطع الاجابه عن سؤال : « ماذا حدث خلال العلاج ؟ » فانتى لا اشعر
 بانه قد حقق السيطرة على افعاله الذاتيه - وانا اطبق هنا فكرة ارسطو
 العائنه بان « ما يعبر عنه - ينطبع في الدهن » . واذا استطاع المريض
 ان يعبر بالكلمات عن : لماذا عمل ما عمله ، ويعرف كيف توقف عن عمله ،
 فانه يكون قد نال الشفاء ، مادام يعرف ماهو العلاج ويستطيع ان يستخدمه
 مرارا وتكرارا . ومادام المريض قد تعلم مبادئ نموذج (الوالد - الراشد -
 الطفل) فانه يستطيع ان يرى مجموعه تحليل للمعاملات كشخص يختلف
 كثيرا عن ذلك الذي تعود ان يراه عن طريق « والده » و « طفله » . وربما
 يكون قد تعلم مبكرا : « لاتنشر غسيلك القذر امام الآخرين » ،
 او « لاتبج بأسرار العائله » . ويحدث هذا من خلال شريط واضح التسجيل
 يعمل عن طريق « الوالد » . ومن الجهة الأخرى فان « الطفل » يريد
 احتلال الملعب فترة الساعه بكاملها . وذلك بالاستمرار في لعبة
 « أنا مسكين » . والشخص الذي يريد أن يلعب لعبة « الاعتراف »
 و « الطلب النفسي » ، و « أليس هذا عظيما » و « انها غلطته هو وحده » ،
 سرعان ما سيجد انه لا أحد من المجموعه يريد أن يشاركه اللعبة . ان دور
 المعالج النفسي هو دور المدرس ، والمدرّب ، ورجل الأبحاث الذي يشجع
 بشده على الاندماج ، ويسمح بشيء من الضحك ليوفر احساسا مريحا
 للحاضرين يقيهم من الشعور بأن هذه التجربة التي يمرون بها تجربة
 مزعجه . ويسعى كل عضو بالمجموعه نحو غرض واضح ، ومحدد ، ومن
 السهل ذكره : معالجة المريض بتحرير « واصله » من التأثيرات المثيرة
 للمتعاب ، ومطالب « والده » و « طفله » . ويتحقق هذا الغرض بتعليم
 كل عضو بالمجموعه ، كيف يعرف ويحدد ويصف « الوالد » و « الراشد »
 و « الطفل » كما يبدو كل منهم له من خلال المعاملات داخل المجموعه .
 وحيث ان السمة الأساسية للمجموعه تتركز في التعليم والتعلم والتحليل ،
 فان فاعلية المحلل النفسي تقوم على حماسته وقدرته كمدرّس واستعداده
 لمجاراة كل اتصال أو اشارة صادرة عن المجموعه ، سواء كانت لفظية
 أو بطريقة أخرى . ويظهر « الوالد » عند تنظيم المجموعه بطرق عديدة :
 هز اصبع السبابة ، رفع الحاجب ، زم الشفتين ، أو بعض العبارات مثل :
 « ألا توافق ؟ » أو « كل شخص يعرف أن ... » أو « يقولون ... »
 أو « بعد كل شيء ... » أو « سأعرف الحقيقة ولن تستطيع خداعي بعد
 ذلك أبدا » .

ويظهر « الطفل » أيضا بوسائل يسهل التعرف عليها مثل : البكاء ، والضحك ، والحياة ، وقضم الأظافر ، والعن ، والحركات العصبية ، والانسحاب ، والتكشير ، بالإضافة الى مجموعه العاب « الطفل » مثل : « انا مسكين » و « أليست رائعة » ، « عدنا لهذا من جديد !! » ويساند أعضاء المجموعة احساس « الطفل » بأنه ليس على مايرام ، الكامن في زميلهم . ونادرا ما يعملون الى تقيعه منلما يفعل « الوالد » . وهناك تمهيد تشجيعى مثل : « أستطيع رؤية أن - « طفلك » - قد أصبح ، فما سبب ذلك ؟ ، أو « هل تستطيع أن تذكر لى ما الذى استثار « طفلك » ؟ » .

ويبدأ المرضى سريعا فى استكمال المعلومات الخاصة « بالوالد » و « والراشد » و « الطفل » - فى كل منهم - من خلال العديد من المعاملات . وهذا هو تقييم المجموعة ، ليس بالنسبة للمعلومات التى دفنت مدة طويلة ، ولكن بالنسبة للبيانات التى تتكشف أمام أعينهم ، اليوم ، فى المعاملات التى يدخل فيها كل منهم . ان المجموعة تتالف من مشاركين لا من مراقبين يؤمنون ايمانا عميقا بما يقال لهم ويطلق عليهم اسم : فريق العلاج . ولكن القليل من المرضى هم الذين يستطيعون تحمل اسم فريق العلاج ، وقليل من الأطباء النفسيين هم الذين يستسيغونه لمرضاهم . يقول أفرود جاكوبسون ، مدير الطب النفسى بمرکز جيرس شور - ما يلى :

وتستمر العيادات على أية حال ، فى « تقييم » المرضى عن طريق الفريق الجماعى . وهذه عملية قاسية وطويلة بالنسبة للمريض ، تتطلب طقسا لجمع المعلومات بواسطة الباحث الاجتماعى [الذى ينقب فى خفايا النفس] ، والفحص بواسطة الطبيب النفسى الذى يساهم بالليل فى تكوين الانطباع الطبى للمحلل النفسى والوقت الذى يجب أن يقضيه فى اجتماع الانصات لجميع التقارير - التى جمت بعناية على مدى فترة تقدر بعدة شهور - يمكن أن يستفيد منه بقضائه فى الاتصال المباشر بالمريض .

ويشير الى دراسة سابقة عن احدى العيادات : اوضحت أن معظم وقت العيادة كان مخصصا للتركيز على تشخيص أمراض المرضى الذين لم يكن من المتوقع أن يأتوا للعلاج (٢) .

A. Jacobson, "A Critical Look at the Community Psychiatric Clinic," Supplement to The American Journal of Psychiatry, Vol. 124, No. 4 (October, 1967).

وفى الايام الأولى لاستخدام نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) كان بعض المرضى ياتون من الدخول فى مجموعة ، ويصرون على أساليب العلاج التقليدى ، اى انهم يأتون ليسردوا مشاكلهم بشكل خصوصى ، كما انهم لا يوضعون فى مجموعات على أساس التشابه فى الاعراض ، عن ذلك شىء بطريقة أو بأخرى . وقد تغير هذا الموقف كثيرا بسبب التقارير الطبية عن فعالية العلاج الجماعى . وفى الآونة الأخيرة يأتى الى مرضى بناء على نصيحة بعض المصادر الخارجية بالتزام العلاج الجماعى . أو يطلبون السماح لهم بدخول مجموعة لأنهم سمعوا عن مثل هذه المجموعة من صديق . ولا يتم اختيار أعضاء المجموعة حسب تصنيف التشخيص ، كما انهم لا يوضعون فى مجموعات على أساس التشابه فى الاعراض . ليس فقط لأن ذلك ضروريا ، بل للتخفيف من الاحساس بالاهانة التى يشعر بها المرء حينما يصنف كمرضى نفسى يعانى من عقدة معينة . وليس من المفيد وضع جميع مدمنى المسكرات ، أو جميع الشواذ جنسيا ، أو جميع المتسربين من التعليم ، فى مجموعة واحدة ، اذ قد يؤدي هذا الى ظهور نغمة واحدة « السنا كلنا فى الهواء سواء ؟ » مع نشاز واحد هو صوت الطبيب المعالج .

وعلى ذلك فان المجموعة قد تشمل كافة مستويات التشخيص بما فيها ذوى الذكاء المحدود ، وهؤلاء الذين عجزوا عن الاستمرار فى التعليم الرسمى . وقد استطاع الكثيرون من الأفراد الذين « تعلموا بمجهودهم الشخصى » أن يصبحوا محللين للمعاملات . وقد أتاحت الفرصة للعديد من مرضاى لرؤية مريض من المجموعة يدخل فى حالة نفسية حادة ويخرج منها (افساد الراشد) والتعبير الحر عن الأوهام العديدة (التى يياشرها « الطفل » القديم) ، وقد لاحظوا من خلال المجموعة واستمعوا الى مرضى كانوا يهذون فى هسائية بحوار (الوالد - الطفل) الذى يعتل فى المريض والذى وصفه بأنه آت من خارج ذاته . أما المرضى الذين تحرر « راشدهم » فلا تقلقهم هذه المظاهر الخاصة بالاضطراب العقل المرحل ، ويميلون الى أن يكونوا معاونين ، ومؤكدين ، ومحبين ، مع تجاهل ما هو غير عادى .

وتتقابل كل مجموعة من مرضى تحليل المعاملات الموجودين عندى اسبوعيا فيما عدا مجموعات المستشفى التى تتقابل يوميا . وعند انتهاء مدة البقاء فى المستشفى ، التى تقدر بنحو أسبوعين فى المتوسط ، يدخل المريض إحدى المجموعات فى مكتبى . وقد تعلم أعضاء المجموعة أن يكونوا حذرين بالنسبة ليل « الطفل » للمقارنة . « اننى أعلم أسرع منك »

أو « أنت أشد منى مرضا » . ولذلك يحس المرضى الجدد الذين يدخلون مجموعة من « قدامى المترندين » براحة البال ، ويتقدمون سريعا الى ممارسة تحليل المعاملات . أما تنظيم حضور المجموعة فهو مريح ، ويتيح الاستماع الواضح ، فكل شيء يمكن سماعه ، بما في ذلك صوت التثاؤب . وتحتل السبورة (التي تستعمل غالبا وفي كل جلسة لبيان الرسوم التوضيحية اللازمة للاستعادة الرمزية للتركيبيات المهمة) مكانا ظاهرا من الحجره .

ينطلق بعض الناس بمهارة الى تحديد « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » ، والأساليب التي تنخرط بها هذه العناصر في المعاملات الجارية ، بينما يحتاج البعض الآخر الى وقت أطول . أما هؤلاء الذين قد يبطئ العلم في الوصول اليهم ، فانهم يطورون الفراسة والبصيرة في الوقت المناسب ، بحيث تتركز مقاومتهم للتعلم في « الطفل » (ليس على مايرام) الذي يعمل تحت ستار حقيقة قديمة لم يكن الصغير قد سمح لنفسه خلالها بأن يفكر لذاته .

ان معرفة وجود حالة (ليس على مايرام) لدى « طفل » الفرد ، تمثل أول وأهم الخطوات في معرفة أساس السلوك ، وهذا يبين بداية التقييم الموضوعي لبناء شخصية الفرد . ان فهم هذا أكاديميا شيء ، أما الشيء الآخر فهو التعرف على هذه الحقيقة في الفرد . ان « الطفل » الذي ليس على مايرام قد يفقد فكرة طريقة ومثيرة في عين المريض الذي يتباهى بأن « طفله » الذي ليس على مايرام - حقيقة واقعة .

ويتصل مضمون معاملات المجموعة في الغالب بمشاكل الأعضاء في اليوم الحاضر . ان ما حدث بالأمس ، أو ما حدث في الأسبوع الماضي هو موضوع النقاش ، وليس ما حدث منذ زمن طويل . ويتعلم الأعضاء كيف يتمنون على « والدهم » و « راشدهم » و « طفلهم » لدى ظهورهم في معاملات الحاضر خاصة المعاملات التي في نطاق المجموعة نفسها . ويختلف هذا تماما عن نوعيات المعلومات التي نحسبها أحيانا وليدة أبحاث علم النفس . وفي حديث موجه للاتحاد الأمريكي لعلم النفس خلال شهر سبتمبر سنة ١٩٦٧ - أكد رئيس الاتحاد أهمية ماصلو أن زملاءه بصفة عامة يسرفون في حشد الحقائق « الثقافية » تحت زعم البحث العلمي . ورغم أن المعلومات التي يجمعونها مقلدة ، إلا أنها تنمو نحو السطحية ، وإلى أن تكون مجرد كومة من الحقائق الجزئية . . . ولكن العديد من علماء

النفس عاكفون على دراسة موضوعات أرقى مثل « ربح الدائرة الأيسر من مفلة بين شخص ما » (٣) .

ان القيمة النهائية للبحث بصرف النظر عن هيئته ، تتركز في المعلومات التي تتيح للناس أن يتغيروا . وسرعان ما يظهر من خلال المجموعة التغير الناتج في الأفراد كأن يبدأ « راشدهم ؟ في تحمل المسؤولية ، كما يظهر أيضا لأفراد الأسرة الآخرين . وقد يترتب على ذلك في الغالب عقبات معينة بالنسبة للشخص . لقد اشكى أحد الأزواج الذي كانت زوجته ضمن إحدى مجموعاتي قائلا : « ما الذي يدور في هذه المجموعة ؟ ان زوجتي تبدو أكثر سعادة ، ولكن حياتنا الزوجية في مهب الريح » . وفي مثل هذه القضية أدعو الزوج إلى جلسة منفردة لشرح مفاهيم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) والأفضل أن يدخل الزوج والزوجة معا في مجموعة للزوجين . ومن البديهي أنه اذا دخل فرد من الأسرة في مجموعة ، وبدأ يتغير ، فإن الأسرة كلها يجب أن تتغير لأن نموذج اللعبة قد انفرط عقده .

واذا كان أحد أفراد الأسرة على سبيل المثال هو « الشاة السوداء » ثم بدأ في الخروج على هذا الدور ، فإن أدوار الآخرين خاصة الصغار الذين ينتمون للأسرة ، قد ترتبك ، أو تنكس ، أو تنقلب . وهذا هو السبب في النتائج المتأخرة التي تتحقق عندما يشتمل العلاج النفسي الأسرة كلها . ان المقدم في مجموعات المراهقين التي عندي ، يدعو إلى اشتراك الأبوين أيضا في العلاج . ومن أهم الموضوعات التي تتركز مناقشتها في اجتماعات هذه المجموعات هو : « كيف تخرب العلاج النفسي ؟ » ان بعض الآباء يفتضون جهود العلاج دون معرفة لأنهم في الحقيقة لا يريدون أن يتخلوا عن علاقة (الوالد - الطفل) التي يحسون بأنها كانت « تعمل بصورة جيدة » في الماضي . ان موقفهم كمرکز قوة متهذب حيث ان المراهق يبدأ عمله في « الراشد » ، واذا لم يكن الأبوان متعادلين في قوة « الراشد » مع الابن ، فإن المعاملات ستتقاطع ، ويرى هذان الأبوان أن استقلالية صغارهم تهدد سلطانها عليه ، رغم انهما قد اقرا بحاجة ابنهما لهذه الاستقلالية وذلك قبل العلاج . وقد تبدو المتاعب العادية أكثر اجتلابا للراحة للأبوين الخائفين أكثر من المخاطرة بالثقة في « طفلهما » المراهق وهي الثقة اللازمة لكي يطور سيطرته الداخلية على نفسه . ويتم تشجيع أعضاء المجموعة على عرض علاقاتهم بطريقة مسئولة ومقيدة بالصبر . وبعض العلاقات تستمر

بفضل الألعاب . أما إيقاف اللعب فانه يعنى انتهاء العلاقة . ولا يعبر هذا دائما عن الحب أو يعكس الواقع . واذا كانت قد رتبت زيارات الجدة على مدى السنوات العشرين الماضية عن طريق مجموعة ألعاب « كم هو مرعب » ، فان وقف زيارات الجدة لا يعبر عن الحب ، لأنك لا تستطيع أن تمضى فى هذه اللعبة . وهناك اختيار أمام « الراشد » : أن يلعب أو لا يلعب ، أن يعدل اللعبة الى شئ أقل تلعبا ، أو يحاول أن ينفذ الى باطن الشئ ويشرحه للآخرين حتى يقلعوا عن تلك اللعبة ، ولكننا على أية حال بشر ، والبشر مصابون بهذا الداء (الألعاب) أيا كانت طبيعتها . واذا أردنا ألا يهزمنا الشر ، فعلينا أن نهزم الشر بالخير . ولن نستطيع أن نفعل ذلك اذا انسحبنا من كافة العلاقات التى تتضمن الألعاب .

وافضل أن نعود من وقت لآخر الى الاحتياطات الوقائية الكامنة فى نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) . ويحيط بى أثناء كتابة هذا الكلام صفوف من أرفف الكتب تثقلها مجلدات مكرسة لأساليب العلاج النفسى ، معظمها يسرف فى رواية حكايات مقبضة حول ما يسمى : « المرض العقلى » ، أو الشقاء الانسانى ، ويتبعها بأحدث المناقشات التقنية عن الأخطار المتضمنة فى العلاج النفسى . ان الكثير من تلك المتاعب النفسية يمكننا أن ندرجه ضمن إطار ما يسمى : « مشاكل التحويل والمقاسومة » التى تتركز فى التحليل النفسى . والكثير من هذه الكتابات يسهب فى شرح كيفية حماية الطبيب النفسى أكثر من كيفية معالجة المريض . واذا كان المحلل النفسى هو البطل فى التحليل النفسى ، فان المريض هو البطل فى أسلوب تحليل المعاملات الذى يتطوى على احتياطات (الوالد - الراشد - الطفل) الوقائية التى يتشارك فيها أعضاء المجموعة ، مع اللغة التى تشكل الأساس لعلاقة (مريض - مريض) وعلاقة (مريض - طبيب نفسى) حتى يتمكنوا من فحص ذواتهم وكافة مظاهر السلوك والمشاعر بصرف النظر عن طبيعتها . ويقوم الأعضاء فى فريق (الوالد - الراشد - الطفل) بدور كل من التأثير المقاوم والتأثير المساند - بالنسبة لكل منهم .

وفى تلك الجلسات تتلاشى صورة الطبيب المسيطر الجالس فى الركن المظلم مع مريضه الصغير المسكين المستلقى أمامه ، فكلاهما يأنف من الكتابة ، وكلاهما واع لأخطارها . ويسمح أحد بنود « عقد » مجموعة (الوالد - الراشد - الطفل) « للطفل » بالظهور ، كما يشجعه وذلك فى كل عضو من المجموعة بما فيهم الطبيب ، على الضحك . ان مجموعات (الوالد - الراشد - الطفل) تمتاز بخاصية الضحك ، وتتمتع بقدرة

عظيمة على مراعاة « الوالد » الذى يقضى فى النفس الانسانية بالفوائد والمثل ، بينما تبحث عن اجابات جديدة لمشاكلها مع « الراشد » المتنبه والواعى .

اذن فالخطر يتركز فى أن الطبيب لايعرف ، أو من ناحية هذا الامر فان أحدا لايعرف مايستطيع موقف (أنا لست على مايرام) لدى «الطفل» أن يفعله بالنسبة لحياة الشخص وحياة الآخرين الذين حوله . وعندما يعلن أحد أعضاء المجموعة : « لقد استشرت - « طفلى » - الذى ليس على مايرام عندما قلت ذلك » فان الطريق يفتح لفحص أحد أسرار وجودنا ، والذى سيبرهن ناتجه على أنه متزايد الفائدة لكل أعضاء المجموعة .

الفصل الثاني عشر

نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) والقيم الأخلاقية

(انتنى اعرض حل مشكلة التوتر القائم بين العلم والدين ، ليس عن طريق التجاهل او الازدواج ، بل عن طريق التوفيق - نيهار دو شاردان) .

انك تطلب من ابنك الذى عمره ست سنوات أن يخرج ويضرب ذلك الولد فى أنفه ؟ بنفس الطريقة التى ضربك بها ، فلماذا ؟

انت تسيّر ضمن مظاهره تعارض حرب فيتنام - لماذا ؟

انت تعطى عشر ايرادك للكنيسة . لماذا ؟

انت لاتخطر جهة الصرائب المختصة بالايادات الداخلية عن صديقك الحميم ، بالرغم من معرفتك أنه متهم بالتهرب من دفع ضرائب ضخمة . لماذا ؟

انت تتحمل مسئولية خطأ أحد الموظفين . لماذا ؟

انت تؤيد اصدار قوانين عادلة للاسكان . ولكنك تنسى أن تدلى بصوتك . لماذا ؟

انت تطلب من ابنتك أن تكف عن مصاحبة صديقة معينة تنحدر من بيت مشبوه . لماذا ؟

انت لا تشئ بزميل سيئ الخلق ، حتى وأنت تعرف أنه يعرض الناس للضرر ، لماذا ؟

ان الناس يتخذون كل يوم قرارات من هذا النوع ، وهي كلها قرارات أخلاقية ، أو قرارات تتعلق بالصواب والخطأ - فمن أين تأتي البيانات التي تسجل في صنع هذه القرارات ؟ إنها تأتي من « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » - انك بعد أن تفحص كافة بيانات « والدك » وتحفظ ببعض بينما ترفض البعض الآخر ، فماذا تفعل إذا لم تشعر بأن لديك المؤشرات الضرورية لاتخاذ القرار ؟ هل تتنازل ؟ وإذا كان لديك « راشد » متحرر - فماذا تفعل به ؟ أما من جهة الأسئلة الأخلاقية ، فهل تستطيع أن تفهم الأشياء بنفسك ؟ أم تذهب لسؤال « المختص » ؟ هل نستطيع جميعا أن نحض على التمسك بالأخلاق ؟ أم أن ذلك يقتصر على الأذكياء والعقلاء من الناس ؟

وإذا افترضنا لنا أننا لا نتصرف كما يجب ، فإلى أين نذهب لطلب المعلومات الجديدة ؟ أين هي مواضع القصور لدينا ؟ وإلى نوعيات الحقيقة يستطيع « الراشد » أن يفحصها ؟

ان الحقيقة هي أكثر أدوات العلاج أهمية لدينا ، أما ما نفهمه من دراسة التاريخ وملاحظة الانسان ، فهو أيضا حقيقة نستخدمها كأداة نبني بها نظاما أخلاقيا ساري المفعول - ولن نكون منطقيين إذا سلمنا بأن الحقيقة الوحيدة عن الانسان ، موجودة ضمن خبرتنا الشخصية أو فهمنا الذاتي - ان الحقيقة لدى بعض الناس أوسع مفهوما عنها لدى البعض الآخر ، لأنهم رأوا أكثر ، وعاشوا أكثر ، وقرأوا أكثر ، وفحصوا أكثر ، وفكروا أكثر ، أو لأن حقيقتهم ببساطة تختلف عن حقيقة غيرهم .

ان حاجتنا للاهتمام الى الاتجاه في رحلتنا خلال الحياة تشبه المشكلة الملاحية بالنسبة لقائد الطائرة - كان الطيارون في الأيام الأولى للطيران يطيرون « حسب سرعة الحركة » معتمدين على الرؤية ، مع مقارنة ما يشاهدونه من المعالم الأرضية : الأنهار ، والجداول المائية ، وخطوط السكك الحديدية ، والمدن - بالخرائط التي ينشرونها أمامهم - وبالطبع فإن هذا الأسلوب لم يكن جديرا بالاعتماد عليه عند تدهور الرؤية ، ولو لمسة قصيرة ، ولذلك اخترعت أجهزة الارشاد الملاحي « لتحديد الاتجاه بالنسبة لموقعين (هذان الموقعان هما محطات الانارة اللاسلكية تطلق كل منهما إشارة تبين للطيار المسار الذي تتخذه طائرته بالنسبة للمحطة) ثم يرسم المسارين في شكل شعاعين على الخريطة التي أمامه ويحدد تقاطع الشعاعين موقع الطائرة - أما إذا حدد موقعه بالنسبة لاتجاه واحد (من إحدى المحطتين فقط) فلن يجد موقعه - قد يكتشف أنه يطير فوق خط

الاستواء ولكن على أى جزء من خط الاستواء ؟ كان عليه أن ينظر فى انجاء آخر (الشماع القادم من المحطة الثانية) بحثا عن المعلومات التى تجيب عن هذا السؤال (١) .

اننى أشعر بأن الكثيرين من الأطباء النفسيين يذنبون فى ممارسة العلاج حينما يسرون به « فى اتجاه واحد » بحيث يخصصون كل وقتهم للنظر فى حقيقة واحدة فقط هى - التاريخ الماضى للمريض - ماذا فعل ؟ - ويتجاهلون فحص نوعيات الحقيقة التى ربما تساعده فى فهم ما يجب أن عمله .

ويتضاءل رصيدنا من البيانات اذا اعتقدنا أن حقائق صحتنا العقلية لاتنبع الا من حالات معينة مثل أن نقول : « أنا كذا وكذا وكذا ، لأننى عندما كنت فى سن الثالثة ، ضربت أمى أبى يطبق فى ليلة عيد الميلاد » . ويذكرنى هذا اللون من الحقائق فى كهوف الذاكرة بقصة هـ . ألن سميت عن بنت صغيرة كتبت مذكرة شكر لجدتها لأنها أعطتها كتابا عن طائر البطريق بمناسبة عيد الميلاد فقالت : « جدتى العزيزة ، أشكرك كثيرا جدا من أجل الكتاب اللطيف الذى أرسلته لى بمناسبة عيد الميلاد » . وهذا الكتاب يمدنى عن طائر البطريق ، بمعلومات أكثر من حاجتى ، .

ونستطيع أن نقضى حياتنا فى التنقيب خلال آكفان التجارب الماضية، كما لو كان ذلك هو المكان الوحيد الذى تمش فيه الحقيقة ، ونتجاهل دائما الحقائق القهرية الأخرى ، مثل حقيقة الحاجة الى وجود نظام للتقييم الأخلاقية .

لقد رأى الكثير من علماء النفس أن ارساء أحكام خاصة بالقيمة هو انحراف شنيع عن الأسلوب العلمى ، يتحتم تجنبه مهما كانت التكلفة . ويصر بعضهم على أن البحث العلمى لايمكن تطبيقه على هذا المجال « انه حكم قيميى » ، ولذلك لانستطيع أن نفحصه . « انه فى مجال المقائد » ، ولذلك فاننا لانستطيع أن نجعم بيانات صادقة ، ولكنهم ينسون أن المنهج

(١) الأسلوب الذى أشار المؤلف الى انه كان مستعملا فى الأيام الأولى للطيران هو الطيران حسب قواعد الرؤية VFR ولا يزال مستخدما حتى اليوم لمثل الرحلات القصيرة التى تقطعها الطائرات الصغيرة . أما أجهزة الارشاد للملاحى التى أشار اليها فى محطات للـ VOR . وقد تعددت نوعيات أجهزة الارشاد للملاحى حاليا واتسعت خدماتها لتأمين سلامة الطائرة فى كل لحظة من لحظات طيران الطائرة - انظر كتابنا : الطيران للدنى والسلام العالى - نشرته الهيئة العامة للكتاب ضمن سلسلة : المكتبة الثقافية - (لترجم) .

العلمى نفسه يعتمد تماما على قيمة أخلاقية - هى الثقة فى هؤلاء الذين يكتبون التقارير عن الملاحظة العلمية - لماذا يذكر العالم الحقيقة ؟ لأنه يستطيع أن يثبت ذلك فى العمل - لقد خصص ناثانييل براندن ورقة لبحث المشكلة الجديدة التى رفعها هؤلاء الذين يرون أنه ليس للعلماء أن يشغلوا أنفسهم بالقيم الأخلاقية - قال فيها :

من أهم القضايا المحورية فى علم النفس ، قضية أو مشكلة الحافز .
 أساس العلم هو الإجابة عن سؤالين أساسيين هما : لماذا يفعل الرجل ما يفعله ؟ وما الذى يحتاجه الرجل لكي يتصرف بطريقة مختلفة ؟ ويدرس مفتاح الحافز فى نطاق القيم ، أن مسألة علم النفس اليوم هى أن العلماء يتناصبون عن مناقشة قضية القيم بوجه خاص ، ولكن من الخطأ أن نعتقد أن مجرد استحضار المشاكل فى الشعور المترك يضمن أن المرضى سيحلونها ، لأن الأجوبة على المشاكل الأخلاقية ليست واضحة فى حد ذاتها . أنها تحتاج إلى عملية يشترك فيها الفكر الفلسفى مع التحليل ، وكذلك فإن العلاج النفسى الفعال يحتاج إلى ميثاق أخلاقى ، واع ، ومنطقى ، وعلمى - نظام للقيم مؤسس على حقائق الواقع ومناسب لمتطلبات حياة الإنسان على الأرض . (٢) :

أن براندن يحمل أطباء وعلماء النفس مسئولية أخلاقية جسيمة إذا أعلنوا أن « القضايا الفلسفية والأخلاقية لا تهمهم » وأن العلم لا يستطيع أن ينطق بأحكام تقييمية ؛ وأيضاً إذا لم يبالوا بالتزاماتهم المهنية بحجة عدم إمكانية إصدار ميثاق أخلاقى عقلانى . ومع صمتهم فإنهم يحكمون على حلهم هذا بالموت الروحى .

ما هو الميثاق الأخلاقى العقلانى ؟ :

إن الجواب الطبيعى لكل هذا السؤال هو : « إذا عاش كل إنسان حسب القاعدة الذهبية فإن كل شيء سيكون طيباً » ويمكن عدم كفاية هذا الجواب فى حقيقة أن ما تفعله للآخرين ، حتى إذا كان هو نفس ما ننتظر منهم أن يفعلوه لنا ، قد يكون مدمراً . أن الشخص الذى يحاول أن يحل

(٢) عن محاضرة ألقاها
 Psychotherapy and Objective Ethics :
 Nathaniel Branden
 ستوان
 أى : العلاج النفسى والأخلاقيات
 الموضوعية - فرع علم النفس بالجسدية الطبية لجامعة سان ماتييو - ٢٤ يناير سنة ١٩٦٦ .

مشكلة (لست على مايرام) بممارسة لعبة « اركلنى » القاضية باستموار ، لا يصنع معروفا حينما يفرض هذا الدل على غيره . ان القاعدة الذهبية ليست مرشدا كافيا ، ليس لأن مفهومها المنالى خطأ ، ولكن لان غالبية الناس لا يوجبده لديهم المعلومات الكافية حول ما يريدونه لانفسهم ، أو لماذا يريدونه ؟ انهم لا يعرفون موقف (أنا لست على مايرام وأنت لست على مايرام) وغير مدركين لغزى اللعبات التى يلعبونها للتخفيف من أعبائهم النفسية . ان من بين مهام « الراشد » المتحرر أن يفحص « الوالد » حتى يمكنه قبول بياناته أو رفضها ، وأن يسأل : « هل هناك شئ يستحق الانقاذ من تلك البيانات ؟ » ومن الواضح أن معظم معلومات « الوالد » يمكن الاعتماد عليها ، فتقافتنا قد انتقلت من خلال « الوالد » ، ويذكر عالم الأنثروبولوجيا رالف لينتون أنه « بدون وجود الثقافة التى تحفظ مكاسب الماضى ، وتشكل كل جيل تال حسب النماذج التى تقدمها ، فإن الجنس البشرى لن يتميز على أدنى أنواع القردة ، الا باختلاف طفيف فى البنية البدنية ، وتفوق قليل فى الذكاء ، وكان سيصبح صنوا للشيمبانزى أو الغوريلا (٣) » .

وعلى ذلك يمكن اعتبار أن القيم الأخلاقية تظهر أولا فى « الوالد » . ونحن ننظر الى كلمتى « يجب » و « يلزم » على أنهما صادراكان عن « الوالد » . والسؤال الرئيسى فى هذا الفصل هو : هل يمكن لكلمتى « يجب » و « يلزم » أن تصدرا عن « الراشد » ؟

هل من الممكن الاتفاق على القيم الأخلاقية :

هل توجد قيم أخلاقية ايجابية تصدق على جميع الناس ، أم يجب علينا أن تبنى شخصيتنا وأخلاقياتنا الراهنة ؟ ويعلق فيكتور فرانكل على اليأس المتفشى هذه الأيام بين الشباب الذين يجدون أنفسهم حسب قوله : فى فراغ وجودى ، يكون فيه كل فرد هو محور عالمه الخاص ، وحيث يتفشى انكار وجود أية التزامات تأتى من خارج ذاته (٤) وتعتبر كل الأخلاقيات فى هذا النوع معايير ذاتية . ولو صح هذا لكان علينا أن نقر اذن بأنه يوجد فى العالم ستة بلايين نظام أخلاقى بقدر عدد سكان

R. Linton, "The Study of Man", (New York : Appleton — Century — Crofts. 1936). (٣)

(٤) محاضرة للأستاذ V. Frankl بجامعة ولاية ساكرامنتو يوم ٥ مايو ١٩٦٦ .

الكرة الأرضية الذين يسير كل منهم حسب هواه ، منكرًا وجود أية مبادئ موضوعية تحكم صلة الانتماء بين الناس ، ولكن الحقيقة هي أن البحث عن هذه المبادئ الأخلاقية الموضوعية مع الرغبة في الانتماء إنما يشكل واقعا عالميا ، ويمكن الاحساس به أيضا كواقع شخصي وتجريبي . والحقيقة هي أن الناس لا يستطيعون ولا يريدون أن يعيشوا دون انتماء إلى الآخرين . أن بعض الأشخاص الذين اعتادوا ادعاء عقار الهلوسة LSD يؤسسون اعتيادهم هذا على ما يسمونه : تسامي التجربة الخاصة بالهلوسة ، التي يكتشفون عن طريقها جوهرًا عامًا يربط جميع الناس معا ، بالرغم من أن وسيلتهم للتسامي قد تكون موضع خلاف .

وعلينا أن نأخذ في الاعتبار هذه الرغبة في الانتماء ، وطاقة الشعور بالاندماج في الواحد ، ونمو العقل البشري إلى الحد الذي به نفهم ونشعر وتقبل التسليم بأن البشرية عليها التزامات نحو بعضها البعض بسبب انتمائها إلى بعضها البعض .

والرغبة في الانتماء واقع ، حتى إذا لم يكن من السهل التوصل إلى المبادئ التي تحكم هذا الانتماء بأسلوب تجريبي . ولكن كما يقول ترويلاند فإن المناقشات الحادة حول الموضوعية الأخلاقية لا تجري حسب منهج تجريبي ، ولكنها جدلية دائما فيقول : « عندما نتدبر هذا متذكرين أن النسبية الذاتية يمكن أن تتردى حتى تصل إلى مرحلة اللا معقول ، فسنؤمن حتما بوجود نظام أخلاقي حتى وإن غاب عن أذهاننا مفزاه خلال فترة ما أو في ثقافة ما . ولكن ماذا نعني بالنظام الأخلاقي الموضوعي ؟ » إنما نقصد به الحقيقة التي يمكن الاستمانة بها لتحديد تورط المرء في الخطأ حينما ينحو إلى اختيار أخلاقي زائف سواء في سلوكه أو في حكمه على الآخرين .

ونخلص من هذا إلى وجود مثل ذلك النظام الأخلاقي الذي يتطلبه المنطق الجدلي . وأهم من وجوده هو التعرف بدقة أو حتى بالتقريب على طبيعة المتطلبات الأخلاقية ، واختلاف الناس حول المعايير الأخلاقية لايسوغ لنا التغلغل عن محاولة اكتشاف السلوك الذي ينبغي أن نتخذه (٥) .

هؤلاء الذين يرفضون فكرة وجود نظام أخلاقي موضوعي ، أو عالمي « ملزم » فيجب عليهم النظر في المصاعب التي تنبثق عن هذا

(٥). Elton Trueblood, "General Philosophy, (New York : Harper, 1936).

الرفض . لقد رفض الوجوديون هذا المفهوم . وزعم سارتر أن الانسان يخلق ماهيته الانسانية خلال سلسلة من الاختيارات ، ومن الأفعال التي تميزه . وذكر أن الانسان يضع بأفعاله تعريفة للانسان ، أي أنه يصنع وجوده الانساني فالانسان يسبق جوهره الانساني ولا يخلق فقط جوهره الانساني ، ولكنه يخلق في نفس الوقت الكرامة الانسانية بأسرها . انه يستطيع أن يختار فقط ما ينفعه ، ولكن ما ينفعه . يجب أن ينفع كل الناس . ويذكرنا جوزيف كوليچنوف بأن هناك وجها آخر للعملة - فيقول :

لذلك يجب على الانسان أن يتحمل مسؤولية كل فعل . ليس فقط لمصلحته بل لمصلحة جميع الناس . وليس ذلك بدون سبب . ولذلك يجد سارتر أن « الألم ، والاستسلام ، واليأس » هي من نصيبه ، ونصيب كل شخص موجود ، لأنه اذا لم يجد المرء شخصا يركن اليه ، أو عقيدة تساعد حينما يكون عليه أن يتخذ قرارا (يتصل بالآخرين) ، فإن الانسان سرعان ما يتخيل اليأس في طيات مثل هذه الفلسفة ... وتجد الوجودية تعاطفا بين الشباب الذين يجدون نشوة غامرة في الفن بأن العالم لامعقول ، لأن ذلك يعطيهم احساسا بالتفوق على النظام القائم ، والسيطرة على انفسهم . ان العالم بالنسبة لهم يتجرد من وحدته الفلسفية المعدة سلفا وفق نظام معين ، فينفسح امامهم للعمل لكي يضعوا صورة للكرامة الانسانية وحتى وان كانت خاصة بهم وحدهم . ومنذ عام ، اقيمت محاضرة عن الوجودية ، ووجدت العديد من الطلبة قد استقبلوا هذه الفلسفة بحماس حار . وقد قوطعت المحاضرة بسماع الخبر المزعج عن موت الرئيس كيندي . وخلال الصمت المذهل الذي قل ذلك ، سمعت صوتا نائرا ومتهورا وعاليا - يقول : « كان ذلك عملا وجوديا متكاملا » . وبالرغم من أن بقية الطلبة قد دعوه الى الهدوء بعبارات قاطعة فقد انخرط الكثير منهم في البكاء . نعم ، لقد كان ذلك عملا وجوديا كاملا ولا يمكن الجدل في ذلك ، فقيام المرء بتصرف فردي تابع من ذاته أمر رائج ، ولكن من يستطيع أن يتحكم في عملية اغتيال تابعة من ارادة حرة ، وموجهة ضد رئيس شاب اغنى زهرة شبابه في خيمة بلاده ؟ ان عملية الاغتيال يمكن أن تكون تجربة رائعة نافعة للشباب لي لووالده في ممارسته الحرة لارادته ، ولكن ما وقعها على الآخرين مسوؤه في الولايات المتحدة او في غيرها من بلدان العالم ؟ ...

وإذا لم يوجد « التزام » أخلاقي عالمي ، فلا يمكن القول بأن ألبرت شفيترز (٦) كان رجلاً أفضل من أدولف هتلر . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فإن الملاحظة الوحيدة التي علينا أن نأخذ بها ، هي أن ألبرت شفيترز قد عمل كذا وكذا ، وأن أدولف هتلر قد عمل كذا وكذا ، وحتى لو أننا كتبنا ملحوظات قالية تفيد بأن ألبرت شفيترز قد أنقذ العديد من الأرواح بينما تسبب أدولف هتلر في إزهاق أرواح الملايين من الناس ، فإن نرى ذلك إلا مجرد إشارات إحصائية على صفحة التاريخ ، ونواجه أي تفكير أخلاقي ينحو إلى تعديل السلوك الانساني . وبعد كل شيء فإن قيمة الناس أو الأشخاص لا يمكن تقديم دليل علمي عليها . لقد ظن ألبرت شفيترز أنه على حق ، كما ظن أدولف هتلر أنه على حق . أما القول بأن كلا منهما على حق ، فإنه يمثل تناقضاً واضحاً . ولكن ما هو المقياس الذي نحدد به أيهما كان على حق ؟

قيمة الأشخاص :

أرى أن التمهيد المنطقي لهذا النظام الأخلاقي الموضوعي ، أو المعبر عن الحقيقة النهائية ، يتمثل في أن أهمية الفرد تنبع من ارتباطه بالآخرين على اهتمام عالمي يتجاوز وجودهم الشخصي . هل هذا اقتراح منطقي ؟ إن مفهوم الصعوبات النسبية سيساعدنا كثيراً عند الإجابة عن هذا السؤال ، فمن الصعب الاعتقاد بأهمية الأفراد ، كما أنه من الصعب أيضاً الاعتقاد بأنهم ليسوا مهمين . إن إنكار أهمية البشر يبطل كل جهد نبذله لصالحهم . ولماذا كل هذا اللغط حول الملاج النفسي إذا لم تكن هناك أهمية للأشخاص ؟ إن فكرة أهمية الإنسان هي فكرة أخلاقية بغض النظر عن جدوى أي من الأنظمة المتعلقة بفهم الإنسان ، ولكننا لا نستطيع التبدليل على هذه الأهمية باستخدام المقياس المنطقي . إن التاريخ قديم وحديثه ، بكل ما يفيض به من روايات عن إبادة البشر وإنزال صنوف الهوان بهم ، يبدو على العكس من ذلك ، أنه يجعلنا نتأكد من أن الكائنات البشرية ليست بذات قيمة كبيرة . ولو لم يكن هناك اتجاه أو تخطيط لمسار البشرية لكان مولد تلك البلايين من البشر وموتهم وعذاباتهم شيئاً من اللعب ، لا تجدى معه جهودنا المبذولة لفهم عقلية الإنسان ، وتغيير السلوك الانساني . اننا لا نستطيع تقديم الدليل على أهمية هذه الجهود ، ولكننا نؤمن بضرورتها ، لأنه من الصعب أن نعتقد في غير ذلك .

(٦) طبيب من منطقة الألزاس التي تنازعها فرنسا وألمانيا ، كرس حياته لخدمة الأفيقيين البسطاء - للترجم

وقد كتب تيار دو شاردان قائلا : « سيستمر الانسان في البحث ، طالما لم تخمد في نفسه جذوة الاهتمام بما حوله ، وهذا الاهتمام يعتمد على الايمان الذي لا يستطيع العلم أن يدلل على صحته . انه الايمان بأن العالم يخضع لتوجيه محدد (V) . ولن نكون علماء شرفاء اذا تجاهلنا حقيقة أن « جذوة الاهتمام » هذه قد استمرت خلال تاريخ الانسان ، رغم المذابح وعصور الظلام والحروب ومعسكرات الاعتقال . قد نؤمن بأن العالم يخضع لتوجيه محدد ، وقد لا نؤمن بذلك ، ولكننا لانستطيع - كعقلاء - أن نتجاهل حقيقة أن مسألة أهمية الانسان ، كانت دائما لغزا فلسفيا ملحا . واذا لم نستطع تقديم البرهان على أهمية الأشخاص ، أو تقديم سبب معقول يبرر تجاهل هذه القضية والتفكير فيها ، فماذا نفعل ؟ ان كل ثقافة تختلف في تقديرها لقيمة الأشخاص ، وتنتقل المعلومات الخاصة بذلك عن طريق « الوالد » ولذلك ليس أمامنا من سبيل سوى الاعتماد على « الوالد » للوصول الى أي اتفاق حول قيمة الأشخاص . وفي العديد من الثقافات بما فيها الثقافة الأمريكية ، نجد أن « الوالد » يسمح بالقتل ، وعلى ذلك فإن قيمة الأشخاص مشروطة . وفي الحرب يباح القتل ، ونجد كذلك أن عقوبة الاعدام شرعية في العديد من الأقطار . وقد مارست العديد من الثقافات المبكرة وأد الأطفال ، متملئين بحجة الإبقاء على أفضل الأجناس . وهناك العديد من الروايات عن وأد الأطفال حتى في خلال القرن العشرين ، فعلى سبيل المثال يوجد بين قبائل التانالا Tanala في مدغشقر فئتان من الناس مختلفتان في لون الجلد اختلافا ملحوظا ، بالرغم من أنهما تظهران شديديتي التماثل في بقية خصائصهما البدنية ، وهما متماثلتان تقريبا في الثقافة واللغة ، وهاتان الفئتان تعرفان باسمين اصطلاحيين هما : العشيرة الحمراء ، والعشيرة السوداء . والأفراد الماديون من العشيرة الحمراء لون جلدهم بني فاتح ، أما الأفراد الماديون من العشيرة السوداء فإن لونهم بني غامق جدا . واذا ولد للعشيرة الحمراء طفل أسود اللون فلا منازع في انتماؤه اليها ، فانهم يعتقدون أنه عندما يكبر اما أن يصبح ساحرا أو لصا أو يرتكب جريمة الزنا مع المحارم (ذوى القرابة) أو يصاب بالبرص ، ولذلك فانهم يحكمون عليه بالموت (A) ، وهذه العقيدة عن قيمة « هذا النوع من البشر » تنتقل من جيل الى جيل من خلال « الوالد » . ان « الوالد » الثقافي لغالبية البلدان الغربية لا يوافق على ذلك ، ولكنه

Pierre Teilhard de Chardin, "The Phenomenon of Man", (New York : Harper, 1959). (V)

Ralph Linton, "The Study of Man" (A)

يوافق على التسامح في أشكال أخرى من التفرقة التي قد تنتهي كذلك بالموت . اننا لانستطيع أيضا الاعتماد على « الطفل » في التوصل إلى اتفاق حول قيمة للبشر ، فان « الطفل » الموصد بسبب موقفه الذي ليس على مايرام ، ليست لديه سوى معلومات ايجابية قليلة عن قيمته الذاتية ، فما بالنسبة لقيمة الآخرين : « والطفل » في أي ثقافة ، اذا أثر بما فيه الكفاية ، قد ينفجر في ثورة قاتلة ، أو يقتل نفسه ، وربما يقترب جريمة قتل جماعي .

« الراشد » المتحرر فقط ، هو الذي يستطيع أن يصل إلى اتفاق مع « الراشد » المتحرر في الآخرين ، حول قيمة الأشخاص . ونستطيع أن نرى كيف أن كلمات مثل : « الضمير » ليست كافية . علينا أن نساءل : « ما هو هذا الصوت الهامس في داخلنا ؟ ما هو هذا الضمير الذي نعيش به ؟ وهل ينسب إلى « الوالد » أم « الراشد » أم « الطفل » ؟ ان برتراند راسل الذي يأبى أن يدع عقيدة جامدة تستقر على وجودها ، يقول : « ان هذا الصوت الداخلي ، تلك الهبة الربانية قد ترك ماري الشريرة تحرق البروتستانت ، فهل هذا هو الذي يتحتم علينا نحن الكائنات العاقلة أن نتبعه ؟ اظن أن هذه فكرة مجنونة ، وأنا احاول أن أتبع المنطق بقدر الاستطاعة » .

أنا مهم ، وأنت مهم :

ان « الراشد » هو الجزء الوحيد منا الذي يستطيع أن يختار النطق بمباراة (أنا مهم ، وأنت مهم) . ان « الوالد » و « الطفل » ليسا متحررين لكي يقصدا على هذا القول ، لأنهما أسيرا أغلال ماشاهدا وتلقيا من تعليمات في الحضارة التي ينتمى لها الشخص ، ومن ناحية أخرى هما مكبلان بما أحساه من مشاعر وما استوعباه من مفاهيم (٩) .

وتصريح « الراشد » بأن الأشخاص ذوي أهمية ، يختلف تماما عن العبارة التي ذكرتها امرأة مريضة عندما قالت وهي تكور قبضتيها بشدة : « اننى أحب الناس » . وهذا التعبير المختلف جاء عن طريق « طفلها » الذي فرض عليه التكيف مع موقف ما . « الآن اذهبي يا حبيبتي ،

B. Russell, "The Autobiography of Bertrand Russell", (Boston : Little Brown, 1967). (٩)

وقيل العلة ائيل ! » وهذه العجبية التي عمرها أربع سنوات انما تفعل ذلك أداء للواجب ، حتى لو كانت العلة ائيل تسبب لها الانزعاج ، ولكنها تؤدي ذلك ، وتوضحه قائلة : « اننى أحب العلة ائيل » ، ثم ترفع من قدرها قائلة : « اننى أحب الناس » ، وهي لاتزال تجمع قبضتها .

وعلينا جميعا أن نفحص النسخ الخاصة بنا من عبارة « اننى أحب الناس » لنفهم حقيقة شعورنا ، ومن أين تأتي هذه المعلومات . ان أغلبنا يمتسك بمعتقدات معينة ، ولكنها ناتجة في الغالب عن قبول « الطفل » ما لقنه له « الوالد » ، أكثر من كونها استنتاجات عن طريق « الراشد » ، على أساس القدر الهادف من المعلومات التي يحتفظ بها .

وعلى العكس ، فإن اقتراب « الراشد » من تحديد قيمة الأشخاص ، انما يتم باتباع هذه الخطوط :

اننى انسان ، وأنت انسان ، وبدونك لا أكون انسانا ، لأن اللغة تصبح ممكنة من خلالك ، ومن خلال اللغة فقط يصبح التفكير ممكنا ، ومن خلال التفكير فقط تصبح الانسانية ممكنة . انك جعلتني مهيا ، ولذلك أنا مهم - وأنت مهم ، فإذا قللت من قدرك ، فاننى أقلل من قدر نفسى . وهذا هو الأساس المنطقى لموقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) ، ومن خلال هذا الموقف فقط نشعر بأننا أشخاص ولنا أشياء . ان إعادة الانسان الى الاحساس بانتمائه الى الآخرين ، هى نفسها فكرة الخلاص ، أو الصلح ، أو الامتنارة ، التى تتمحور حولها كافة أديان العالم . والحاجة الى هذا الموقف تتركز فى أن كلا منا مسئول عن الآخر ، وهذه المسئولية هى المطلب النهائى الذى فرض على جميع الناس بالتساوى ، وعلى ذلك فإن أول استنتاج نستطيع أن نخلص اليه هو : لا يقتل أحدكم الآخر .

هل هى طريقة مجدية ؟ :

فى ظهر أحد الأيام واجهنى زميل فى موقف سيارات الأطباء ، وقال مازحاً : « اذا كنت أنا على مايرام - وأنت على مايرام ، فلماذا تغلق سيارتك ؟ » .

وكذلك فإن مشكلة الشر أيضا حقيقة فى العالم . وفى مواجهة كافة الشرور التى تراها سيظهر هذا الموقف الرابع (أنا على مايرام - وأنت

على مايرام) بوصفه حلما مستحيلا ، ربما لأن حضارتنا تتجه بسرعة نحو مواجهة مع الشر لا سابقة لها ، وعلينا اما أن نحترم كل منا وجود الآخر ، أو تهلك كلنا . وقد نقول ، حتى ولو بدا قولنا غريبا ، انه من العار أن يدمر الانسان في لحظة ما بناء في قرون .

اما تيهار ، الذي تملكه الدهشة حينما يتكشف له أن العالم يسير في عملية تطور ترتقي به ، فانه ينهى كتابه العظيم : الظاهرة التي تسمى الانسان The Phenomenon of Man - بتعليق مثير ، وهو يتأمل الشر الذي في العالم ، فيتساءل في دهشة : « ألا نتم ألوان الشقاء والفشل والحسرات والدموع والدماء عن جنوح في مسار الطبيعة يستحيل علينا فهمه ، اذا لم نضف الى تأثير التطور ، تأثيرا هائلا نابعا من كارثة أو انحراف ما حدث في بدء الخليقة ؟ ، وهل نمثل نحن خطأ في التطور ؟ أم هل تنبئ اللحظات البراقة في تطور الانسان عن مستقبل أكثر اشراقا ؟

ويتحدث تيهار عن هذه اللحظة التي انعكس فيها حال الانسان الأول حينما عرف عن نفسه أنه « طفرة من الصفر الى كل شيء » .

ربما كنا نقترّب من نقطة أخرى ذات معنى حيث تدفعنا ضرورة حفظ الذات الى معاناة طفرة أخرى ، وستكون قادرين على القفز مرة أخرى ، لكي نفكر (والأمل يحدونا بعد أن تكشفت لنا حقيقة تكويننا ، ويردد كل منا « أنا مهم - وأنت مهم » ، (أنا على مايرام - وأنت على مايرام) .

انني أعتقد أن تحليل المعاملات قد يقدم نبوءة عن مصير الانسان ورغم أن هذا القول يبدو أقرب الى الحس منه الى الواقع ، الا انني أستمد جراتي على تقديم تلك النبوءة من الرؤية التي طرحها ج . روبرت أوينهايمر والتي تستشرف قيام حوار عام وتفاعل مستمر بين دنيا البشر بعمومها ، والفنانين ، والفلاحين ، والمحامين ، والقادة السياسيين ، وقد كتب سنة ١٩٤٧ قائلا : « ... ونظرا لأن معظم العلماء ، مثلهم مثل كل الدارسين ، ينحون الى القيام بدور المدرسين ، فانهم يتحملون مسؤولية توصيل الحقائق التي اهتموا اليها » .

وقد بين في وجهة نظره التي عبر عنها سنة ١٩٦٠ ، أن الناس الذين يتمتعون بمكانة عقلية رفيعة ، يجب أن يساهموا في الثقافة العامة ، ليدور الحديث ، ليس عن حقائق الطبيعة فقط ، ولكن عن طبيعة المآزق الانساني ، وعن وضع الانسان ، وعن القانون ، وعن الخير والشر ، وعن

الأخلاقيات ، وعن الفضيلة السياسية ، وعن السياسة (١٠) . انسا
نتحمل مسئولية تطبيق اكتشافاتنا التي توصلنا اليها من مراقبة المعاملات
بين الأشخاص ، على المشكلة الأوسع وهي مشكلة المحافظة على الجنس
البشرى (٩) .

ما هو العلاج النفسي باستخدام الواقع :

ذكرت في هذا الفصل مبكرا أن الحقيقة هي أعظم أدوات العلاج
أهمية . ومضيت في مناقشة عدد من الحقائق . وفي ختام هذا الفصل أود
أن أعتقد في ايجاز مقارنة بين تحليل المعاملات ، والعلاج النفسي باستخدام
الواقع الذي طوره الدكتور وليم جلاسر (١١) .

يتمسك جلاسر بأن مشكلة الانسان الأساسية هي الأخلاقيات بمعنى
أن الإحساس بالمسئولية هو ما تحتاجه الصحة العقلية .

واعتقد أن كلا المداخلين وهما : تحليل المعاملات ، والعلاج النفسي
باستخدام الواقع ، يمكن اعتبارهما انتصارا جديدا في العلاج النفسي -
بعد أن سئم العلماء تلك الأنماط العلاجية والطبية التي تبعد الأخلاقيات
عن بؤرة العلاج .

وهو يرى من أسلوب تحليل المعاملات ، والعلاج النفسي باستخدام
الواقع ، أن الناس مسئولون عن سلوكهم . غير أن هناك فارقا هاما ،
فأنا لا أوافق جلاسر على انكاره العمومي لأهمية الماضي في فهم سلوك
الحاضر ، ولئن كنت لا أؤمن بلعبة نبش الماضي ، إلا أنني لا أستطيع أن
أتجاهله كل التجاهل ، فالرجل الذي يتجاهل ماضيه يشبه - من وجهة
نظري - شخصا يقف تحت المطر ، يتجادل حول البلل ، وهو غارق فيه .
أن مطالبة المريض بضرورة أن يكون مسئولاً ، ليست مثل تحمل المسئولية

Thomas B. Morgan, "With Oppenheimer, Look, Jan, 27th (١٠)
1966).

(*) لبيان ال حلف جزء من هذا الفصل تعرض فيه المؤلف في هذا الموضوع بالانتقاد
للمسلمات الدينية التي تحرمها مع العلم بأنه لا يضيف إلى الأدلة العلمية التي أوردتها ،
كما أن حلفه لا يؤثر في ترابط هذا الفصل - المترجم .

W. Glasser, "Reality Therapy," (New York : Harper & Row, (١١)
1965).

بالفعل . وتحليل المعاملات هو أيضا « علاج نفسى باستخدام الحقيقة » ولكنه يقدم اجابات لا أعتقد أن جلاسز قدمها . وعلى سبيل المثال : ما هو عيب من لا يستطيع أن يدرك الحقيقة ، أو من يدركها بصورة مشوشة ؟ ما هى الاجابة التى تقدمها لهؤلاء الذين يعرفون ما يجب أن يعملوه ، ولكنهم يفشلون دائما فى عمله ؟

يقول جلاسز : « اننا لانشغل أنفسنا بعمليات اللاشعور العقلى . . اننا لانبال بتاريخ المريض لأننا لانستطيع أن نغير ما حدث له ، أو أن نقبل حقيقة أنه محدود بماضيه » .

اننا لانستطيع أن نغير الماضى ، ولكن الماضى يحشر نفسه دائما فى حياتنا الحاضرة من خلال « الوالد » و « الطفل » . وإذا لم نفهم لماذا يحدث ذلك ، ونوافق على حدوثه ، فلن يكون لدينا « راشد » متحرر نستطيع به أن نتحول الى الأفراد المسئولين الذين نصحبنا جلاسز بأن نتحول اليهم . علينا أن نفهم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) الخاص بنا قبل أن نقلب صفحة الماضى . عندما يقول لنا الطبيب النفسى أنه يجب علينا ، فهذا القول ينطلق من « الوالد » . وإذا اخترنا أن نفعل ذلك بارادتنا لأننا نفهم حقيقة أنفسنا المركبة ، فهذا هو « الراشد » . ان قوة صمود قرارنا تعتمد كلية على ما اذا كان القرار صادرا عن « الوالد » أم « الراشد » .

ولى تحفظ آخر على العلاج النفسى باستخدام الواقع - وهو عدم استخدامه لفة خاصة يقرر بها « ماذا حدث ؟ » ويقول جلاسز : « ان قدرة الطبيب النفسى على الاندماج ، هى المهارة الأساسية اللازمة لتطبيق أسلوب العلاج النفسى باستخدام الحقيقة ، ولكن من الصعب جدا وصفها . كيف يستخدم الانسان الكلمات ليصف عملية بناء سريعة لعلاقة وجدانية قوية بين شخصين غريبين نسبيا ؟

أما فى تحليل المعاملات فلنا تعقيب : يبدأ المريض باستثارة « طفله » ويرى الطبيب النفسى فى صورة « الوالد » ، وفى الساعة الأولى من العلاج يتحدد « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » . ثم تستخدم هذه الاصطلاحات الثلاثة لتحديد « العقد » أو التوقعات المتبادلة المتنتظرة من العلاج . ان الطبيب النفسى موجود هناك ليعلم ، والمريض موجود هناك ليتعلم ، والمقد هنا (راشد - راشد) . وإذا سمى المريض : « ماذا حدث ؟ » فانه يستطيع أن يحكى ما حدث . لقد تعلم أن يحدث « والده » و « راشده » و « طفله » . وتعلم أيضا كيفية تحليل معاملاته . لقد اكتسب أداة لتحرير

وتقوية « راشد » وهذا « الراشد » فقط هو الذي يستطيع أن يكون مسؤولاً .

أنتى أسلم بضرورة تركيز الضوء على المسؤولية ، كما لا يختلف على مثالية الوصايا العشر والقاعدة الذهبية ، أما الحقيقة التي تعينى على أية حال ، فهي لماذا لا تنتج هذه النصائح أشخاصاً قادرين على تحمل المسؤولية دائماً ؟ إن محاولة إعادة صياغة تلك الوصايا والقواعد لن تؤدي إلى الفرض المنشود .

أنا لن نستطيع تنشئة أشخاص قادرين على الاضطلاع بالمسؤولية حتى نساعدهم على اكتشاف موقف (أنا لست على مايرام - وأنت على مايرام) الذي يحدد الألعاب المحققة والمفجرة التي يلعبونها . وماذا نفهم الموقف والألعاب ، فإن حرية الاستجابة تبدأ في الظهور كمسؤولية حقيقية . وما دام الناس مقيدون بالماضي ، فإنهم ليسوا أحراراً في الاستجابة للمتطلبات وتطلعات الآخرين في الوقت الحالي . ويقول ول ديورانت : أنك « لكى تقول أننا أحرار ، فلا يعنى ذلك إلا أننا نعرف ما نعمله » (١٢) .

W. Durant, "The Story of Philosophy." (New York : Simon and Schuster, 1963), p. 339. (١٢)

الفصل الثالث عشر

المفاهيم الاجتماعية لنموذج (الوالد - الراشد - الطفل)

(يمثل التاريخ بالطفلة الذين دوعوا العالم بأفعالهم ، ولكن بنية الحياة لاتزال يانعة - البحث عن الانسان ، فيلم تسجيل من انتاج محطة تلفزيون ABC)

هل يسلط فهمنا للأسباب التي تدفع الأفراد لعمل ما يعملون ، أى ضوء على الأسباب التي تدفع الجماعات الانسانية كالأمم لعمل ما تعمله؟ من المهم لنا أن نسأل هذا السؤال ، لأننا اذا لم نطرحه الآن ونجيب عنه ، فلن تكون هناك جدوى من اهتمامنا بالأفراد . هل تصدق حقاً أن الانسان كائن عاقل ؟ ، لقد أجاب السناتور وليم فولبرايت في جلسة استماع للجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى - عن هذا السؤال قائلا :

« اننا نلتك في فيتنام بالوف البشر لكى نتيح لهم ان يمارسوا حق الانتخاب الذى لم يسبق لهم أن مارسوه من قبل . وهذا يبدو لى أمراً غير منطقي » .

ولما كانت أنماط السلوك الشخصية والجماعية تنتقل من جيل الى آخر عن طريق « الوالد » فمن المهم بالنسبة للأمة أن تضمن فى تقاليدها من اجراءاتها الحالية لصالح الفرد - ان الولايات المتحدة تعطى حرية كاملة

لهذا اللون من ألوان الفحص النقدي ، ولكن ما مدى فاعلية ممارستنا لهذه الحرية ؟ اننا في بعض الاحيان نحس « والدنا » القومي أو الجماعي بصورة عشوائية ، ويبدو أننا ننسى أن الأمم الأخرى تفعل نفس الشيء . ونطلق على دفاعنا هذا اسم « الوطنية » ، بينما نطلق على دفاعهم اسم « الاستعباد » . ان جميع الأمم تعيش خلف ستار ، ربما كان هو نفس الستار . ويعرف ماكس رافرتي المشرف العام على مدارس كاليفورنيا « المواطن الصالح » بهذه الكيفية :

- « يقوم المواطن الصالح بالنسبة لوطنه ، مقام الابن بالنسبة لأمه » .
- انه يعطيها لأنها أكبر منه ، ولأنها تمثل في ذاتها حلم الكثيرين ، ولأنه يدين لها ب ميلاده وتربيته .
- انه يحترمها أكثر من كافة الناس ، ويجعل لها في قلبه محرابا يؤلف أمامه شموع الاحترام والاعجاب الى الأبد .
- انه يزود عن حماها ويهب روحه فداء لها .
- انه يهيم بها في تواضع دون زهو ، ولئن كان يوقن انه يقاسم غيره هذا الحب ، الا أن طبيعة عاطفته متفردة وذاتية ، تتدفق من أعماق كيانه . وتعود اليه في صورة حنان دافق .
- هذا هو المواطن الصالح . وعندما ينتشر هذا النوع من المواطنين ، تزدهر الجمهورية العظيمة (١)

والجواب الطيب الوحيد على مثل هذا التصريح هو : « ان في ذلك قولين : ان احترامنا و طاعتنا وحمايتنا لأمننا أو « والدنا » القومي يتوقف في حقيقة الأمر على طبيعة « الوالد » . اننا نمجز أحيانا عن التحقق من الفكرة لأننا نشعر أنه من المحتم علينا الايمان بهذه الفكرة ، وذلك أشبه بذلك اللون من المقدسات الذي يجعل سكان الهند يسمحون للفثران بأن تأكل ٢٠٪ من مواردهم الغذائية المحدودة ، أو يجعلون المرأة الهندية تلد عشرة أطفال ليموتوا جوعا في الشوارع لأن « والدها » لا يسمح لطبيب من الذكور بوضع لولب منع الحمل داخل الرحم . ان « والدها » لا يمترض على الوسيلة ، ولكنه يمترض على الطبيب الذكر . ولا يوجد العدد الكافي من الطبيبات لعمل هذا الاجراء على نطاق واسع . اننا نرى دلائل

Max Rafferty, "California Education, Vol. 2, No. 8 (April, 1965)". (١)

«العمى» فى كل أنحاء العالم ، ومع ذلك فلم نترك حتى الآن أن هذا العمى أصبح قاسما مشتركا بين جميع الناس . انه نفس العمى الذى أصاب الولد الصغير المذكور فى الفصل الثانى عشر ، الذى يتحتم أن يعتقد بأن : « رجال الشرطة أرياء » رغم الدليل المضاد الذى يراه بعينية ويسمعه بأذنيه . انه الخوف الأصيل ، وشعور الاعتماد على الغير الكامن فى « الطفل » الذى يفترض ضرورة قبول أوامر « الوالد » للمحافظة على حياته . ونستطيع أن ننظر الى حيرته بعين العطف . وربما اذا تجاهلنا « والد » أعدائنا « المالمين » وتمسكنا فقط فى « طفولهم » على أمل إقامة اتصال (راشد - راشد) فقد نستطيع أن نطرح الشعور الدائم ونشرع فى تبني وجهة نظر أكثر تسامحا نقيم بها الخطوات التى يمكننا أن نتخذها .

ان مخاوفنا تشتت على سبيل المثال - أن نرى فى الصين الشعبية فقط « الوالد » المرعب ، الذى يهدد ، والذى ينذر بالضرر ، والغاضب ، والقوى ، ولكن هناك وجهة نظر مخالفة عبر عنها إريك سيفاريد فى تقييده للموقف الذى اتخذته السيناتور ولم فولبرايت . فيما يختص بالصين وهى :

قد يجد فولبرايت كملوس للتاريخ ومتقلباته التى يستحيل التنبؤ بها ، أن مثل هذه المخاوف طفولية . انه يميل الى تفسير صرخات ابواق الدعاية الصينية بطريقة يوانات سكرتير عام الأمم المتحدة ، لأن ذلك هو السلوك الطبيعى لنظام حكم غارق فى المتاعب الداخلية ويشعر بأن النائرة « تضيق حوله » بواسطة قوة روسيا والولايات المتحدة . ان ذهن فولبرايت يعمل بطريقة تجعله يتخيل رد فعل دولته ، اذا حارب جيش صينى فى جنوب المكسيك على سبيل المثال ، وأخذت طائرات الصين تلقى بقنابلها على بعد أربعين ميلا من مدينة ريوجراند .

انه يحاول استبعاد حدوث مشكلة دولية ، ليس فقط لكى يفهم الاهتمامات الأساسية لمصمه ، بل ويحاول أيضا أن يتخيل ما هية شعوره الداخلى نحو هذه الاهتمامات المضادة لأنه يظن أن العالم سيواجه أخطارا شديدة اذا تصرف على خلاف ذلك (٢) .

(٢) مقابلة مع السيناتور وليم فولبرايت - مطبعة الكونجرس - ٢٠ أبريل.

سنة ١٩٦٦ .

وقد أجاب على سؤال فولبرايت الدكتور جيروم فرانك استاذ الطب النفسى بجامعة جون هوبكنز الذى كان حاضرا جلسة الاستماع التى عقدتها لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ - قائلا : « اننا لا نلتزم العقل الا بين الحين والحين ، وأظن أننا نتحرك ونحن مثقلون بالخوف والتوتر العاطفى ، مما ينعكس على صفاء التفكير ، ولنا الحق فى أن نرحب الأسلحة النووية » .

الطفل الصغير له الحق أيضا فى الخوف من أن يتعرض لعقاب أب قاس ، ولسنا هنا فى مقام التساؤل عن جدوى الخوف ، بل علينا أن نتساءل : ماذا بوسعنا أن نفعل حياله ، عندما يسيطر الخوف على حياته ؟ سيتلاشى كل احتمال لقدرة المرء على التعامل مع البيانات المختزنة فى عقله والتى يستمد منها حوله ، تعاملًا صحيحًا ، وهو التعامل الذى يكفل له العلاج والشفاء (على المستويين الفردى والعالمى) أى (أنا على مايرام وأنت على مايرام) .

وقد عبر السناتور فولبرايت عن ذلك فى مناسبة أخرى من خلال خطبة ألقاها سنة ١٩٦٤ فقال :

ان نقائص العقل الانسانى [« الراشد » الواقع تحت تأثير « الطفل » او « الوالد »] تؤدى الى انحراف حتمى ما بين العالم كما هو [كما يراه « الراشد » المتحور] والعالم كما يدركه الناس [كما يراه « الوالد » او « الطفل » او « الراشد » المفلق] ، وطالما كانت مداركنا قريبة من الحقيقة الموضوعية [الخالية من التأثير] فمن الممكن لنا ان نتصرف فى مشاكلنا بطريقة عاقلة ومناسبة [« الراشد »] ، ولكن عندما تفشل مداركنا فى التمشى مع الأحداث [مدارك قديمة] ، وعندما نرفض تصديق شئ ، لأنه لايسعدنا [« والد »] او يخيفنا [« طفل »] او لأنه ببساطة مفزع بشكل غير عادى ، فان الفجوة بين الحقيقة والوهم ، تصبح هوة متسعة ، ويصبح التصرف غير مناسب وغير معقول (٣) .

ما مدى عدم معقوليتنا ؟ :

ان الفزع الذى أحس به معظم الناس - حينما تكشف لهم فظائع النازية خلال الحرب العالمية الثانية ، دفع الكثيرين الى الاعتقاد دون سند

W. Fulbright, "Foreign Policy — Old Myth and New Reality" (٣)
ties, The Congressional Record, March 25th, 1964.

من الواقع - بأن « هذا لا يمكن أن يحدث في أمريكا » ، وأنا لا يمكن أن
نسمح بمثل هذه الأعمال الوحشية الغريبة .

هل نحن لا نستطيع أن نقترف مثل هذه الفظائع ؟ ماذا حدث في
ألمانيا النازية ؟ هل جميع الناس عرضة للانزلاق في هوة اللا منطق ؟ وإلى
أى مدى ؟ ومن يرسم الحدود ؟ لقد أصابتني القشعريرة وأنا أطلع عرضا
قدمه الطبيب النفسي رالف كراوشو لكتاب عنوانه : الأرض الفاسدة -
الأخلاقيات الاجتماعية في أمريكا الحديثة

"The Corrupted Land : The Social Moralities of Modern
America.

من تأليف فريدج . كوك - ونشرته : دار ماكميلان للنشر - كتب
كراوشو يقول :

إن كوك يتحدث في كتابه أساسا عن أن المواطنين الأمريكيين قد
تخلوا عن مبادئهم الأخلاقية التابعة من الدات ليتبنوا أخلاقيات مختصة من
التقاليد الجماعية والمؤسسات . لقد تخلوا عن معتقداتهم الحسنة
لينزلوا إلى العواطف الرخيصة والمبادئ الشعبية الفجة ، أي أن المواطن
هنا يتحمل مسئولية الطاعة والاذعان للمجتمع ، وهذا دواء عسير على المرء ،
ويعنى أن نتخلى دائما خلف حقيقة « أننا لا نملك دليلا إحصائيا »
و « أن هذا هو انطباع المرء ولذلك فهذا الرأي غير مهم » فهل هذا
غير مهم حقا ؟ (٤) .

واقترس هنا جزءا من المقال يعرض فيه كراوشو بحثا أجراه
ستاني ميلجرام بجامعة ييل - وهو يقدم الدليل للإجابة على هذا
السؤال :

يبدأ بحث ستاني ميلجرام في وضع أساس علمي ترتكز عليه
استنتاجات كوك . لقد قام ميلجرام بسلسلة من التجارب النفسية عن
الطاعة . وأخذ عينة تمثل قطاعا عرضيا من الإشتدين (تتراوح أعمارهم
بين عشرين إلى خمسين عاما) من بين السكان الذكور في مدينة بريدج
بوروت في ولاية كونكتيكت ، من بين العمال ذوي الياقات الزرقاء إلى
الهنئين وكانت التجربة تنحصر في تحديد مدى العقوبة التي يمكن أن

Ralph Crawshaw, "But Everybody Cheats" Medical Opinion (٤)
& Review, Vol. 2, No. 1 (January, 1967).

التوافق النفسي - ٢٥٧

ينزلها شخص بآخر عندما تصد له الأوامر بذلك . وقد قيل للمشاركين في اجرائها انها دراسة تقوم بها « جمعية أبحاث بريدج بورت » لاحتبار اساليب التعليم . وقد اختيرت العينة عشوائيا ، ودفع لدل من أفرادها أربعة دولارات ونصف مقابل اشتراكه في التجربة ، وسيطلق على كل منهم اسم : الموضوع Subject . وسيلعب كل منهم دور المدرس . ربط دارس في « كرسي كهربائي » كان « الموضوع » قد جلس عليه وتلقى صدمة تجريبية قوتها ٤٥ فولت لإقناعه بأن الكرسي يعمل ، ثم جلس « الموضوع » أو « المدرس » في حجرة مجاورة وطلب منه توجيه أسئلة للدارس ، وعليه أن يرسل صدمة قوية له ، عند كل إجابة خاطئة . وبالطبع فإن الدارس لم يصعق ولكن اجاباته تحولت الى شريط من الهزيمة والشبهات والتوسلات وصرخات الفرع التي تتناسب مع قوة الصدمة المرسله . وكانت الاجابات قد سبق اعدادها بعرفة المشرف على التجربة ، ولذلك فقد كان العامل الوحيد الذي يمنع المدرس من ارسال أقصى جهد للصدمة هو عطفه على الانسان الذي يعاني من الألم . وكانت مشكلة المدرس وهو يمثل الانسان العاды ، هي الصراع بين طاعة نظام متجبر وعقيدته التي تمنعه من ايلاء شخص آخر .

ما هي نسبة الذين اكملوا الدورة الكاملة وأعطوا أقصى الصدمات من بين هؤلاء الذين قاموا بدور « المدرس » ؟

قبل أن نخمن ، عليك أن تنصت أولا الى صوت الرجل ويدعى مستر افريمان عند توصيل التيار :

أعطيت ١٥٠ فولت « اتريدنى أن استمر ؟ » (امر) .

أعطيت ١٦٥ فولت : « هذا الشخص يصرخ من الألم هناك . يوجد هنا الكثير منهم . انه معرض لصدمة قلبية . هل تريدنى أن استمر ؟ » (امر) .

أعطيت ١٨٠ فولت : « انه لا يتحملها . لن اقتل هذا الرجل الذي هناك ! ألا تسمعه يصرخ ؟ انه يصرخ . انه لا يتحملها . ماذا لو حدث له شئ ؟ هل تعرف ما اعنيه ؟ اعنى أنني أرفض أن اتحمل المسؤولية » .
(يقبل المشرف على التجربة أن يتحمل المسؤولية) . « حسنا » .
١٩٥ فولت ، ٢١٠ فولت ، ٢٢٥ ، ٢٤٠ وهلم جرا .

وقد أطاق المدرس المشرف على التجربة دائما . ما هي نسبة الذين اكملوا الطريق الى غايته من بين المدرسين الذين بلغ عددهم الألف ؟ عليك أن تخمن ذلك قبل أن تدع عينيك تشرطان بعيدا . وقد تنبأ الفريق

المكون من أربعين طبييا نفسيا الذين درسوا هذه التجربة ، بأن العدد كان عشر الواحد في المائة . أما في التجربة الفعلية ، فقد أعطت نسبة ٦٢٪ أوامر المشرف على التجربة بالضغط - ما قولك أنت ؟

وتوصل ميلجرام الى أنه « مع الرقابة التي تبعث التحذير ، واينما الناس الطيبين : يضعون لطلب السلطة ويرتكبون أعمالا ارهابية وقسية .. ان الناس الذين كانوا في الحياة اليومية مسئولين ولطفاء قد اغرتهم فتاخ السلطة بالوقوع تحت سيطرة الوهم ، والقبول الأعمى لأوامر المشرف على التجربة الذي يحض على ارتكاب أعمال العنف » .

ان نتائج هذه التجربة التي ظهرت في العمل وأحسن بها القائمون عليها ، تثير الانزعاج في نفس هذا الكاتب ، فهي تشير الى ان نوع الشخصية التي أنتجها المجتمع الديمقراطي الأمريكي لا يمكن الاعتماد عليها لوقاية المواطنين من التهور في أعمال العنف الوحشي والمعاملات اللا انسانية ، عندما يقعون تحت توجيه سلطة شريرة (٥) .

ان مضمون هذه التجربة مخيف حقا اذا ما نظرنا الى النتائج على أنها تنبئ بجانب شرير في الطبيعة الانسانية ميئوس من علاجه . وعلى أية حال فاننا نستطيع أن نتحدث عن التجربة بصورة مختلفة عندما نستخدم تحليل المعاملات ، نستطيع القول بأن نسبة ال ٦٢٪ من المبحوثين ، لم يكن لديها « راشد » متحرر تفحص به السلطة الموجودة في « والد » المشرفين على التجربة . وبلا شك كان هناك فرض لم يختبر وهو « أن التجربة العلمية أيا كانت ، تعتبر في نظر العالم تجربة جيدة ، اذا كانت ضرورية لاجراء بحثه » . وربما كان ذلك هو نفس الفرض الذي ساعد العلماء « أصحاب السمعة الطيبة » على المساهمة في فظائع المعامل التي جرت في المانيا النازية .

وقد تعلم معظمنا في طفولته أن « يوقسر » السلطة . وكانت هذه السلطة ممثلة في رجل الشرطة ، وصائق الاتوبيس ، ورجل الدين ، والمدرس ، وساعي البريد ، وناظر المدرسة ، وأيضا الشخصيات البارزة في المجتمع مثل المحافظ ، وعضو المجلس النيابي ، والجنرال ، والرئيس .

أما استجابة العديد من الناس لدى ظهور رجال السلطة هؤلاء فانها

نحدث تلقائيا . وعلى سبيل المثال اذا كنت تقود سيارتك متجاوزا السرعة المقررة ، ثم صادفت فجأة سيارة دائرية المرور ، فانك لن تبرر شعوريا أسباب إبطائك للسيارة ، حيث ترفع قدميك تلقائيا عن دواسه البنزين . ان التسجيل القديم القائل : « من الافضل أن نحتاط ، يهتف بك ، ويستجيب « الطفل » تلقائيا ، كما يفعل دائما . وعلى العكس فان « الراشد » يعرف أن قوانين ضبط السرعة ضرورية ، ولذلك فان الاستجابة التلقائية مطلوبة في هذا الموقف .

وليست كافة الاستجابات للسلطة طيبة ، فقد تكون هناك مخاطرة عظيمة في الإذعان اذا فشل « الراشد » في تصنيف المعلومات الجديدة في عالم متغير . ولدنك فانه بالرغم من خشيتنا من هذه التجربة ، الا اننا قد ننظر بالأمل الى المناخ الحالي الخاص بالمعارضة والاستجواب في بلدنا . وتبين المظاهرات والاسئلة الصعبة من الشباب أن هناك صحوة وقوة في رفضهم الانحناء الأعمى للسلطة أو قبول القوانين التي يعتبرونها معادية للعدالة والبقاء ، بدون نقاش . ان القوانين ليست هي الحرية الحقيقية ولا الحقيقة النهائية . وقد كانت القوانين السيئة موجودة دائما الى جانب القوانين الطيبة . وقد تغير الكثير من القوانين الرديئة نتيجة للمعارضة من النوع الذي نراه اليوم ، واذا لم نأخذ في الاعتبار المعارضة السلمية ، فاننا سنلمس دليلا متزايدا على تحكم « الطفل » في سلوكنا وذلك في أعمال الاثارة والعنف . واذا لم نستجب للمنطق ، فان استجاباتنا سيغلب عليها الخوف أكثر وأكثر . وفي نفس الوقت علينا أن نأخذ في الاعتبار متطلبات العملية الديمقراطية التي لا تستطيع أن تعمل بدون القوانين . وكما قال تشرشل : « ان الديمقراطية هي أموا أشكال الحكومة التي يمكن للانسان أن يتخيلها حتى يحاول أن يجد شكلا أفضل منها » . ولكن الديمقراطية تستطيع فقط أن تعمل مع ناخبين أذكياء . والناخب الذكي هو « الراشد » الناخب . ان الحكومة المنبثقة عن « البالد » ولصالح « الوالد » وبمعرفة « الوالد » ستيب من على وجه الأرض .

هل هذا الجيل الشاب مختلف ؟ :

ان الكثير من الآباء يضيقون ذرعا بالأساليب الاستقلالية التي يمارسها الشباب هذه الأيام ، ولسنا نرحب بدعوة الآباء الى الإفراط في التساهل مع الأبناء ، بل أن البعض يرى أنه اذا كان علينا أن ننصح

بشيء فعلييننا أن ندعوهم الى تشديد الضغط . ان الكثير من الآباء لا يستطيعون تصور أن ذهن طالب جامعي طويل التسرع ويحمل شعارات المعارضة على صدره ، ويدخن الماريجوانا ، يمكن أن يحتوى على افكار بناءة ، حتى ولو عجز هؤلاء الآباء عن تقديم مبرر منطقي لتمسكهم بحلقة شعورهم او مراسم حفلات الكوكتيل التي يقيمونها . وقد أخبرني أحد هؤلاء الآباء الساخطين على الحركات الداعية الى حرية انقاء الخطب والحاديث في الجامعات : « ان هؤلاء الاولاد الفاسدين يدعون كل شيء تعبنا جدا في بنائه » . وهذا القول صادق ، لأن الشباب يمكن أن يتطلقوا في التدمير ، والبعض منهم كذلك بالفعل . انهم لم يدفعوا الضرائب ، ولم يساعدوا في بناء المعاهد العلمية التي يهاجمونها . ومن الجهة الأخرى فانهم لا يستطيعون الادلاء بأصواتهم ، ولكنهم مطالبون بدفع ما هو أكثر من الضرائب ، انهم مطالبون بتقديم أرواحهم في الحروب التي لا يؤيدها الكثيرون منهم .

ويقدم اختبار نموذج (الوالد - الرشيد - الطفل) بالنسبة لطالب الجامعة اليوم - فهما جديدا لسلوكه ، الذي اعتقد أنه يساعدنا على اخراج هذا الموضوع من السياق القديم (الجيل القديم في مواجهة الجيل الجديد) بما فيه من ايماءات وتعبيرات تدل على التافه والغضب مثل لعبة « أليس هذا فظيحا ؟ » التي لا تثير شيئا نافعا .

وفي سنة ١٩٦٥ قدمت واحدة من أعظم المؤسسات التعليمية في العالم ألا وهي جامعة كاليفورنيا في بركلي - بسلسلة من المعاملات المثيرة ، التي انتشرت في العالم كله ، وظهر « طفل » الكثير من الطلاب الثائرين في ندوات مثل : « لاثق في أى شخص تجاوز عمره الثلاثين » ، كما ظهر « الوالد » أيضا في الرد الغاضب الذي أبداه رئيس مجلس الأوصياء حيال الاستخدام القبيح لبعض الكلمات البذيئة . وظهر أيضا « الرشيد » الرائع في كلارك كير رئيس الجامعة حينذاك الذي فصل من عمله في يناير سنة ١٩٦٧ . (القرارات التي اتخذها « الرشيد » لاتضمن الثناء أو الشعبية أو السلامة خاصة بين هؤلاء المتخوفين من الحقيقة بحيث لا يماودون النظر في قراراتهم) .

ما حقيقة ذلك الذي كان يحدث في حرم جامعة بركلي ؟ ما هي المعاني الحقيقية للكلمات البذيئة ؟ لماذا كان الطلبة في مؤسسة علمية معروفة بأنها واحدة من أكبر المؤسسات العلمية تحسرا في الولايات المتحدة

بكاملها - يطالبون بالحرية غير المحدودة ، بأسلوب صارخ يندد بكل السلطات الجامعية ؟ لقد علق ماكس ويزر على انتفاضة بيركلي قائلا :

لا توجد مؤسسة علمية تستحق لقب « الطاغية » مثل من جامعة كاليفورنيا ، حيث يستنبح الطلبة - نما يفعل معظمهم في بيركلي - ان يعيشوا خارج الحرم بلون أى اشراف جامعي على سلوكهم • أما مجال الاختيار الدراسي فهو واسع ولا تثقله الا قيود قليلة تملأها متطلبات المنهج الدراسي • حقا ، ان العديد من طلبة بيركلي يشتكون ، ولكن شكاياتهم التي ترجعت الى مطالبات بالتزيد من الحرية تنبع من نقصان يعتبر حرية زائدة عن الحد بالنسبة لغيرها من الجامعات (٦) •

وقد لاحظ بعد ذلك أن خبرة الطلاب غير الكافية بهذا النمط من أنماط الإدارة الجامعية ، الذي تتحدد فيه السلطة من خلال قواعد غير شخصية ، يجعل كلا من الجامعة - والمجتمع - يبدو أمام العديد من الطلاب كمؤسسة استبدادية •

ان فكرة الخبرة فكرة مهمة • دعنا نفحص السنوات الخمس الأولى لعظم الطلبة الذين كان معظمهم اما مشتركا في الثورة ، أو متعاطفا معها • ان متوسط أعمار الطلبة يتراوح ما بين ثمانية عشر - الى عشرين عاما • وقد ولد معظم الطلبة المعارضين ما بين سنوات ١٩٤٣ - ١٩٤٦ ، وقضوا معظم سنوات تشكيل شخصياتهم اما خلال سنوات الحرب أو ما بعد الحرب • وقد تميزت هذه السنوات بالطوالع الأسرية غير المستقرة ، مثل التنقل الدائم من مكان لآخر مع غياب الآباء اذا لم يكونوا قد ماتوا بالفعل ، والأمهات المرحقات اللاتي يمانين من القلق ، وغير ذلك من النماذج الاجتماعية العامة التي تزيد من عدم الاستقرار في البيت • ويلاحظ أن كثيرا من آبائهم قد عادوا للالتحاق بالجامعات والمعاهد بعد انتهاء الحرب العالمية وتسريحهم ، وقد أكسبتهم سنوات الحرب الضائعة مرارة ، وجعلتهم ينظرون بتجهم الى هذا العالم الذي يطالبهم بالكثير ، فانعكست المرارة التي أفعمت قلوبهم ونفوسهم الجريحة في كلماتهم التي تلمن الحرب والدمار ، ولم يستسلموا بسهولة للمؤسسات التي تهاوت والعناوين الضخمة التي عفا عليها الزمن والتي كانت ترسم للإنسان في الماضي صورة صالحة • أما أطفالهم الذين وصلوا الآن الى الجامعة فلم يروا الحياة ملجأ للهدوء

M. Wavy, "On the Campus : A Troubled Reflection of the U.S. Fortune, September-October, 1965). (٦)

المنزلى أو عالما آمنا للديموقراطية ، وانما رأوا فى سن مبكر صور معسكرات الاعسال ، وسجلوا سلوكهم ضمن كافة هذه المعلومات فى « اواند » ومن جهة اخرى فان العديد من هؤلاء الاطفال نسلخوا رموز الرفاهية التى أعدها عليهم أبائهم فنعموا ببيوت وأجساد نظيفة ، وعناية طبية فائقة وتعليم جيد . ولكن كافة هذه المميزات لم تمنح التسجيلات المبكرة التى نستمتع اليها الآن وهى تعمل فى الانشطة غير المعولة للطلاب المعارضين . ومن المهم أن نؤكد أننا لا نستطيع تعميم هذا الكلام على جميع الطلاب ، أو جميع الطلاب المعارضين ، فمن المؤكد أن هناك استثناءات ، لان بعض المعارضين كانوا متفاوتين فى السن ، والبعض أنى من بيوت كانت مستقرة خلال سنوات الحرب . على ذلك فان هذا التحليل مهم ، لانه من خلال هذه النوعية من التساؤلات نستطيع أن نتجاوز لعبة « اليس هذا فظيحا ؟ » عن الجيل الجديد .

ولا يعنى التعرض المبكر للمصاعب والتناقضات أن هؤلاء الشباب يستطيعون التهرب من المسئولية المتعلقة بسلوكهم ، وعلى أية حال فان فهم المعلومات المسجلة فى « والد » وفى « طفل » هؤلاء الطلبة يجعل مواقفهم مفهومة . ونحن نعرف أن المعلومات القديمة لا تأتى من « الطفل » النائر والقلق . بل أيضا من « الوالد » الذى يحتوى مضمونه على آثار عديدة للقلق والنزوة وسوء الظن والارهاق فى عالم يبدو غير قادر على البقاء بدون حرب فترة طويلة .

وأصبح عدد لا بأس به من الطلبة ، الذين لم يعيش عدد كبير منهم مع سلطة يستطيعون الثقة فيها أو التعامل معها ، مستعدين الآن للمعارضة ضد السلطة كلها ، بما فيها سلطة الجامعة . لقد نالوا قدرا كبيرا من الراحة المادية ، ولكنهم لم ينالوا القدر الكافى من الدلائل التى تجعلهم يؤمنون بأهمية البشر ، وأن الحياة لها هدف . لقد تحطم « والدم » وأحبط « طفلهم » أما « راشداهم » فانه يسأل فى عجلة : - « هل من مزيد ؟ » .

وكانت بعض الانتقادات العديدة التى أنيرت خلال المناظرة التى جرت فى الجامعة تتضمن أن الجامعة قد أصبحت مقرطة فى الضخامة وهذه ملحوظة تصدق أيضا بالنسبة لعدد سكان العالم . وقد أجاب غرانكلين مورفى مستشار مجلس ادارة الجامعة ، وهو طبيب بشرى - عن هذا السؤال باستخدام استعارة بيولوجية مدهشة ، لا تخلو من الدلالة ، حول العالم الذى « بات مقرطا فى الضخامة » :

لا ، ان العالم ليس مفرطاً في الضخامة ، ولكنه اتسع سريعاً في السنوات الكفيلة الماضية . لقد انصرفنا في الماضي الى تشريح الوجود اكثر من دراسة وظائف الاعضاء الخاصة بها . واذ سبق الجسم الجهاز العصبي ، تصاب حركته بالخلل ، وبترنج احيانا . لما بالنسبة للجامعة فعلينا الآن ان نخلق نظاماً عصبياً يلائم الحيوان . والامر يحتاج الى جهاز عصبي خبير بشئون الحياة لكي يتعامل مع التعقيدات ، وينقل الرسائل بين العناصر المختلفة . ان الجامعة تحتاج الى لا مركزية اكثر وافضل ، كما تحتاج الى تعاون اكثر وافضل .

ان وظيفة « الجهاز العصبي » للجامعة تشبه وظيفة الجهاز العصبي في الجسم الانساني - الاتصال . وهي ايضا نفس وظيفة الجهاز العصبي الذي يربط العالم كله معا . والتحق في الاتصال - الذي يسهل هذه الوظيفة او يوقفها - هو الذي سيخرج اسلوباً جديداً الى النور يتلشى امامه الميل القديم للعنف ، الذي يتجلى في أشكال عدة منسل الحرب ، او العمل البوليسي ، او التدخل المسلح . والمعنون بحل تلك المشاكل ، سواء كانت عالمية او محلية ، يتحدثون باستمرار عن « الحاجة للحوار » بدون أدنى اعتبار للحاجة الى تحديد معاني المصطلحات . أما في تحليل المعاملات فقد طورنا نظاماً موحداً في :

١ - تحديد المعاني المصطلحات . ٢ - قصر السلوك على وحدة اساسية للملاحظة . ولكي يكون للحوار فائدة ، يجب ان تتفق على الظاهرة التي نبحثها ، والمصطلحات التي سنصف بها ما نلاحظه ، ونؤسس عليها الحوار ، والا فائنا بكل بساطة ، سنتمتع في الكلمات ، مثل ذلك الرجل الذي وصف صديقا له قائلاً : « كان متعصباً في وطنيته ، وفي معتقداته السياسية » ، ولكن لا معنى هذا أنه لم يكن بالشخص الرزين » . ان كلمات مثل متعصب او رزين - لا تفيدنا في تحليل السلوك او التنبؤ به . والكثير من محاورتنا غير مفيد لنفس السبب حيث يقال الكثير ولكن المستمعين لا يفهمون شيئاً .

تحليل المعاملات الدولية :

إذا كان تحليل المعاملات يتيح لشخصين أن يفهما ما يدور بينهما ، فهل يمكن لنفس اللغة أن تستخدم لفهم ما يجري بين الدول ؟ وكما هو بين الأفراد ، فان المعاملات بين الدول يمكن أن تكون تكميلية فقط اذا كان

الموجهون متوازنين على صفحة المعاملة • وتعتبر معاملات (راشد - راشد)
 هي المعاملات التكميلية الوحيدة المتكاملة في العالم اليوم من جهة ظهور
 وتقرير مصير أصغر الدول • أما علاقة (والد - طفل) التي كانت موجودة
 من قبل بين الدول الكبيرة والصغيرة - فلم تعد مجزية الآن • ان الدول
 الصغيرة تنمو ، ولا تريد أن تكون « الطفل » مرة أخرى • ونجيب على
 انتقاداتها المرة أحيانا قائلين : « كيف تشعر هذه الدول بهذه الطريقة
 بعد كل ما عملناه معها ؟ » اننا نأمل أن تنجح الأمم المتحدة في القيام بدور
 محلل للمعاملات بين الدول ، وقد عاشت الأمم المتحدة رغم العديد من
 المعاملات المتقاطعة مثل أن يقرع رئيس إحدى الدول العظمى المنصة
 بحذائه ليوقف الاتصال ، أو أن يهدد بسحقنا قيسستير « الطفل » الكامن
 في نفوسنا ، ولكننا لسنا مرغبين على الرد عن طريق « الطفل » كما اننا
 غير مرغبين على الرد عن طريق « الوالد » الذي سيظهر الحسام • وهنسا
 تكمن إمكانية التغيير •

قد نقول للطفل الصغير « انني أحبك » مرات ومرات • ولكن اذا قلنا
 « انني أكرهك » مرة واحدة ، ففيها الكفاية لقضاء حياة طويلة يرفض فيها
 أي محاولة من أبويه للتعبير عن حبهما له • واذا عرف الشخص الصغير
 من أين جاءت عبارة « انني أكرهك » - وكيف أتير « الطفل » في أبيه لكي
 ينطق بمثل هذا القول غير المنطقي والمدمر للصغير الذي يحبه حقيقة -
 فان هذا الصغير لن يتشبث بهذه العبارة باعتبارها حقيقة واقعة •

وهذا هو الحال مع عبارة نيكيتا خروشوف « سندفنكم » • وبالرغم
 من أنها كانت عبارة بذيئة الى حد ما ، ولم تطور شيئا بناء بالنسبة لبلده
 أو لأي بلد آخر ، الا أنه يمكن تخفيف بعض الإهانة التي تضمنتها لتتذكر
 أنه بشر كغيره له « والد » و « راشد » و « طفل » - يختلف مضمونهم
 عن مضمون « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » عند أي شخص آخر ،
 خاصة رجال الدولة الأمريكيين •

أما البرهان على أنه لم يكن كائنا سياسيا من جنس أرفع فهو أنه
 قد سقط في هاوية النسيان • ولا يحتاج كشف التعبيرات والأفعال
 الخاطئة الى بحث تاريخي كبير من قادة البلاد الأخرى ، بما فيهم الولايات
 المتحدة • علينا أن نتعلم الاجابة على تعبيرات وأفعال الآخرين ليس عن
 طريق « طفلنا » الخائف والمتحيز للقتال ، ولكن عن طريق « راشدنا »
 الذي يستطيع أن يبحث عن الحقيقة ، وأن يرى الخوف في « طفل » الآخرين
 بسبب ما هو عليه ، وأن يلترك الآلم الذي يشعرون به من « الوالد »

الثقافي الذي يعلى المطلق والذي لم يعد يعمل من أجل بقاء الجنس البشرى .
 يجب أن نعلم حتى الابتعاد عن السلاح ونظهر « والدنا » المتقف . وهناك
 الكثير من العظمة في هذا « الوالد » ، ولكن هناك أيضا الكثير من الوقاحة ،
 كما نرى الحال في شر الاستعباد السرطاني الذي يكتنف الأمريكيين الآن
 مبتلا في مظاهر التعصب العنصري القاتلة ، سواء لدى السود أو البيض .
 وفي ذلك كتب التون تروبلاد قائلا :

« اننا نبدو في لزمتنا الحالية كالأعبي الشطرنج الذين تحركوا الى
 مواقع يتضح منها أن كل التحركات الممكنة ليست في الحقيقة سوى
 تحركات مدمرة . ونرى بالتأكيد أن ما يحدث ، يمثل في بعض جوانبه عبثا
 بالقانون الأخلاقي ، ولكن من الصعب علينا أن نصنفه أو نفهمه . ان
 استياء الآسيويين يبدو غير معقول وليس له ما يبرره اذا كنا مهتمين فقط
 بالأحداث المعاصرة . ولكن ما نجنّبه الآن ليس الا ما يزرعنا في الماضي
 البعيد . ان كل رجل أبيض لجأ الى العنف في السنوات الماضية ، وخرج
 على مبدأ احترام الكرامة البشرية لكل انسان عندما دعى المواطنون الصينيين
 بالأولاد . ساعد على بلور بدور الكراهية الوحشية التي انفجرت أخيرا في
 وجرّنا بهذا العنف إلا معقول ، في الوقت الذي نضحى فيه بأنفسنا من
 أجل المبادئ الرفيعة (٧) (٨) »

وهناك طريقة أخرى لتقرير هذا القانون الأخلاقي وهي اننا اذا قهرنا
 « الطفل » في شخص آخر لفترة طويلة بما فيه الكفاية ، فانه سيتحول الى
 وحش . ولا يدعشنا أن تنتج سنوات القهر الطويلة وحوشا عديدة في
 أمريكا تبعد فينا الخوف . لقد علقت امرأة زنجية عقب اندلاع أحد
 الاضطرابات العنصرية على سبيل التفسيرات التي قدمت لتورة واطس
 الزنجية في لوس أنجلوس (مثل اجراءات البوليس ، والبطالة ، والفقر
 ... الخ) بقولها : « اذا كان البيض بحاجة الى التساؤل عن الأسباب
 التي دعت الى الثورة ، فلن يتوصلوا اليها أبدا » .

Elton Trueblood, "The Life We Prize". (New York : York (٧)
 Harper, 1951).

(*) ان الكاتب مثله مثل غالبية المفكرين الأمريكيين يعتبر الحرب اليتنامية حربا
 اخلاقية من وجهة نظره . لأنها تدافع عن القيم الديمقراطية الغربية في شرق آسيا ، ضد
 الدكتاتورية الشيوعية حينذاك . وفي هذا مناقلة كبرى لأن النظام الذي هضمت أمريكا
 المدافع عنه في فيتنام كان يعبر عن الدكتاتورية العسكرية وليست الديمقراطية - للترجم .

« اننا نستطيع أن نتوصل الى تلك الأسباب لو لم يكن « طفلنا » الخائف و « والدنا » البار في نظر نفسه ، يزاحمان « الراشد » • وعلينا أن نفعل شيئا آخر أصبح الآن ضروريا ألا وهو استخدام لغة مشتركة تنتمي الى السلوك الانساني وأشعر بأن هذه اللغة موجودة لدينا في تحليل المعاملات • ان علم النفس يعرف بأنه العلم العظيم وليد العصر الحديث ، ولكنه لا يستطيع أن يقول الا القليل لكي يجعل معاركنا الاجتماعية الحالية منطقية • وقد أجاب أخصائي آخر في مجال السلوك والاتصالات ، على استجواب لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ قائلا :

« انني عاجز عن متابعة الموضوع ، وأشعر بأنني عرضة لأن أجعل من نفسي أضحوكة » • ان هذا النموذج من تماذج التواضع الجم ، لا يتحتم أن يجعلنا نفعل عن ضرورة اشراك هؤلاء العلماء الذين يزعمون لأنفسهم شيئا من التبصر بالسلوك الانساني في مجال العلاقات الدولية مع الشعوب الأخرى •

واتعشم أن يتلقى السناتور فولبرايت وجميع الموظفين العموميين تعظيما من رجال الطب النفسي ، يساعده على النجاح في مهمته • كما أشعر أن فهم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) وإمكانية تحرير « الراشد » لدى رجال الحكم والناخبين معا ، قد يؤدي الى أعظم النتائج التي تقود الى فهم المشاكل الاجتماعية والعالمية التي تواجهنا •

وإذا استطعنا أن نفهم سيطرة « الوالد » التي يطبق بها علينا « والدنا » الذاتي مؤيدا « بالوالد » الثقافي) ، وإذا استطعنا أن نفهم النزاع الكامن في « طفلنا » في وجه الثورة والحرب ، وفي سكان الهند ضحايا الجوع والخرافات ، وفي أهالي روسيا الذين يرسفون في الأغلال وتتأرجح فيهم روح التمرد على السلطة ، وفي سكان إسرائيل الذين ينعكس عليهم احساس الانتقام لقتل ستة ملايين يهودي ، وفي سكان فيتنام شمالها أو جنوبها ، وفي الخوف من النابالم وطعنات السونكي ، وفي سكان اليابان الذين يتذكرون ضربة القنابل الذرية - إذا بدأنا في رؤية هذا « الطفل » في شكل طفل صغير قائم في عالم مليء بالفزع ، وهو يريد فقط أن يتحرر من الألم ، فلا بد وأن يصير لأحاديثنا حيثذاك وقع مختلف قليلا • لقد اقترح لونغفيللو ما يلي :

« إذا استطعنا قراءة التاريخ السري لأعدائنا ، فلا بد وأن نجد في حياة كل رجل الأسف والمعاناة بما يكفي لنزع سلاح كل العداوات » •

ونحن لانستطيع أن نساند موقف « الطفل » الذى ليس على مايرام لدى أعدائنا ، لاننا نحسّى الالعب التى يلعبونها لانكار عدا المخوف ، ولأنهم لا يستطيعون أن يتعاطفوا معنا لنفس السبب . اننا نشترك فى مشكلة علم الثقة . ان الناس فى كل مكان يريدون أن يتفاوضوا ولكن حسب شروطهم الخاصة . و نستطيع أن نكون ابطالاً رئيسيين فى القضايا الصغيرة لاننا قطعنا العديد من الاختيارات فى التعامل مع القضايا الكبيرة . وقد نستطيع ابات خوفنا المتبادل ، ولكننا لانعرف ما نفعله حياله .

إذا عرف الرجال المشتركون فى المحادثات الدولية لغة نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) . وإذا عرفوا جميعاً أنه مع وجود الخوف فى « الطفل » لا توجد طريقة لعقد اتفاق عن طريق « الوالد » وأنه من خلال تحرير « الراشد » فقط يمكن التغلب على موقف (أنا لست على مايرام وأنت على مايرام) بالنسبة للعالم ، وبعد ذلك علينا أن نبدأ فى رؤية احتمالات الحلول خلف تأثيرات الماضى المحدودة . ان الكلمات الأساسية الداخلة فى تحليل المعاملات وهى (الوالد - الراشد - الطفل - لست على مايرام - أنا على مايرام - الالعب - المداعبة) بسيطة لدرجة أنه فى حالة عدم القدرة على ترجمتها الى بقية اللغات الأخرى ، فمن المستطاع استخدامها كما هى ، مع تحديد معانيها بالفاظ اللغات الأخرى . ان كلمة OK ★ كلمة عالمية ، كذلك كلمات : «الوالد» - «الراشد» - «الطفل» - يمكن أن تكون عالمية . والآن وقد أصبح لدينا مفهوم لفهم السلوك الانسانى ، يستطيع كافة الناس أن يحيطوا بمعناه ، ويمكن صياغته فى كلمات بسيطة ، وترجمته الى أى لغة . فاننا نستطيع الوصول الى نقطة يمكن عندها أن نهجر مخاوفنا القديمة ، القائمة على أساس مأسى الماضى ، وأن نبدأ الحديث مع بعضنا البعض بالطريقة الوحيدة التى تجعل الاتفاق ممكناً . (راشد - راشد) . ونستطيع باستخدام « الراشد » أن ننظر معاً الى الموضوعات القديمة المتعلقة . ان العبارات التى لم تختبر تغلق أمامنا الاختيارات وتقضى على الآمال التى تحدثنا بأن نحيا معاً على أساس موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) وعلى سبيل المثال ، الى أى مدى نستطيع الدخول فى الدبلوماسية الدولية اذا ظللنا نستخدم لغة مغلقة تتضمن مثل هذه العبارات الموصوفة من نوع : « الشيوعية الموحدة » و « الغرب الحر » و « الصراع العادى » ؟ وحتى كلمة « الشيوعية العالمية » التى توحي بأننا نريد استمرار الحرب قلو الحرب ، وأن نتكبد تكاليفها

(★) التى تترجم فى هذا الكتاب بمعنى « على مايرام » (المترجم) .

الباهظة ، يجب أن يعاد فحصها • كم من المارك نلتزم بدخولها ؟ وهل تبدوا لها في ادق نهية ؟ هل من الممكن تحويل العالم الى اثنىوييه ؟ وهل للشيوعيين ملاحون ؟ من هو الشيوعي ؟ وهل تغير خلال اثنىويين عاما الماصيه ؟ وهل يتشابه جميع الشيوعيين ؟ (٢) يوجد ثلاثة بلايين شخص في العالم • ومعرفتنا عن هؤلاء الأشخاص لأفراد محدودة • ونادرا ما نفكر فيهم كأفراد • وعلى سبيل المثال ، هل ترى دولة مثل الهند بقمة متسعة لتمييزها صفة خاصة ، تضم أناسا كثيرين وليس لها من أهمية سوى الطريقة التي تغير بها الميزان الدولي للقوى في معركة أمريكا ضد الشيوعية العالمية ؟ أم نستطيع ان نرى الهند كامة شديدة التعميد ، يعيش فيها بشر عاديون يمثلون نسبة السبع من سكان العالم ، وتضم بلادهم ستة مجموعات عنصرية واضحة ، و ٨٥٥ لغة ولهجة ، وسبعة ديانات رئيسية ، وثقافتين متعاديتين ؟ وإذا لم يستطع « الوالد » الهندي و « الوالد » الأمريكي أن يتفقا على شيء ، فهل في وسعنا أن نتخيل كم سيكون الأمر متيرا حينما نكتشف تقاطع التوافق بيننا وبينهم اذا حررنا « الراشد » ؟ اننا ننتمي أحدا الى الآخر ، ونحن أيضا أشخاص لا أشياء • وليس سكان العالم أجمع مجرد أشياء يمكن السيطرة عليها ، بل أشخاص يجب أن نعرفهم ، وهم ليسوا وثنيين يجب تحويلهم عن معتقداتهم ولكنهم أشخاص يجب أن نستمع اليهم ، وليسوا أعداء نتحتم علينا كراهيتهم ولكنهم أشخاص يجب أن نلتقي بهم ، انهم ليسوا اخوة نحتفظ بهم بل اخوة نستخدم اخوة •

في مجتمع غني يرى مواطنوه ان مشاكل الفرد لا يمكن حلها الا اذا ضحى فرد آخر بسنوات وسنوات (فترة التمرين في مجال التحليل النفسي تستغرق من ثلاث الى خمس سنوات بعد التخرج من كلية الطب وقضاء فترة الامتياز) تصبح فكرة حل مشاكل سكان العالم اشبه بالامسحيل أو العبث ، اذ يتطلب الأمر حينئذ بلايين السنوات لعلاج كل منهم فيقول « الوالد » : (ستظل الحروب وشائعات شوبها قائمة دائما) ، ويقول « الطفل » : (كل ، واشرب ، وافح ، لأننا غدا نموت) • ويذكر لنا التاريخ ما حدث ، ولكنه لا يستطيع ان يذكر لنا ما يجب أن يكون أو لا يكون (٣) • انه عالم مفتوح ومتطور ، ولا نعرف ما يكفي عن هذا العالم

(١) بالرغم من نسلح الكاتب به قلب ثلاثة من أمال شعب العالم الثالث - خلال حديثه السابق عن الحرب في غيتام ، الا أنه هنا يدعو الى انهاء الحرب الباردة ويتنبأ بالاقترام العالمي الذي بدأت تلمحه بقوة جبروتاتشوف (اليسوتروپكا) والتي انتهت بظهور الكومنولث الجديد - المترجم •

بحيث نتحدث عما لا يمكن أن يحدث • ويستطيع « الراشد » فقط أن يعمل على تحقيق هذه الفكرة المثيرة • و « الراشد » فقط هو الذي يملك القدرة الخلاقة •

• ويستطيع « الراشد » أن يعرف استجابات « الطفل » لدى الآخرين ، ولكنه يستطيع أن يختار عدم الاستجابة النوعية ، والولايات المتحدة ، على سبيل المثال ، لا تستطيع أن تجد طريقها طول الوقت • ويكتب روبرت هاتشمن عن هذه النقطة في افتتاحية عن : دور الولايات المتحدة - قائلا :

دعنا نسلم بسوء القصد من جهة الصين ، وتصلب فيتنام الشمالية ، وعداوة الاتحاد السوفييتي ، وغرابة أطوار ديغول ، وعدم استقرار العالم النامي ، ودعنا نتذكر في نفس الوقت أننا نعيش تحت تهديد الاحتراق بفعل التنبؤ النووية الحرارية • فما هو الدور الصحيح للولايات المتحدة في الشؤون العالمية ؟ ما هي السياسة الصحيحة والحكيمة المفروضة أن تتبعها ؟

إننا نحيا ، ليس لشؤون الآخرين فقط - وهذه وجهة نظر تعبر عن جنون العظمة - بل أيضا لأخطائنا وأوهامنا • ولا يعني ذلك إنكار أن الآخرين أشرار ، لأنهم كذلك بالفعل • وما يجب علينا أن نعمله هو تفادي شر أنفسنا ، وتقديم نموذج للقوة النبيلة والذكاء ، وتنظيم العالم لمنع الشر الذي نجده في الداخل والخارج (٨) •

ويبدو لي أن الأسطورة الأمريكية مؤسسة على موقف (أنا على مايرام - وأنت لست على مايرام) • إننا (على مايرام) بفضل رجالنا العظماء أمثال باتريك هنري ، وتوماس جيفرسون ، وتوماس باين ، وأبراهام لنكولن • إننا ننظر إلى أنفسنا في أحسن صورة ، ولكننا نرى المعارضين في صورة كاريكاتيرية • ويسأل توماس مرتون عن عالم اليوم في كتابه الغاضب قائلا :

ماذا سنفعل عندما يتحتم علينا في النهاية أن نعرف أننا ممنوعون من دخول منطقة البراري والانقطاع إلى الأمام في عالم تاريخي مع كل الإيطاليين والأسبان والبولنديين بوصفنا جزءا من التاريخ مثل كل هؤلاء.

(٨) مقال التماسي بقلم R. Hutchins نشر بمجلة سان فرانسيسكو كرونيكل -

٣١ يوليو ١٩٦٦ •

(*) يعتمد التفتح الحديث في دراسة التاريخ والذي أرسى قواعده العليا للزوج أدولف توينسي باسم : فلسفة التاريخ - هل تجاوز مجرد سرد أحداث التاريخ إلى النظرة التاملية الشاملة حتى يستطيع التاريخ أن يذكر لنا ما يجب أن يكون أو لا يكون - لترجم -

الباقين ؟ وهذه هى نهاية الأسطورة الأمريكية : كن نستطيع فيها بعد ان نفل سارج الجو العالى المخلخل الهواء ، ونشير الى أسفل السماء الزرقاء نحو الناس الذين على الأرض لكن نطلعهم على النظام المثالى فى بلادنا . اننا فى نفس غرفة الطعام مع باقى الناس ، فهل مسندير ظهورنا لكل ذلك ؟ هل مستقف موقف المتفرج ، وتعتبر أن الأفراد الممتازين هم دائما الذين يطلقون النار مباشرة ، وهم الذين يكسبون دائما ؟ (٩) .

ان اطلاق النار المباشر والفوز - يلقبان التعظيم فى أمريكا - من الناس الشرفاء الذين يخافون ، والذين هم بطيئو الحركة وضعاف النظر ، والذين يتمتعون من العنف الذى يفرض على الأرض حاليا . كتب آرثر مبلر بعد اغتيال كيندى :

ان العنف موجود لاننا نكرس العنف كل يوم . ويستطيع اى وجيل نصف متعلم يرتدى بذلة أنيقة - أن يجمع ثروة بالظهور فى عرض تليفزيونى تصور مناظره الوحشية بتفاصيل مرعبة جدا . من ينتج مثل هذه النوعية من العروض ؟ ومن الذى يدفع لتمويلها ؟ ومن الذى يتشرف بالتمثيل فيها ؟ وهل هؤلاء جميعا يعانون من شدة الاضطراب العقلى ويتسربون بطول الشوارع التى يقطنها الفقراء ؟ لا . انهم نجوم المجتمع واعيدته ، وجالنا الأشراف ، ونماذج النجاح التى نفتدى بها فى انجازاتنا الاجتماعية . ليتنا نبدا فى الاحساس بالخجل والندم قبل أن نبدا فى بناء مجتمع يشهر بالأمان ، ونترك العالم المسالم جانبا ، فالبلد الذى لا يستطيع أن يسير فيه الناس آمنين فى شوارعهم لاستمتع التمتع بحق اوشاد الآخرين الى كيفية حكم أنفسهم ، ناهيك عن القاء القنابل على هؤلاء الآخرين (١٠) .

ان تكريس العنف مسجل فى « والد » أطفالنا الصغار . ويسمح ذلك بظهور الثورة والكراهية الموجودة فى « طفل » أى شخص . والنتيجة هى الحكم بالاعدام على حضارتنا اذ يبلغ عدد جرائم القتل التى ترتكب سنويا فى الولايات المتحدة ٦٥٠٠ جريمة قتل فى مقابل ٣٠ بانجلترا ،

T. Merton, "Conjectures of a Guilty Bystander", (New York: Doubleday, 1966).

(١٠) مقال بقلم A. Miller وعنوانه : متاعب بلادنا - نشر فى مجلة : ليويورد تايمز . واعيد نشره فى مجلة : سان فرانسيسكو كرونكل - بتاريخ ١٦ يونيو ١٩٦٨ - ص ٢ .

و ٩٩ فى كندا ، و ٦٨ فى ألمانيا ، و ٣٧ فى اليابان . وقد بيع أكثر من مليونى بندقية فى الولايات المتحدة سنة ١٩٦٧ كما بلغ عدد المسدسات المباعه قانونيا فى ولاية كاليفورنيا وحدها ٧٤٢٤١ مسدسا خلال الشهور الأربعة الأولى من سنة ١٩٦٨ .

وقد كلف الرئيس جونسون اللجنة الجديدة لدراسة الجريمة بالنظر فى (أسباب وظروف العنف الجسدى فى هذا البلد ، ابتداء من الاغتيل بدافع التحيز أو المذاهب الفكرية أو الأفكار السياسية أو الجنون - الى ارتكاب العنف فى شوارع المدن الأمريكية ، بل أيضا فى البيوت) .

والعنف فى بيوتنا الأمريكية هو أوضح أنواع العنف . ان « الطفل ، هو الذى يرتكب جريمة القتل . وأين يتعلم « الطفل » القتل ؟ فى كل يوم يقتل بالولايات المتحدة طفل أو طفلان فى سن أقل من خمس سنوات على يد والديهم . وطبقا لما أوردته الدكتوران راي ا . هيلفر ، وهنرى كيب بجامعة كولورادو ، اللذان نشرتا تقريرهما فى كتاب بعنوان : *The Battered child* - نجد أن معدل قتل الاطفال اكبر من المجموع الكلى لنسبة الموتى من الاطفال بسبب الأمراض . وبالإضافة الى ذلك فإن خمسة اطفال يصابون بالأذى كل ساعة على يد والديهم أو الأوصياء . وقال الدكتور هيلفر أن من بين المشاكل المتعلقة بمحاولة للبحث عن حل لمشكلة - توفير الأطباء النفسانيين اللازمين لعلاج الوالدين ، وتم التركيز على مساعدة الوالدين كحل لمشكلة العنف خلال استطلاع للرأى أجري بمعهد جالوب خلال اليوم السابق لاطلاق الرصاص على كيندى . وقد بينت الاجابات أن الحل الأول لمشكلة العنف يتمثل فى « اصدار قوانين أشد لتنظيم حمل السلاح » ، وبالإضافة الى ذلك طلب الكثيرون من الذين أدلوا برأيهم - اصدار « قوانين أشد الزاما » وحذف برامج العنف من التليفزيون . وتحسين السلطة الأبوية (بما فيها تنظيم دراسات للآباء والأمهات لتعليمهم كيفية تربية صغارهم) (١١) .

وقد عرض معهد تحليل المعاملات فى ساكرامنتو لتدريس مثل هذه الدراسات منذ سنة ١٩٦٦ . وقد حضرها بالفعل مئات من الوالدين . وهذه الدراسات التى يستغرق مدة البرنامج المخصص لها ثمانية أسابيع - تبدأ بشرح لنموذج (الوالد - الراشد - الطفل) . وكان من بين الدارسين محللون نفسيون ، ومشرقو اختبارات الصلاحية للوظائف ،

ورجال الدين ، واطباء الأطفال ، والمدرسون ، وعلماء النفس ، وأحد أطباء
التوليد ، واستعملوا جميعا نفس اللغة أى نموذج (الوالد - الراشد -
الطفل) وتم تطبيق تحليل المعاملات على الموضوعات التالية : مشكلة أريد
أن أبقى فيه ولكن ... ، والتوصل الى تغيير الشباب المعارض ، وفهم
القيم الأخلاقية ، والعلاقة بين الحرية والحب ، ومشاكل قلة الانجساز
والاعاقة ، والتدخل فى الأزمات ، ولماذا يتصرف الأطفال بغباء ، وانقاذ
واصلاح الطلبة الفقراء ، وبناء مواقف سليمة نحو الجنس والزواج ،
والتحكم فى المواطن . وقد ساعدت هذه المناهج الأبوين على الارتقاء
الى الأفضل ، كما ساعدت على انقاذ واصلاح العائلات التى تعاني من
الضيق . وقد كتبت إحدى الأمهات بعد الانتهاء من أحد هذه البرامج
الدراسية ، ما يلى :

« كان هذا البرنامج من أفضل ما تلقينا من أحداث . لقد فتح خطا
جديدا للاتصال بين زوجي وبينى ، وقد استفدت منه استفادة عظيمة ،
بدليل أن الأفراد الذين أعمل معهم صرحوا بأننى أصبحت شخصية
مختلفة منذ بدأت دراسة هذا المنهج ، وهناك سيدة تقول لى دائما :
بارك الله فى « راشدك » - ونحن أيضا نرى ماهية مشكلتنا مع ابنتنا ،
ونستطيع أن نحلها بأنفسنا » .

ان معرفة كيفية وقف العنف فى البيت تقود الى معرفة كيفية وقف
العنف فى المجتمع . ويجب على المشرفين على الصناعات ، ورجال الاعلان ،
ومنتجى المواد الترفيهية - أن يدرسوا نفس هذه البرامج التى درسها
الآباء والأمهات لأن جهود الاصلاح داخل البيت تنقوض تماما تحت هذا
السييل المنهمر من المعلومات المتناقضة القادمة من خارج البيت . وقد
سألتنى ابنتى ذات العشر سنوات : « هل نستطيع الذهاب لمشاهدة
بونى وكلايد ؟ » فقلت : « لا ، انه فيلم مشحون بالعنف ولا أحب الطريقة
التي أبرز بها بعض الأفراد شديدي الانحطاط » . وبعد ذلك بأيام قليلة
كان من الصعب أن أفسر لماذا تكررت قصة بونى وكلايد خلال حلل
التحكيم بالأكاديمية .

وأظن أن الذين حققوا ثروات من العنف ، قد حققوا الراحة حسب
وجهة نظر بعض علماء النفس الذين قرروا أن مشاهدة العنف تمثل صمام
أمان يساعد الأفراد على نبذ العنف أكثر من ممارسته . وليست هناك
وسيلة لاثبات صحة وجهة النظر هذه ، بينما نجد هناك دليلا واضحا
لمعارضتها : ان هذا الفريق من علماء النفس يمثل وجهة النظر القائلة بأن

المشاعر تتراكم كما لو كانت في دلو ، يجب تفريغه كل فترة - وعلينا أن نفكر في المشاعر بدقة أكثر بوصفها استعدادة تشبيل التسجيلات القديمة التي يمكن محوها أيضا - وعلينا ألا نفكر في مشكلة تفريغ مشاعرنا ، لأننا نستطيع أن نمحوها بسهولة ، وأن نمنعها من اغراق حاسبنا الآلي ، وبدلاً من ذلك علينا أن نملأ هذا الحاسب بأشياء أخرى - قال امرسون : « ان الرجل هو نفس ما يفكر فيه طوال اليوم » .

وفي عصر سابق عندما كان العالم مشحوناً بالاغتيال السياسي ، وبيع الناس كاركاء ، وصلب الأبرياء ، وقتل الأطفال ، وتسلية الأباطرة بمتعة مشاهدة الدم في حلبات المصارعة - كتب رجل عاقل لجماعة صغيرة من الناس في مدينة فيلبس قائلا : « أخيراً أيها الاخوة ، كل ما هو حق ، كل ما هو جليل ، كل ما هو عادل ، كل ما هو طاهر ، كل ما هو مسر ، كل ما حسيته حسن ، ان كانت فضيلة ، وان كان مدح ، ففي هذه افكروا (*) » .

نستطيع أن نكره الشر بشدة ، الى الدرجة التي تسببنا حب الخير . وهناك الخير الكثير في أمريكا ، لدرجة أنه جذب إعجاب سائر الناس في العالم خلال الأعوام الماضية ، وهناك أيضاً الكثير الذي اجتذب المظلومين من البلدان الأخرى - وفي سنة ١٩٥٠ قال شارل مالك - مندوب لبنان في الأمم المتحدة مايلي :

عندما أفكر فيما يمكن للكنائس والجمعيات الأمريكية أن تفعله ، بأسلوب الوساطة التي تعتمد على الحب والصفح ، والتحل بضبط النفس ، وتلويب العقل على كشف الحقيقة ، وعندما لاحظ ما تستطيع صناعاتكم أن تحققه بأسلوب تغيير المادة الكلية لهذا العالم الى أداة تخفف من وطأة معاناة الإنسان ، وعندما أتأمل فيما يمكن لبيوتكم وجمعياتكم الصغيرة أن تبنته عن طريق الأخلاق والصلابة والاستقرار والرح ، وعندما أعود الى وسائل الاعلام العظيمة الممثلة في الصحافة والسينما والإذاعة والتلفزيون ومقدراتها المكثفة على توصيل الكلمة الأمريكية - عندما أفكر بتواضع وواقعية في هذه الأشياء ، وعندما أمتنبت فيما بعد أنه لا يوجد ما يمنع هذه الوكالات من تكريس نفسها لخدمة الحقيقة والحب والبقاء - فأنني أقول : « ربما أصبح يوم القيامة على الأبواب » .

(*) رسالة بولس الرسول الى أهل فيلبس - ٤ : ٨ - للترجم .

أما الشيء الوحيد الذي يمنع هذا التكريس فهو الخوف - الخوف من سائر الناس على سطح هذه الأرض ، الخوف الذي في « الطفل » والذي سيجرف مصادرها الخيرة الى معركة متصاعدة دائما ، ونخطئ الظن بأننا سنفوز فيها .

الفائزون والخاسرون :

كما كان الاختيار الموضوع أمام هاملت هو : « تكون أو لا تكون » ، فكذلك الاختيار الموضوع أمام الولايات المتحدة هو في اعتقادي : « نكسب أو لا نكسب » ، هذا بالنسبة للمعركة ضد الشيوعية . ومفهوم (أن نكسب) هنا أهم من مفهوم (أن تكون) ، كما يظهر من وجهة النظر التي تتزايد في الدعوة الى المفارقة باستخدام العدوان المسلح مما يقود في النهاية الى تدمير العالم .

لقد ألقى القنابل على إحدى القرى الفيتنامية بكثافة شديدة حتى أن القوات المهاجمة عندما دخلتها في النهاية ، لم تجد شيئا قائما ولا شخصا حيا . وقد علق قائد هذه العملية على ذلك بقوله : « كان علينا أن نبدهم لكي نقتلهم » . وتقع هذه العبارة وقع عبارة « الوالد » التي جاءت في شكل مرسوم كنسي صدر قديما وبه هذه العبارة : ان هذا يؤذيني أكثر مما يؤذيكم . فهل نستطيع حقا أن نقول للقرية التي أبيت والتي تنافرت بحث سكانها المتفحمة في الشوارع : ان هذا يؤذيكم أكثر مما يؤذيكم ؟

كيف يرى أهالي فيتنام الشمالية والجنوبية ، الديمقراطية التي يمجدها الأمريكيون ، ويصرون على أنها أفضل نظم الحكم ؟ هل يحبونها ؟ وهل يفهمونها ؟ هل يحترمون أسلوبنا الحر في الحياة بالنظر الى ما يرونه في بلدنا ؟ هل يصدقون أننا حقاً نجب القوقاز الآسيويين ، بالمقارنة مع النزاع العنصري في أمريكا ؟ أننا نقول أن « الديمقراطية صالحة » بنفس الطريقة التي نقول بها الأم لابنها أن « السبانخ لذيذة » . لقد أجبرنا في معاملات عديدة مشابهة على عدم الثقة في حواسنا وعدم تأكيد مشاعرنا . هل كانت الأم متحمسة حقيقة لتناول السبانخ بنفسها ؟ ان الديمقراطية صالحة ، ولكن هل العنف والحرب هما السبيل الوحيد الذي ننشر به صلاحها وخيرها ؟

« ان الديموقراطية صالحة » ، و « هذا يؤذيني أكثر مما يؤذيك » ، عبارتان تعبران معا عن خطورة الألعاب العولية من حيث أنهما تختفیان خلف الدافع الحقيقي الذى يعنى : « يجب أن نفوز ، لأننا اذا لم نكسب فلنبد أن نخسر » .

فهل المكسب والخسارة هما الاختيار الوحيد الموضوع أمام الأشخاص أو الدول ؟ هل الطريقة الوحيدة لكى تظل فائزا تتمثل فى أن نحيط نفسك بالخاسرين ؟ ألم تعد لدينا نماذج أخرى سوى نماذج الفائزين والخاسرين ؟ عندما نزع الانسان الأول من الغابات بفعل التغيرات المناخية التى قاصت من مساحة الضابات ، لم يعد أمامه الا مخرجين محتملين للانتشجار مع الوحوش آكلة اللحوم الموجودة من قديم الزمان فى السهل الفسيح . أما الذين كسبوا معركة البحث عن الطعام فقد استطاعوا البقاء ، وأما الذين خسروها فقد ماتوا . ويصدق القول على القادة الدينيين والسياسيين الذين ظهروا من وقت لآخر ، يدعون حينذاك الى ما اعتبر نموذجا جديدا ، ولكن أفكار هؤلاء « الحالمين والمنتبئين » بدت للكثير من الناس كنوع من المدينة الفاضلة ، أو أنها قادمة من عالم آخر ، أو أنها مستحيلة . والحقيقة هى أن نماذج الفائز والخاسر قد انتشرت على مدى تاريخ الإنسان .

والآن ، تغيرت الظروف ، فقد أصبح من المستطاع بفضل المعرفة العلمية التاج طعام يكفى لتغذية سكان العالم اذا أمكن السيطرة على الانفجار السكاني ، كذلك أتاح العلم إمكانية تنظيم النسل . ونستطيع الآن أن نتصور اختيارا آخر هو : (أنا على مايرام - وأنت على مايرام) . وأخيرا أصبح من الممكن بقاء الجميع استنادا الى الواقع . فى البداية نما عقل الانسان وتطور لخدمة الوجود ، فهل نستطيع الآن أن نوجه العقل لأداء وظائف جديدة ، وظائف تؤدى الى بقاء كل سكان العالم ؟ هل نستطيع عطية الحياة والمدى المحدود لبقاء الانسان على هذه الأرض ، أن يتيحوا الاستمتاع الكامل بالامكانيات الروحية للانسان ؟ اذا رأينا أن موقف (أنا على مايرام - وأنت على مايرام) أصبح أخيرا ممكن التحقيق ، فهل نجرؤ على البحث عن التغيير ، والتوصل الى شئ جديد تحت الشمس ، شئ يكبح جماح العنف الذى يسلط بتدمير ما استغرق بناؤه ملايين السنين ؟

قال نيهار : « اما أن تعجز الطبيعة عن تلبية احتياجاتنا للمستقبل ، وفى هذه الحالة نفكر فى أن العالم وهو الذى يمثل ثمرة جهاد ملايين

السنين ، قد اختنق ، أو ولد ميتا ، أو غير كامل النمو ، أو صار لا معقول .
 وإما أن تفتح ثغرة ، (١٢) .

وأظن أننا قد وجدنا الثغرة . هذه الثغرة لن يستكشفها مجتمع
 متحد بدون اسم ، ولكن جميع أفراد هذا المجتمع معا . ويمكن القيام
 بالاستكشاف فقط عندما يصير الأفراد متحررين من أغلال الماضي ، وأحرارا
 في أن يختاروا اما قبول أو رفض قيم وطرائق الماضي . وسيظهر استنتاج
 حتمي هو : ان المجتمع لن يستطيع أن يتغير حتى يتغير الأفراد أنفسهم .
 اننا نركز أملنا في المستقبل على أساس حقيقة أننا قد رأينا الناس يتغيرون .
 أما كيف فعلوا ذلك فهذا هو الخبر السار الذي يتضمنه هذا الكتاب .
 اننا نثق في أن ذلك يمثل قدرا كبيرا من الأمل ، وصفحة مهمة من صفحات
 دليل بقاء الجنس البشرى .

Pierre Teilhard de Chardin, "The Phenomenon of Man," (١٢)
 (New York : Harper, 1961).

الفهرس

الموضوع	الصفحة
كلمة المترجم	٥
تصريف	٩
تنويه	١١
مقدمة	١٣
الفصل الأول : « فرويد وبنفيلد وبرن »	١٩
الفصل الثاني : « الوالد - الراشد - الطفل »	٣٥
الفصل الثالث : « مواقف الحياة الأربعة »	٥٥
الفصل الرابع : « نستطيع أن نتغير »	٧٣
الفصل الخامس : « تحليل المعاملات »	٨٥
الفصل السادس : « كيف تختلف »	١١٥
الفصل السابع : « كيف نستخدم الوقت »	١٣٢
الفصل الثامن : « نموذج » (الوالد - الراشد - الطفل) والزواج	١٤٥
الفصل التاسع : « نموذج » (الوالد - الراشد - الطفل) والأطفال الصغار	١٦٣
الفصل العاشر : « نموذج » (الوالد - الراشد - الطفل) والمراهقون	١٩٥
الفصل الحادي عشر : « متى يكون العلاج ضروريا ؟ »	٢١٩
الفصل الثاني عشر : « نموذج » (الوالد - الراشد - الطفل) والقيم الأخلاقية	٢٢٧
الفصل الثالث عشر : « المفاهيم الاجتماعية لنموذج » (الوالد الراشد - الطفل)	٢٥٣

صدر من هذه السلسلة :

اسم المؤلف	اسم الكتاب
برتراند رسل	١ - أحلام الأعلام وقصص أخرى
لي. ر. واوونستاكيا	٢ - الألكترونيات والحياة الحديثة
السن هكسلي	٣ - نقطة مقابل نقطة
ت. و. فريمان	٤ - الجغرافيا في مائة عام
رايموند وليامز	٥ - الثقافة والمجتمع
ر. ج. فوردنس	٦ - تاريخ العلم والتكنولوجيا ج ٢ - القرن الثامن عشر والتاسع عشر
ليستر ديل راي	٧ - الأرض الغامضة
والتر آلن	٨ - الرواية الانجليزية
لويس فارغاس	٩ - المرشد إلى فن المسرح
فرانسوا دumas	١٠ - آلهة نضمر
د. قدرى حنى وآخرون	١١ - الإنسان المصرى على الشاشة
أولج فولكف	١٢ - القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
ماشم النحاس	١٣ - الهوية القومية في السينما العربية
ديفيد وليام ماكنونال	١٤ - مجسوعات النقود
عزيز الشوان	صياغتها .. تصنيفها .. عرضها
د. محسن جاسم الموسوى	١٥ - الموسيقى - تعبیر نفسي - ومنطق
اشراف س. بي. كوكس	١٦ - عصر الرواية - مقال في النوع الأدبي
جون لويس	١٧ - ديالان توماس
بول ويست	مجموعة مقالات نقدية
د. عبد المعطى شعراوي	١٨ - الإنسان ذلك الكائن الفريد
أنور المعداوي	١٩ - الرواية الحديثة - الانجليزية - والفرنسية
بيل شول وأدبنييت	ج ١
د. صفاء خلوصي	٢٠ - المسرح المصري المعاصر - أصله وبدايته
	٢١ - على محمود طه - الشاعر والانسان
	٢٢ - القوة النفسية للأهرام
	٢٣ - فن الترجمة

اسم المؤلف	اسم الكتاب
رائف نى ماتلو	٢٤ - تولستوى
فيكتور برومير	٢٥ - سستندال
فيكتور هوجو	٢٦ - رسائل واحاديث من المتن
ميرنو هيزنبرج	٢٧ - الجزء والكل (محاورات في مضمار الفيزياء النظرية)
سدنى هوك	٢٨ - التراث الفاضل ماركس والماركسيون
ف . ع . ادنيكوف	٢٩ - فن الأدب الروائي عند تولستوى
هادى نعمان الهيتى	٣٠ - أدب الأطفال . (فلسفته - فنونه - وسائله)
د . نعمة رحيم العزاوى	٣١ - أحمد حسن الزيات . كاتباً وناقداً
د . فاضل أحمد الطائى	٣٢ - اعلام العرب فى الكيمياء
فرانسيس فرجون	٣٣ - فكرة المسرح
هنرى باربوس	٣٤ - الجحيم
السيد عليوة	٣٥ - صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة
جوكوب برونولسكى	٣٦ - التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)
د . روجر ستروجان	٣٧ - هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال ؟
كاثى ثير	٣٨ - تربية الدواجن
ا . مبنسر	٣٩ - الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
د . ناعوم بيتروفيتش	٤٠ - النحل والطب
جوزيف داهموس	٤١ - سيج معارك فاصلة فى المصور الوسطى
د . لينوار تشامبرز دايت	٤٢ - سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
د . جون شندلر	٤٣ - كيف تعيش ٣٦٥ يوماً فى السنة
بيو البير	٤٤ - الصحافة
الدكتور غبريال وهبه	٤٥ - أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى
د . رمسيس عوض	٤٦ - الأدب الروسى قبيل الثورة البلشفية وبعدها

اسم المؤلف	اسم الكتاب
د. محمد نعمان جلال	٤٦ - حركة عدم الانحياز في عالم متغير
فرائكلين ل. باومر	٤٨ - الفكر الأوروبي الحديث ج ١
شوكت الريبي	٤٩ - الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي ١٨٨٥ - ١٩٨٥
د. محيي الدين أحمد حسين	٥٠ - التشيئة الأسرية والأبناء الصغار
تأليف : ج. داهلي أندرو	٥١ - نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	٥٢ - مختارات من الأدب القصصى
د. جوهان دودشتر	٥٣ - الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد ؟
طائفة من العلماء الأمريكيين	٥٤ - حرب الفضاء
د. ألسيد عليوة	٥٥ - إدارة الصراعات الدولية
د. مصطفى عناني	٥٦ - الميكروكمبيوتر
اختيار وترجمة	٥٧ - مختارات من الأدب الياباني (الشعر - الدراما - الحكاية - القصة القصيرة)
صبرى الفضل	٥٨ - الفكر الأوروبي الحديث ج ٢
فرائكلين ل. بلومر	٥٩ - تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة
جابريل باير	٦٠ - اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
أنطوني دي كرسيني	٦١ - الفكر الأوروبي الحديث ج ٣
فرائكلين ل. باومر	٦٢ - كتابة السيناريو للسينما
دوايت سوين	٦٣ - الزمن وقياسه
زافيلسكي ف. س	٦٤ - أجهزة تكييف الهواء
إبراهيم القرضاوى	٦٥ - الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
بيتر ر. داي	٦٦ - سبعة مؤرخين في العصور الوسطى
جوزيف داهموس	٦٧ - التجربة اليونانية
س. م. بورا	٦٨ - مراكز الصناعة في مصر الإسلامية
د. عاصم محمد رزق	٦٩ - المنهج والطلاب والمدارس
رونالد د. ميسمون	٧٠ - الشارح المصرى والفكر
و. نورمان د. أندرسون	
د. أنور عبد الملك	

اسم المؤلف	اسم الكتاب
والتر روستو	٧١ - جوار خول التنمية
فريد هيس	٧٢ - تبسيط الكيمياء
جون بودكهارت	٧٣ - المعاداة والتقاليد المصرية
الان كامبر	٧٤ - التنوع السينمائي
سامي عبد المعطي	٧٥ - التخطيط السياحي
فريد هويل	٧٦ - البنود الكونية
شندرا ويكرا ماسينغ	٧٧ - دراما الشاشة ج ١
حسين حلمي المهندس	٧٨ - الهيروين والايدز
روى روبرتسون	٧٩ - الفكر الاوربي الحديث ج ٤
فرانكلين ل. باوهر	٨٠ - نجيب محفوظ على الشاشة
هاشم النحاس	٨١ - صور الريقية
دوركاس ماكلينتوك	٨٢ - الكمبيوتر في مجالات الحياة
د. محمود سري طه	٨٣ - دراما الشاشة ج ٢
حسين حلمي المهندس	٨٤ - المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
بيتر لوري	٨٥ - وظائف الأعضاء من الالب الى اليه
بوريس فيدروفيتش سيرجيف	٨٦ - الهندسة الوراثية
ويليام بينر	٨٧ - تربية أسماك الزينة
ديفيد العرتون	٨٨ - كتب غيوت الفكر الانساني
احمد محمد الشنواني	٨٩ - الفلسفة وقضايا العصر ج ١
جميعها : جون ر. بورر	٩٠ - الفكر التاريخي عند الاغريق
وميلتون جولدينجر	٩١ - قضايا وملامح الفن التشكيلي
ارنولد توينبي	٩٢ - التغذية في البلدان النامية
د. صالح رضا	٩٣ - الفلسفة وقضايا العصر ج ٢
م. ه. كنج وآخرون	٩٤ - بداية بلا نهاية
جميعها : جون ر. بورر	
وميلتون جولدينجر	
جورج جاموف	

اسم المؤلف	اسم الكتاب
د. السيد طه ابو سدرة	٩٥ - الحرف والصناعات في مصر الاسلامية
جاليليو جاليليه	٩٦ - حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ج١
جاليليو جاليليه	٩٧ - حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ج٢
جاليليو جاليليه	٩٨ - حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ج٣
أريك موريس ، آلان هو	٩٩ - الارهاب
سيريل الفريد	١٠٠ - أخناتون
آرثر كيستلر	١٠١ - القبيلة الثالثة عشرة
جمعها : جون د. يورد	١٠٢ - الفلسفة وقضايا العصر ج ٢
ميلتون جولد ينجر	١٠٣ - الأساطير الاغريقية
كوفلان	١٠٤ - العلم والتكنولوجيا
د.ج. فويس ،	
ا.ج. ديكنسترووز	

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٢/٢٧٢٠

ISBN — 977 — 01 — 2998 — 4

هذا الكتاب يمثل مرحلة جديدة في التحليل النفسي وهو
يعتبر تطبيقاً عملياً للأسلوب الجديد الذي ابتكره الدكتور
أريك برن للعلاج بالتحليل النفسي اعتماداً على استخدام
الأنعاب وتدريب المريض (الوالد - الراشد - الطفل)
لجميعات المرضى والمدربين تحت إشراف طبيب نفسي
مختص يقوم بالملاحظة والتصحيح. والكتاب يساعد
القارئ العادي على اكتشاف الجوانب النفسية التي تحكم
في أساليب السلوك لديه وبالتالي يستطيع أن يتقدم إلى
المستقل مشجعاً بالتأمل والأمل وبذلك يتفاعل مع غيره من
أفراد المجتمع نحو إقامة المجتمع السليم.